وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإسلام والآخر

أحمد الجهيني
محمد مصطفى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإســـلام والآخـــر

أحمد الجهينى

محمد مصطفى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإخراج الفنى :   فـاتـن رضـــــا
الغـــــلاف :   درية محمد على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بسم االله الرحمن الرحيم

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)
وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا
وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

صدق الله العظيم

سورة فصلت الآية ٣٣ : ٣٥

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المسلمون والإسلام..
الحجة والقدوة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من هو المسلم؟ سؤال لا تبدو الإجابة عنه سهلة رغم بساطتها، وذلك أن مسلمى اليوم يكادون يختلفون اختلافًا تامًا عن مسلمى الأمس.. حتى إننا إذا ما قارنا بين هؤلاء وأولئك فكأننا نقارن بين أمتين لا يجمع بينهما إلا الاسم، سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ: ما الإسلام؟ فأجابه: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». ويقول تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران: ١٠٢)، والتقوى كما عرفها الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ هى: «الخوف من الجليل ـ الله ـ والعمل بالتنزيل ـ القرآن الكريم ـ والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل» ،وقوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ (آل عمران: ١٠٢)، معناه أن يُطاع تعالى فلا يُعصى، ويُشكر فلا يكفر بنعمته، ويُذكر فلا ينسى.

ليس الإسلام إذًا مجرد عبادات من يلتزم بها يصبح مسلمًا، أو قناعات داخلية يوهم بها الإنسان نفسه، فما لم تترجم هذه العبادات وتلك القناعات فى صورة سلوك فلا يكتمل إسلام المسلم، كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ ينطقون بالشهادتين ويصلون ويزكون ويحجون، بل إن بعضهم شارك فى الغزوات، لكن ذلك لم يغن عنهم من الله شيئًا، فقد اضطلع علام الغيوب على ما فى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قلوبهم وعلم أنهم يراءون الناس ويبغون عرض الحياة الدنيا، ويخشون الناس والله أحق أن يخشوه فأحبط أعمالهم وردها عليهم.

وجاء رجل إلى النبى الكريم ﷺ يسأله: يا رسول الله: ما الإسلام؟ فأجابه: أن يسلم قلبك لله، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك.. إنه تأكيد من النبى الخاتم على معنى آخر للإسلام، لا يكون المرء مسلمًا إن لم يطبقه، لكن المتطرفين والغلاة فى كل فرقة ومذهب إسلامى يرون أنهم فقط هم المسلمون، ومن سواهم خرجوا عن الشرع الحنيف، لقد أكد الحق سبحانه وتعالى أن معنى الإسلام لله أسبق من البعثة المحمدية، به التزم أنبياء الله ورسله والصالحون من عباده، يخاطب خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام مولاه داعيًا إياه أن يجعله وذريته من المسلمين ويتقبل المولى عز وجل دعوة خليله ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ (البقرة : ١٢٨- ١٣٢).

إن الإسلام فى أبسط معانيه هو تفويض وتسليم الأمر كله لله، مع الرضا بما قضى، أن تأتمر بما أمر وتنتهى عما نهى، هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ليس فى هذا خلط بين الإسلام والإيمان والإحسان، فلا تعارض أو تناقض بين الإسلام والإيمان والإحسان، إنها درجات من إسلام الوجه والقلب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والجوارح لله، أمر بها سبحانه وتعالى عباده وحضَّهم أن يلتزموا بها، يخاطب تعالى عباده فى القرآن الكريم فيصفهم فى أغلب المواضع بالمؤمنين، ويحبب الإحسان إليهم، وإذا كان هناك فارق بين الإسلام والإيمان فهو أن «الإسلام يتحدد بالعمل الظاهر فى نطاق الجماعة، أى إعلان التوجه والانخراط الاجتماعى فى المجموع، بينما يظل الإيمان أمرًا مستترًا، لكن للمسلمين الظاهر والله يتولى السرائر، ولا يخفى أن تفرقة القرآن بين المفهومين أو الحالتين إنما المقصود منه جمع الناس حول الدين، عن طريق تقبل الانخراط الظاهر دونما تفتيش كثير عما وراء ذلك»[1] إن الإسلام درجات تبدأ بإقرار التوحيد والالتزام بالعبادات وتنتهى بالإحسان، بأن يعامل المرء نفسه والناس وربه وكأنه يرى الله مضطلعًا على كل ما يفعل... بهذا الفهم أدرك المسلمون الأوائل معنى الإسلام والتزموا به فكانت النتيجة حضارة أنارت العالم قرونًا عدة.

وإذا كان مسلمو اليوم يختلفون عن أسلافهم فمرد ذلك إلى أسباب كثيرة، لعل أهمها أن الإسلام منظومة متكاملة لا تستقيم أمور الناس إن أخذوا منها جزءًا وتركوا جزءًا، أو إن طوعوها لأهوائهم، أو إن التزموا الحرف وأهملوا الروح والمقصد والهدف، وسواء فعل بعض المسلمين كل هذا أو فعل كل المسلمين بعض هذا، فإن هذا لا ينقص من قيمة وقدر الإسلام، فالإسلام حجة على المسلمين وليس المسلمون حجة على الإسلام ﴿**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (الحجرات : ١٦- ١٧)، لقد جاء الإسلام ليكمل مكارم الأخلاق، ليعلى الحق والعدل والحرية والمساواة، وطبق المسلمون الأوائل هذه القيم فدخل الناس فى دين الله

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أفواجا، أما الآن فإن تخلف المسلمين العلمى وسيادة الدكتاتورية فى أغلب الدول المسلمة وغياب روح التسامح والطموح، يضع المسلمين فى وضع حرج، بل إن هناك من يطعن فى الإسلام بسبب تدهور أحوال المسلمين حتى عند الحديث عن الإسلام وحقوق الإنسان سوف يشير المشككون فى مدى التوافق بين الإسلام والمبادئ العالمية لحقوق الإنسان إلى وضع هذه الحقوق فى دول إسلامية عديدة كدليل على أن الدين فى حد ذاته مسئول جزئيًا عن بعض انتهاكات حقوق الإنسان، غير أن الإسلام لا يعد قوة سياسية محددة التى يمكن أن تكون السبب الرئيسى للنتائج السياسية فى دول المسلمين، ففى النهاية هناك تنوع وتعدد فى العمليات والسياسات والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية داخل الدول الإسلامية المعاصرة، ونتيجة لسبب هذه التنوعات فإنه يصبح من المنطقى استخدام الإسلام كثابت لتفسير السلطوية وانتهاكات حقوق الإنسان فى هذه النظم، وإذا كان الإسلام متهمًا فإن سياسات هذه النظم سوف تتسم بالتناسق»[٢].

إن تقييم الإسلام والحكم عليه من خلال أحوال وأفعال المسلمين أمر غير صحيح، الإسلام ليس تنظيم القاعدة أو حركة طالبان، كما أن المسيحية ليست الحروب الصليبية أو محاكم التفتيش أو إبادة الهنود الحمر، أيضًا اليهودية ليست الصهيونية، فهناك فرق بين الديانة ومن يطبقونها، فكل يطبق حسب فهمه وربما حسب أهوائه ومصالحه «وإنما هى علة عرضت على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام فى أفئدتهم، وكان السبب فى تمكنها وإطفائها لنور الإسلام من عقولهم هو السياسة، كذلك تلك الشجرة الملعونة فى القرآن، عبادة الهوى واتباع خطوات الشيطان»[٣]، لقد جاء الإسلام ليبث الأمل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فى نفوس الخلق لكن الحكام وأعوان الحكام من المفسدين أرادوا شيئًا آخر حتى وإن تناقض مع الشرع الذى استمدوا به شرعية حكمهم فكانت «سياسة الظلمة وأهل الأثرة هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السماء وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات، فجل ما تراه الآن مما تسميه إسلامًا فهو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الإسلام، صورة الصلاة والصوم والحج، ومن الأقوال قليل منها حرفت عن معانيها»(٤).

والإنسان الوحيد الذى نستطيع أن نقيم الإسلام وفقًا لأفعاله هو الرسول الكريم ﷺ، وذلك لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ (الأحزاب: ٢١)، كان عليه الصلاة والسلام خلقه القرآن أو قرآن يمشى على قدمين، ثم يأتى من بعده صحابته رضى الله عنهم ، وقال ﷺ فيهم: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».. لكنه لم يجعل القرب منه بديلاً عن العمل الصالح المبنى على فهم صحيح للدين بعيدًا عن الأهواء، ونراه ﷺ يوصى أهله بالعمل: «اعملى يا فاطمة يا ابنة محمد فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا، اعملى يا صفية يا عمة محمد فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا، اعمل يا عباس يا عم محمد فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا».

إن احتكار البعض الحديث باسم الإسلام هو الآفة التى يعانى منها المسلمون والإسلام، وهو المدخل والذريعة التى يتخذها غير المنصفين كمبرر للهجوم على الإسلام، والذين يحتكرون الحديث باسم الإسلام يتجاهلون أن الإسلام دين لا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كهنوت فيه ولا وساطة فيه بين المرء وربه، وأن الإسلام لا يقسم الناس إلى رجال دين ورجال دنيا، فكل المسلمين ـ رجال ونساء ـ يستطيعون أن يكونوا علماء دين شرط الاجتهاد فى العلم، كما يتجاهلون أن الاختلاف سنة من سنن الله فى كونه وأن الاجتهاد يجب أن يسير على أن «رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب» فكل الناس يُرد عليهم إلا خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وأن العصمة لا تكون إلا لنبى أو رسول.

وإذا عاملنا الإسلام باعتباره مسئولاً بشكل مباشر أو غير مباشر عن أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فيجب أن نعامل المسيحية بنفس المنطق ونفس الطريقة عن الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش، ويجب أن نعامل اليهودية بنفس المنطق والطريقة عن مذابح دير ياسين وصبرا وشاتيلا وقانا ومخيم جنين.. إلخ. إن الحق سبحانه وتعالى يشدد على أن كل إنسان مسئول عن أفعاله فلا يتحمل أحد ذنب أو جرم أحد ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الزمر: ٧)، فكيف يوصف دين أو عقيدة بأنه دين الإرهاب أو دين دموى أو يحض على الكراهية لمجرد أن بعض من ينتسبون إليه قاموا بعمل إرهابى أو سفكوا دمًا بغير وجه حق؟!! إن الروح «الذى أسكنه الله جميع شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر وتشديد النظر، وتأديب الأهواء، وتحديد مطامح الشهوات، والدخول إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة والتعاون على البر والتناصح فى الخير والشر وغير ذلك من أصول الفضائل، ذلك هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة، ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها، يزيد الله النعم بقوته، وينقصها بضعفه، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره واستبدل الله عز

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القوم بالذل، وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء، وراحتهم بالعناء وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون»[٥] هذا ما يجب أن يضعه المسلمون أمام أعينهم، وهذا ما يجب أن يضعه الآخر عند حديثه عن الإسلام، فالإسلام حجة على المسلمين وليس المسلمون حجة على الإسلام.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الباب الأول

ثوابت فى عالم متغير

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

● تمهيد

خصوصية النظرة الإسلامية للآخر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

من هو الآخر؟ سؤال شغل بال الكثيرين من علماء الاجتماع، ذلك أن تحديد الآخر يتحدد بوجه الاختلاف الذى يفرق بين الأنا وهذا الآخر.. فإذا كان البعض يحددون الآخر على أساس عرقى أو جنسى، فإن هناك من يحدده على أساس لغوى أو عقائدى.

ولعل التعريف الأبسط للآخر «هو أن الآخر إما أن يكون فردًا مختلفًا أو مجتمعًا مختلفًا أو ثقافة مغايرة»[٦]. وعندما نتحدث عن الآخر بالنسبة للمسلمين فنحن نحدد هذا الآخر بأنه المختلف عقائديًا عن المسلمين أى غير المسلمين سواء كانوا من أصحاب الديانات السماوية السابقة (اليهود والنصارى) أو غيرهم من أصحاب العقائد الوضعية.

ولعل أول ما نلاحظه عن خصوصية النظرة الإسلامية للآخر أن الإسلام لم يرتبط بجنس من بنى البشر دون باقى الأجناس كما فى الديانة الهندوسية مثلاً، أو اليهودية التى تعتبر ديانة مغلقة «أى تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبدًا، وإذا كان البعض يصنف الديانات المغلقة هذه إلى نوعين: ديانات جغرافية وديانات عنصرية ـ يعنى على الترتيب ـ ديانات محلية التوزيع الجغرافى مقصورة على وطن أو بيئة محدودة، أو مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه، فإن اليهود يمثلون

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شذوذًا يكاد يصل إلى حد المتناقضة الفذة»[٧]، بل إن المسيحية لأسباب تاريخية ارتبطت بالجنس الأبيض، ويستغرب كثير من أبناء شمال أوروبا اعتناق أحدهم ديانة غير المسيحية البروتستانتية أو الكاثوليكية، أما الإسلام فقد تجاوز هذه النظرة الضيقة العنصرية منذ بداية الدعوة، فهو رسالة موجهة للبشر كافة ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (سبأ: ٢٨)، ولم يجد الرسول الكريم ﷺ غضاضة فى انضمام غير العرب لدعوته مثل: بلال الحبشى وصهيب الرومى ثم سلمان الفارسى؛ رغم أن محيط الدعوة الإسلامية الأصغر «مكة» بما فيها من قبائل عربية، كانوا يعتبرون أنفسهم الجنس الأسمى، ما عداهم عجم كالحيوانات.

أما الملحوظة الثانية: فهى أن الدعوة الإسلامية موجهة فى الأساس لهذا الآخر، لهدايته، فالآخر موجود قبل وجود المسلمين، وكان هو الأكثرية فى المجتمع المكى، ثم فى شبه الجزيرة العربية قبل عام الوفود ولايزال هذا الآخر الأكثرية فى العالم، ودعوة الإسلام لهداية هذه الأكثرية دعوة تتصف بالرحمة ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

هذا الخطاب الإلهى يوضح لنا بدقة خصوصية النظرية الإسلامية للآخر، فالإسلام باعتباره الدين الخاتم المكمل للرسالات السابقة له يتعامل مع الإنسان باعتباره مسلمًا أو مسلمًا محتملاً، لذلك لا يقطع الإسلام كل الخيوط مع هذا الآخر، بل العكس، يمد الجسور لهذا الآخر حتى يصل فى النهاية للطريق الحق ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾ (الحجر: ١-٢).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولعل الإسلام هو الدين الوحيد الذى يقسم المخالفين معه فى العقيدة إلى فئتين، فئة غير مؤمنة وفئة أدركت نصيبًا من الإيمان وإن كان غير كامل وهم أهل الكتاب هذا التقسيم على أساس عقائدى لا يعنى استباحة مال ودم وعرض هذه الفئة دون تلك ، ولكن يعنى عدم المساواة بين من يؤمن باللّه واليوم الآخر، ومن ينكرهما ـ فى بعض الخصوصيات كالزواج والطعام.

ثالثًا: هذا الآخر الذى يتعامل معه الإسلام بطريقة خاصة جدًا لا يقف على الطرف المقابل بشكل دائم، فما أسهل أن يصبح جزءًا من الأنا باعتناق الإسلام، هذا الانتقال يعنى التخلص تمامًا من كل تراث الاختلاف أو حتى العداء فدخول الآخر فى الإسلام يسقط عنه حتى الجرائم التى ارتكبها فى حق المسلمين بما فيها جرائم القتل، وهو قبول للآخر لا نجد له مثيلاً، فاستسلام العدو فى القوانين العسكرية أو حتى المدنية لا يعنى إسقاط التهم عنه، أما الإسلام فإنه يُجبُّ ما قبله.

رابعًا: أن الحق سبحانه وتعالى قرن الإيمان به وعبادته وحده ببر الوالدين دون تحديد هوية الوالدين ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ (الإسراء: ٢٣)، هذا الأمر الإلهى يراعى أن الآخر يمكن أن يكون قريبًا من المسلم، كأن يكون الأب أو الأم أو الأبناء والزوجة والإخوة، ويحفظ التاريخ نماذج كثيرة لهذه الحالات، فقد كان عبدالرحمن بن أبى بكر مشركًا ووالده الصديق الصدوق لرسول اللّه ﷺ، وكان عبداللّه بن سلول كبير المنافقين بالمدينة وابنه مؤمنًا.. إلخ، ولايزال الاحتمال قائمًا، فربما يعتنق أحدهم الإسلام وتظل عائلته أو أفراد من أسرته غير مسلمين.. لذلك تتجلى صفة الرحمة فى الإسلام تجاه الآخر فالحق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تعالى يأمر ببر الأقارب والأهل خاصة الوالدين حتى وإن خالفوا المسلم فى العقيدة، فالبر بالأهل أدعى لتقريبهم من الإسلام، أما معاملتهم باعتبارهم الآخر المختلف فينفر من الدين الحنيف.

خامسًا: أن منظومة القيم الأخلاقية التى يقرها الإسلام تسرى على غير المسلم كما تسرى على المسلم، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ (النساء: ٥٨)، إن الأمانة يجب أن تؤدى لصاحبها سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، والعدل هو الذى يجب إعلاؤه سواء كان الخصم مسلمًا أو غير مسلم، بل وحتى إن كان أحد الخصمين مسلمًا والآخر غير مسلم، يقول تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ (النحل: ٩١)، فالوفاء بالعهد واجب للمسلم ولغير المسلم، بل لا نبالغ إذا قلنا إن كثيرًا من المدن والبلاد التى فتحها المسلمون فتحت بفضل وفاء المسلمين بعهودهم، حتى تسابقت المدن فى الشام مثلاً لإبرام عهود مع المسلمين للسلام بدلاً من قتالهم، وظل المسلمون أوفياء لما أبرموه من عهود.

أيضًا يحض الإسلام على إجارة المستجير المسلم وغير المسلم، وعلى عدم الاعتداء، يقول تعالى فى محكم كتابه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (النحل: ٩٠)، ويقول الرسول الكريم ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

سادسًا: طرح الإسلام الآخر باعتباره المختلف وليس الضد أو النقيض والفرق بين التصورين كبير، فالتعامل مع الآخر باعتباره المختلف لا ينفى عنه صفاته الإنسانية أو يفترض فيه النقائص، بل يحدد وبدقة الوجه الذى عليه خلاف وفيه اختلاف، أما التعامل مع الآخر باعتباره الضد أو النقيض فيستلزم تجريد هذا الآخر من كل الصفات الحميدة، بل وتجريده أحيانًا من إنسانيته، حتى يبدو وكأنه مخلوق غريب قادم من كوكب آخر يسعى للتدمير وبث الكراهية فتجب معاملته بالمثل، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (الحج: ١٧)، إن الاختلاف بين كل هؤلاء متروك لله يحكم فيه يوم القيامة.

سابعًا: إن الحقوق التى أقرها الإسلام للإنسان المسلم وغير المسلم «ليست مجرد حقوق من حق الفرد أو الجماعة أن يتنازل عنها أو عن بعضها، وإنما هى - ضرورات - إنسانية فردية كانت أو اجتماعية، ولا سبيل إلى حياة الإنسان بدونها، حياة تستحق معنى الحياة، ومن ثم فإن الحفاظ عليها ليس مجرد حق للإنسان بل هو واجب عليه أيضًا، يأثم هو ذاته - فردًا أو جماعة - إذا هو فرط فيها، وذلك فضلاً عن الإثم الذى يلحق كل من يحول بين الإنسان وبين تحقيق هذه الضرورات»[٨] يأثم المسلم إذا فرط فى حق أقره الله له كما يأثم إذا منع حقًا منحه الله أو رسوله للآخر.

بهذه النظرة الأخلاقية الخاصة جدًا تعامل الإسلام مع الآخر، وبهذه الروح حفظ للآخر كرامته وإنسانيته وحريته.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

● الفصل الأول

حقوق الآخر فى الإسلام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

إن حدود العلاقة بين المسلمين والآخر لا تتحدد وفقًا للاختلافات العقائدية، فاختلاف الآخر عن جوهر التوحيد أو ابتعاده عنه، أو حتى إنكاره لوجود الله، لهو أمر بين هذا الآخر والله، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

أما علاقة المسلمين بالآخر فإنها تتحدد وفقًا لموقف هذا الآخر من المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية، فإذا كان هذا الآخر معاديًا للمجتمع الإسلامى أو الدولة الإسلامية سواء كان يعيش داخلهما أو خارجهما، وجب على المسلمين التصدى له، ومعاملته بالمثل، وإذا كان محافظًا على سلامة المجتمع الإسلامى لا يسعى للفتنة أو إضعاف هذا المجتمع، ولا يتآمر على الدولة، وجب على المسلمين احترام هذا الآخر بل وحمايته وإقامة علاقات ودية معه والبُّر به والإقساط إليه.. فالإسلام عندما أقر حقوقًا للآخر أقرها مع العلم بأن هذا الآخر منكر للإسلام غير مؤمن به، وإلا لكان هذا الآخر ضمن فريق المسلمين ولما وقف على الطرف الآخر.

والدين الحنيف لا يقر اتخاذ مواقف عدائية مسبقة تجاه الآخر على أساس عرقى أو لغوى أو دينى، فموقف الآخر من الأنا يمكن أن يتمثل فى إحدى المراحل التالية:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

(١) العداء (٢) الرفض (٣) الحياد

(٤) الدهشة (٥) الإعجاب (٦) الإيمان أو الاقتناع

وهى مراحل متدرجة تبدأ بالعداء وتنتهى بالإيمان والتحول من الجبهة المخالفة إلى معسكر الأنا، وعلى أساس المرحلة التى يقف فيها الآخر يكون موقف المسلمين أو يجب أن يكون، فالإسلام يسعى لنقل الآخر من مرحلة العداء أو الرفض إلى الحياد ثم الدهشة والإعجاب للوصول به لمرحلة الإيمان والاندماج فى جماعة المسلمين.

بهذه النظرة تعامل الإسلام مع الآخر، وتعامل غالبية حكام المسلمين الذين طبقوا ما أمرهم الحق به، أما حالات الاضطهاد التى تعرض لها الآخر فى عصور وعهود معينة فهى حالات استثنائية، صدرت عن مسلمين أساءوا فهم الدين الحنيف، أو عن حكام تميزت عهودهم بالظلم، ظلم الآخر والمسلمين على حد سواء.

وعندما نريد أن نحدد حقوق الآخر التى أقرها الإسلام أو المبادئ والقواعد التى حددها الإسلام لتحكم العلاقة بين المسلمين والآخر فمرجعنا فى هذا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مع التدقيق فى الاجتهاد، فما كان يصلح بالأمس فى ظل ظروف معينة، يجب إعادة النظر فيه فى ظل الظروف الراهنة، ذلك أن الشريعة الإسلامية وضع إلهى ثابت «تميزت عن الفقه الذى هو اجتهاد إنسانى فى إطار الشريعة الإسلامية، فهى - أى الشريعة (دين.. وأصول.. وثوابت) بينما الفقه متطور؛ لأنه فروع تواكب مستجدات الزمان والمكان والوقائع والمصالح والأفهام»[٩]، وبالنظر فى الكتاب والسنة نستطيع أن نضع أيدينا على عدد من القواعد الأساسية التى تحدد هذه العلاقة، وذلك على النحو التالى:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أولاً: يقول الحق تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (الحجرات: ١٣)، ويقول تعالى فى سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ (النساء: ١)، هذا الخطاب الإلهى لم يوجه للمسلمين فقط، بل للبشرية كافة، ليعلم الناس أنهم إخوة، ورغم هذا فإن أتباع الدين الحنيف يعلمون أن الذكر الحكيم إنما أكد على هذه الحقيقة، وحدة الأصل البشرى - ليزيل من أنفسهم نزعات العنصرية والاستعلاء والإحساس بالتفوق أو التمايز على الآخرين، فإذا كان للإنسان أن يتمايز على إنسان فبالتقوى فقط، والرسول الكريم ﷺ يذكر الناس (**كلكم لآدم وآدم من تراب**) ونراه صلوات الله وسلامه عليه يخاطب الناس كافة فى خطبة الوداع (أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى) جاء الإسلام ليزيل النزعة العنصرية التى سادت الجاهلية، حيث دعا: «إلى معرفة صلة جديدة بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس ما بينه وبين خالقه، وبموجب عقيدة الخلق الإلهى يرسخ الإيمان بأنهم كلهم لآدم، لأب واحد، فلا شرعية إذًا للتفاخر بالأنساب والآباء، مادام الأصل فى النهاية واحدًا، بل ردهم أيضًا إلى ما وراء هذا، فعرفوا أنهم جميعًا لآدم وآدم من تراب، تمكينًا فى الأذهان لعقيدة الخلق، وتأكيدًا لسلطان الربوبية المطلق، وما يترتب عليه من الإقرار بالعبودية للخالق ووجوب طاعته فى كل شىء»[١٠].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لكننا للأسف ما زلنا نرى بعض الشعوب والأجناس التى تستعلى على شعوب وأجناس أخرى بسبب لون البشرة، بل وتحقر من شأنها.

وإذا كان العهد القديم قد ذكر قصة الخلق وأشار لأصل البشرية، فإنه سرعان ما اختص بنى إسرائيل بكل المزايا واعتبر غيرهم (أغيار) فى منزلة الخدم المسخرين لخدمة شعب الله المختار.. فإن القرآن الكريم حارب هذه العنصرية، ويذكر تعالى فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم بخلق آدم من طين وعداء أبليس له، وكأن الحق تعالى يذكرنا فى هذه المواضع أن صراع البشر ليس مع بعضهم البعض ولكن مع الشيطان، وأن البشر إما أن يكونوا طائعين لله فيستحقون رحمته أو طائعين للشيطان فيصيبهم سخط المولى عز وجل، وإذا كان الآخر بالنسبة للمسلم هو غير المؤمن، فإن إيمان المسلم أمر بينه وبين ربه، ولا يجوز للمسلم أن يستعلى بإيمانه على الآخر ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (المائدة: ١٠٥)، بل إن الحق يحذر المؤمنين من التفاخر بالإيمان والاستعلاء به ﴿**فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾ (النجم: ٣٢).

إذا كان كل دين يميز أتباعه عن الآخرين ويكرمهم ويعلى من شأنهم فإن قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ (الإسراء: ٧٠) يظهر النظرة الإنسانية للإسلام، فالحق تعالى كرم الإنسان بشكل عام ونفخ فيه من روحه وجعله خليفة فى الأرض، هذا التكريم يتنافى بالطبع مع احتقار الآخر أو قتله دون ذنب يستوجب القتل، أو استحلال ماله وعرضه، أو استباحته.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بل إن الحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن قتل النفس البريئة لا يفرق بين نفس مؤمنة وغير مؤمنة، فالنفس الإنسانية مكرمة بما وضعه الله فيها من أسرار سواء كانت مؤمنة أو كافرة، والإنسان هو الذى يرتفع بنفسه بالطاعة، ليصبح فى مصاف الملائكة، وهو الذى يهوى بها بالمعصية ليصل لدرك الشياطين والبهائم ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (المائدة: ٣٢)، لقد ««ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغاز المحاريب إلى عقائد الرشد والهداية، لا جرم كان المخلوق المسئول صفوة جميع الصفات التى ذكرها القرآن عن الإنسان، إما خاصة بالتكليف أو عامة فى معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله.. ولقد ذكر الإنسان فى القرآن بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة، وفى الآية الواحدة، فلا يعنى ذلك أنه يحمد ويذم فى آن واحد، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما، فهو أهل للخير والشر لأنه أهل للتكليف[١١].

هذه هى القاعدة الأولى التى يطالب بها الإسلام فى التعامل مع الآخر، أنها نفس خلقها الله وكرمها وفضلها على كثير ممن خلق الله، فلا يستباح دمها أو تهدر كرامتها دون ذنب يستوجب ذلك.

وكون الإنسان إنسانًا يسبق كونه مؤمنًا أو كافرًا، لذلك يجب على المسلم أن ينظر للآخر أولاً باعتباره إنسانًا مثله، ثم ينظر إليه بعد ذلك باعتباره مؤمنًا أو غير مؤمن، ثم باعتباره صديقاً أو عدوًا.

ثانيًا: خصص الحق تعالى سورة كاملة هى سورة (الكافرون) قرر فيها مبدأ مهمًا هو حرية العقيدة: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا**

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾(الكافرون من١: ٦).

وإذا كان الخطاب هنا موجه للكافرين الذين ينكرون الدين والبعث والحساب فهو أيضًا يقر لهم حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر والطقوس والتى يعترض الإسلام على بعضها، فإذا كان الإسلام ينفى فكرة صلب المسيح أو تأليهه، فإنه يبيح للمسيحيين ممارسة صلواتهم التى يذكرون فيها الصلب وتأليه المسيح.

يورد المفكر الإسلامى أحمد أمين فى الجزء الأول من كتاب «ظهر الإسلام» ما قال به الأحناف من وجوب تطبيق أحكام أهل الذمة الدينية على وصاياهم، فإذا أوصى أحدهم بوصية مطابقة لشريعته ومخالفة للشريعة الإسلامية وجب تنفيذ الوصية، كما فى المواريث مثلاً، وإذا أوصى بوصية مخالفة لشريعته موافقة للشريعة الإسلامية كانت الوصية باطلة.. بل بلغ الأمر من السماحة الإسلامية وإقرار الشرع الحنيف لحرية الآخر فى اعتقاده، أنه ـ أى الإسلام ـ أباح للآخر ممارسة شريعته التى تتعارض مع الفطرة الإنسانية، كزواج الرجل من ابنته، وهو ما مارسه المجوس داخل ربوع الدولة الإسلامية.. وعندما امتعض عمر بن عبدالعزيز من هذا الأمر وبعث إلى الحسن البصرى يسأله عن هذا السلوك الغريب، رد عليه الحسن البصرى: إنما أنت متبع ولست مبتدعًا.

وإذا كان هناك من يحلو له القول إن الإسلام أقر للآخر حرية العقيدة بشكل نظرى حيث حرم بناء دور العبادة للآخر، وهو ما يعد رفض عملى لحرية اعتقاد الآخر واعتمد هؤلاء على وجود حديث نبوى يحرم بناء دور العبادة للآخر حيث يقول ﷺ لا خصاء فى الإسلام ولا كنيسة.. ويستشهدون على ذلك بتحريم بعض

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الخلفاء المسلمين بناء كنائس جديدة وهدم ما عمر منها بعد الإسلام، فإن هذا الرأى يتناسى عدة حقائق أولها أن الحديث هنا يجرى عن الآخر المقيم فى دار الإسلام، وأن هذه الدار فُتحت أجزاء منها بعد معارك حربية أو تصالح بين القادة المسلمين وأهل هذه البلاد من غير المسلمين وفقًا لشروط محددة منها ألا تهدم دور العبادة للآخر، ولا تستحدث دور جديدة فى مدن المسلمين.

ثانى هذه الحقائق: هناك تفاوت بين موقف الخلفاء والولاة والمسلمين فى مسألة بناء دور عبادة جديدة للآخر أو هدم دور استحدثت بعد دخول الإسلام هذه البلاد.. ويذهب ابن سعيد فى كتابه «المغرب فى حلى المغرب» إلى أن بناء الكنائس وتعميرها أو هدمها وتخريبها من الأمور التى لم يكن للمسلمين فيها سياسة واضحة، فكان يسمح للقبط مثلاً فى بعض الأحيان ببناء كنائس جديدة، وأحيانًا أخرى كانوا يمنعون من إصلاح الكنائس القديمة فعصر الولاة الأمويين فى مصر شهد بناء كثير من الكنائس للقبط اليعاقبة والملكانيين على حد سواء، واستمرت هذه السياسة فى معظم فترات عصر الولاة العباسيين عدا بعض الفترات المحدودة والتى كانت لا تلبث أن يعقبها فترة يسودها تعمير الكنائس(١٢) أما العصر الإخشيدى فشهد رفض بناء بعض ما انهدم من الكنائس.. معنى هذا أن العملية كانت تتم وفقًا لظروف العصر، وفهم هذا الوالى أو ذاك واستيعابه للشرع الحنيف وسماحته.

ثالث هذه الحقائق أن الحديث عن معاناة الآخر فى إقامة دور عبادته فى المجتمع الإسلامى غالبًا ما يكون حديثًا مجتزأ يتناسى قائله الظرف التاريخى من فتن أو قلاقل أو ثورات أو غزو خارجى، وموقف هذا الآخر من تلك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأحداث، يورد «البلاذرى» فى كتابه فتوح البلدان أن البيزنطيين استطاعوا فى مناسبتين أو أكثر إثارة الداخل المسيحى على المسلمين، خصوصًا فى أيام عبدالملك بن مروان، ثم أوائل أيام بنى العباس، فهل فى مثل هذه الحالات يمكن أن تتسامح السلطة السياسية مع المستجيبين لإثارة العدو؟!

رابع هذه الحقائق وهو الأهم أن كثيرًا من علماء الحديث أقروا بأن الحديث السابق ضعيف ومشكوك فى صحته بل وأسقطته كتب الصحاح الستة ولم تشر إليه أهم كتب تجميع الأحاديث وتصنيفها.

ثالثًا: يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (النحل: ٩٣)، ويقول تعالى فى (سورة يونس الآية: ٩٩) ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾، لقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه أشد الناس حرصًا على هداية الناس إلى الإسلام وإنقاذهم من الضلال، ليس طمعًا فى زعامة أو رئاسة، ولكن تلبية لأوامر ربه فى التبليغ، وحرصًا منه ﷺ على هداية الناس، ورغم هذا وجه الحق رسوله لهذه النقطة، أن الله تعالى له حكمة فى اختلاف البشر، وأن هذه الحكمة توضح سنة الله فى خلقه، فالاختلاف والتنوع بين البشر سنة إلهية دائمة حتى تقوم الساعة، فالحق تعالى منح الإنسان حرية الاختيار، وبين له السبيل، ولو أراد المولى عز وجل هداية البشرية كلها لأصبحت البشرية مؤمنة بقول كن فيكون.. لكن الاختلاف والتنوع آية من آيات الله ليعرف الإنسان الخير والشر والحق والباطل، ولتتحقق صفاته عز وجل، فهو الغفور الرحيم لمن تاب وأمن وعمل صالحًا، وهو الجبار المنتقم شديد العقاب لمن أعرض وتولى وكفر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

استوعب الهادى الأمين هذه السنة الإلهية، واستوعبها أغلب المسلمين فلم يجدوا حرجًا أو غضاضة فى أن يعيشوا مع أو بين من يخالفهم العقيدة... ولم نسمع عن حاكم مسلم قام بعمليات تطهير عرقى ضد غير المسلمين لأسباب عقائدية، وإن حدث فلأسباب سياسية أو أمنية، هذا القبول بالآخر والقبول بسنة الله فى الاختلاف لم تعرفه أوروبا فى العصور الوسطى رغم كل ما تنادى به المسيحية من محبة، فقد تخلصت أوروبا من غير المسيحيين بالطرد والقتل، بل وتخلصت من مسلمى الأندلس الذين اعتنقوا المسيحية.

إن قبول الآخر والتعامل معه أمر فرضه الإسلام على المسلمين لسنة أرادها الله فى كونه.. ولعل المولى عز وجل حين فرض هذا الأمر على أمة التوحيد إنما أراد لها أن تقيم جسورًا بينها وبين الآخر لهدايته، فالدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل، فكيف أستطيع كمسلم أن أدعو غيرى أو أهديه للإسلام أو أدلل له على سماحة هذا الدين وروعته إذا كان هذا الآخر غير موجود معى، أو إذا طردته أو قتلته أو حصرته داخل جيتو؟!

إن الإسلام لا يقر هذا، لا يطالب بعزل الآخر فى أحياء أو مدن داخل المجتمع الإسلامى، وإذا كان التاريخ الإسلامى - خاصة فى بداياته - شهد تمركز غير المسلمين فى مدن وتمركز المسلمين فى مدن أخرى، فإنما كان ذلك لأسباب أمنية نذكر منها:

(١) رغبة القادة المسلمين فى الحفاظ على روح الجهاد والطابع العسكرى لدى الجنود المسلمين وعزلهم فى مدن خاصة بهم.

(٢) تجنب الفتن وحدوث مصادمات بين الجنود المسلمين الفاتحين وغير المسلمين فى حالة اختلاطهم ببعض.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(٣) أغلب البلاد التى تم فتحها كانت خاضعةٌ لحكم إمبراطوريات تتفق غالبًا فى الديانة مع أهل البلاد المفتوحة، وهو ما يعنى وجود حالة من التوجس تجاه أهل البلاد المفتوحة بسبب الخوف من موالاتهم للمستعمرين القدامى، وقد كان توجس القادة المسلمين فى محله أحيانًا وفى غير محله أحيانًا أخرى، ولكن مع مرور الوقت وتقارب المسلمين من أهل البلاد المفتوحة واعتناق كثير منهم الإسلام اندمج المسلمون مع هذا الآخر حتى نكاد لا نجد مدينة فى العالم الإسلامى تخلو من غير المسلمين باستثناء مكة المكرمة والمدينة المنورة لما لهما من مكانة دينية عند المسلمين.

وإذا كان بعض العسكريين الإسلاميين فى صدر الإسلام قد حرم على غير المسلمين سكن المدن التى بناها المسلمون أو بناء دور عبادة بها، فإن اندماج الجميع فى المجتمع الإسلامى تجاوز الأوامر العسكرية فبنيت كنائس عديدة فى الفسطاط والقاهرة وغيرها من المدن التى بناها المسلمون، وبالطبع سكن غير المسلمين هذه المدن.

رابعًا: إذا كان لوسائل الإعلام الحديثة من أفضال كثيرة على البشرية فإن لها آفة قد ترجح بكل أفضالها، هذه الآفة هى التعميم، فالحديث عن مجتمع ما أو جماعة ما يصبح أكثر سهولة حيث نطلق الأحكام العامة، فمن السهل أن نقول إن اليابانيين عمليون، أو أن الفرنسيين عاطفيون وأن الأمريكيين برجماتيون، وحتى وإن كانت هذه الأحكام تصدق على الغالبية العظمى من أبناء هذه الأمة أو ذاك المجتمع، فإن الاستثناء قد يزداد فى وقت ما، فتصبح أغلبية الأمريكيين عاطفيين وليسوا برجماتيين عندما يخص الأمر أبناءهم.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وسائل الإعلام خاصة الغربية تتعامل مع الإنسان باعتباره صندوقًا فارغًا بحاجة دائمًا لمعلومات سريعة محددة تلقى داخل الصندوق لتملأه، فالجمهور من وجهة نظر رجال الإعلام فى عجلة من أمره، ويريد حكمًا سريعًا حاسمًا يمكنه من التعامل مع هذا أو ذاك.

وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر أصبحت الصورة السائدة عن العرب والمسلمين فى الغرب ـ بسبب ما بثته وسائل الإعلام هناك ـ أن العرب والمسلمين إرهابيون دمويون، يكرهون كل ما يمت للغرب بصلة.. إلخ هذه الانطباعات المغلوطة، ربما لا لشىء إلا لأن العرب والمسلمين هم الآخر المختلف الحاقد على ما أنجزته الحضارة الغربية ـ كما يتصورون ـ فى المقابل نجد أن المنهج الإسلامى للتعامل مع الآخر منهج دقيق، يرفض التعميم حتى على الآخر، فالأحكام العامة غالبًا خاطئة، والحديث عن أهل ملة أخرى مخالفة يجب أن يتم بموضوعية، وهذا الإنسان سواء كان مسيحيًآ أو يهوديًا أو مجوسيًا ربما يختلف عن أبناء ملته فى السلوك، نظرًا لتشعب المجموعات داخل الديانة الواحدة، وربما يختلف بحكم تربيته وقدراته العقلية ونظرته للأمور بموضوعية أو تحيز.

يقول تعالى: ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ (آل عمران:١١٣ ـ ١١٤)، ويقول تعالى: ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾ (الأعراف :١٥٩)..

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء: ٤٦).

وإذا كانت هذه الآيات تفرق بين عدة أنواع من الآخر، وذلك على أساس عقائدى، اتباعه للحق أو سيره مع الهوى، فإن الآية (٧٥) من سورة آل عمران تحسم المسألة بما لا يدع مجالاً للشك ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إنه إقرار إلهى يلزم كافة المسلمين فى كل زمان ومكان بالإيمان به والتصرف وفقًا لما يقتضيه، فلا أستطيع كمسلم أن أقول إن هذا المسيحى غير أمين، أو ذاك اليهودى منافق ما لم أقيم البينة والدليل على ذلك.. وحتى وإن ثبتت التهم السابقة على هذا أو ذاك، فهذا لا يعنى تعميم الأحكام، فالإنسان فى المنظور الإسلامى يتحمل هو فقط نتيجة أفعاله ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥)، وهو حكم ينطبق على المسلم وغير المسلم، فلا يجوز معاقبة إنسان بذنب آخر مهما كان قريبًا له أو منه، فلا يؤخذ الإنسان بذنب أخيه أو أبيه أو ابنه أو صديقه، ويتحدث القرآن الكريم مؤكدًا هذه القيمة ـ على لسان سيدنا يوسف عليه السلام فيقول: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ (يوسف: ٧٩).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

خامسًا: يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ (الغاشية ٢١- ٢٦). ويقول تعالى فى سورة يونس: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الآية: ٩٩)، ويقول تعالى فى سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنَ﴾ (الآية: ١٢٥)، تحدد هذه الآيات الكريمة للنبى ﷺ أسلوب الدعوة إلى الله.. وهى دعوة تتسم باللين والرفق والمناقشة التى لا تحقر من شأن الآخر.

وإذا كان الخطاب فى الآيات الكريمة موجهًا إلى الرسول ﷺ فهو يسرى ويجب على باقى المسلمين، فالمسلم عليه حق الدعوة إلى الله، أن يبلغ رسالة التوحيد إلى الآخر، دون أن يجبره على الإيمان أو أن يخاطبه بأسلوب غير لائق فليس للمسلم حق محاسبة الآخر على معتقداته، فهذا حق الله وحده على عباده، حتى الرسول الكريم، أحب خلق الله إلى الله ليس له حق محاسبة الآخر على معتقداته.

فسَّر ابن جرير قوله تعالى:﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾ (النحل: ١٢٥) بقوله: «أى الدعوة بما أنزل الله على رسوله من الكتاب وبالسنة والموعظة الحسنة أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل: ١٢٥) ، أى من يحتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون»[١٣].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أما قوله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل). فلا يعنى إجبار الآخر على الإسلام، فالمطلوب هنا هو التوحيد فقط و«ليست الشهادة المطلوبة غير إعلان الانضمام لجماعة الموحدين اجتماعيًا وسياسيًا، وهى تفترض طبعًا اعتقادًا قلبيًا، لكنها لا تشترطه لاستحالة التحقق منه»(١٤).

سادسًا: إذا كان الإسلام قد رفض تعميم الأحكام على الآخر، وأقر حق هذا الآخر فى الحياة وحرية الاعتقاد والعبادة، فإنه وكما أشرنا رفض عزل هذا الآخر داخل المجتمع الإسلامى، ورفض معاملته بعداء لأنه مختلف فى العقيدة، فأمر العقيدة متروك إلى الله ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (المائدة: ٦٩).

وإذا كان هذا الآخر من وجهة النظر الإسلامية مسلمًا محتملاً فإن الإسلام يذهب شوطًا آخر لإقامة جسور التواصل والتعاون معه، بالود والإقساط إليه، يقول تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (الممتحنة: ٨).

يروى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت: قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها؟. قال ﷺ: نعم صلى أمك، وفى رواية أخرى أن «قتيله» والدة أسماء قدمت على ابنتها بهدايا وهى مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها فى بيتها فسألت عائشة النبى ﷺ فأنزل الله تعالى:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (الممتحنة: ٨) إلى آخر الآية فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها.. والبر هو الإحسان أما القسط فهو العدل.

حدث مجاهد أنه كان عند عبدالله بن عمر وغلام له يسلخ شاة، فقال عبدالله: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى، وقال ذلك مرارًا، فقال له: كم تقول هذا، فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه يورثه..

سابعًا: إذا كان الإسلام قد أقر حق الآخر فى الوجود والعيش بسلام كما أقر حرية الاعتقاد وحرية ممارسة الشعائر واتباع هذا الآخر لأحكام ديانته، فإن الإسلام قد وضع النقاط على الحروف بقوله تعالى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠)، ولنتوقف قليلاً أمام هذه الآية التى يساء فهمها من قبل بعض المسلمين وغير المسلمين، ولنعترف أولاً بأن الإسلام دين واقعى وشريعته وسطية لا تجنح إلى المثالية بمعناها الرومانسى التى لا يطيقها الناس، ولا تستقيم مع الطبيعة البشرية، وإذا كان المسلم مطالبًا بتقديم الخير قبل الشر، وافتراض حسن النية قبل التأكد من سوء النية، فإن حالة التواصل وإقامة الجسور التى يسعى إليها الإسلام مع الآخر يجب ألا تعنى الذوبان فى الآخر والتسليم الكامل له، وكما يقر الإسلام حسن معاملة الآخر، فهو أيضًا يؤكد على الهوية الإسلامية والاعتزاز بها.

فالأنا لابد وأن تختلف عن الآخر، وأن تحافظ على سماتها، دون عداء أو كراهية، إن الحالة القصوى من الرضا لن تنالها الأنا من الآخر ما لم تصبح

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

جزءًا منه والعكس صحيح، فالآخر لن ينال الرضا الكامل من الأنا ما لم يصبح جزءًا منها.

قال ابن جرير فى تفسير الآية الكريمة: يعنى بقوله جل ثناؤه ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ (البقرة: ١٢٠)، وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبدًا فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم واقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق[١٥].

ويمكن أن نفهم مما قاله ابن جرير أن دعوة الآخر للإيمان - فى حد ذاتها - قد تكون سببًا فى عدم رضا الآخر، فهو بالطبع يريد أن يحافظ على هويته، وبالتالى لن يحقق المسلم الرضا الكامل مع الآخر إذا ما قام المسلم بواجب الدعوة، لذلك يجب على المسلم أن يبحث عن رضا الله بالدعوة إليه ولكن برفق ولين وقول معروف وجدال حسن.

هذا التميز لهوية الأنا عن هوية الآخر نستطيع استيعابه وفهم مقاصده فى ظل قوله تعالى: ﴿**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾ (آل عمران ٢٨) ويقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ (المائدة: ٥١ - ٥٢)، ويقول تعالى فى الآية (٥٧) من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

نفس السورة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ ذلك أن الإسلام يجعل المسلمين على اختلاف أجناسهم وألسنتهم أمة واحدة، يربط بينهم الإيمان بالله وتجمعهم الشريعة السمحة، وأكثر ما تخاف أمة على نفسها الخيانة والهزيمة دائماً، كما يقولون تبدأ من الداخل، وقد قدم لنا التاريخ ومازال يقدم صورًا لبعض المسلمين وغير المسلمين من الحكام والسياسيين والعسكريين والمفكرين كانت موالاتهم لأعداء الأمة سببًا فى نكبة أممهم.

إن الحق سبحانه وتعالى يحذر المؤمنين من موالاة الآخر المعادى للإسلام أو الذى يسخر من الإسلام، وهل يقبل مسيحى أن يهودى أو بوذى متدين أن يتحالف مع شخص مخالف فى العقيدة ويسخر من دينه أو يعاديه؟! لقد رسم الله تعالى الطريق للمسلم وأعطاه المنهج والطريقة التى يجتذب بها الآخر للإسلام، فكيف بمن ترك هذا كله وانجذب هو للآخر وذاب فيه، يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الممتحنة: ٩)، ونعود ونؤكد أن هذا ليس معناه كراهية الآخر أو احتقاره أو التعامل معه بشكل غير إنسانى، فإذا كانت الأيديولوجيات الوضعية تميز متبعها وتطالبه بأن يكون هو العنصر الفاعل والإيجابى فى علاقته مع الآخر، فالأولى بالمسلمين أن يفعلوا ذلك، وهذا ما أمرنا به الحق تعالى.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ورغم ما تقدم فإن هناك من يتهم الإسلام بأنه دين ضد حرية العقيدة أو حرية الرأى ويستدل على ذلك بوجوب قتل المرتد فى الإسلام سواء كان مسلمًا بالمولد أو ممن اعتنقوا الإسلام، ولعل هذا الرأى يتناسى الحقائق التالية:

(١) إن الإسلام ضد إجبار الآخر على اعتناق أية عقيدة بالقهر، فهو يمنح هذا الآخر الحرية المطلقة فى أن يظل على عقيدته وألا يعلن إسلامه إلا عندما يتأكد مما فى قلبه.

(٢) إن الإسلام يولى الجماعة أو المجتمع أهمية كبيرة ويحرص على عدم فتنة المسلمين عن دينهم ويحارب من يفعل هذا، وهذا أحد الجوانب المدنية للإسلام فالدول فى كل مكان تصنع القوانين التى تحافظ على وحدة المجتمع وتنفذ هذه القوانين بالقوة.

(٣) مشكلة المرتد دائمًا أنه يعلن ارتداده بشكل دعائى عدائى وهو ما يمثل خطرًا على المجتمع الإسلامى يجب التعامل معه بحسم، ولو أن هذا المرتد تعامل مع قضية الإيمان وعدم الإيمان بشكل غير دعائى أو عدائى واعتبرها قضية خاصة بينه وبين الله فلن يمثل خطرًا على المجتمع ولن يفتن أحدًا بل ولن يلتفت أحد إلى أنه ارتد.

(٤) هناك من يرى أن الحكم بقتل المرتد اجتهاد فقهى وليس حكمًا شرعيًا قاطعًا، فالآيات الواردة فى المرتدين من سورتى البقرة والمائدة لا تنص على قتل المرتد، وما روى عن الرسول ﷺ وعن أبى بكر وعمر من قتال المرتدين كان سببه انقلاب هؤلاء إلى خوارج على الدين ومحاربة المسلمين بعد أن اطلعوا على عورات المجتمع والدولة الإسلاميين، وما رواه البخارى عن النفر من عقل الذين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أعلنوا إسلامهم ثم ارتدوا وقتلوا رعاة إبل الصدقة واستاقوا الإبل معهم فبعث فى آثارهم الرسول ﷺ فأتى بهم ثم طبق عليهم حد «الحرابة» فالحد هنا يوضح أن هؤلاء المرتدين المعتدين قد قتلوا تطبيقًا لحد الحرابة.. لذلك يذهب الشيخ عبد العزيز جاويش إلى أنه يجب أن نتصرف فى الحوادث ونقف عند حدود مقتضيات الأحوال «فالمرتد إما أن يرتد عن دينه فلا ينضم إلى المدافعين عنه من المسلمين، ولا يقف منهم موقف المسالم غير الخائن، كما كان يفعل الذين نزلت فيهم آيات البقرة والمائدة، فهذا لا جرم يقتل، وأصرح ما نزل فى ذلك قوله تعالى: ﴿**سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا**﴾ (النساء: ٩١)، ومثل هذا القسم من يرتدون ويحاربون، كما سبق فى حديث النفر من عقل، ولاريب أن المرتد من أحد هذين القسمين منافق خائن أو محارب فلابد أن يقتل من فوره، وكذلك تفعل الممالك جميعها فى الوقت الحاضر مع أمثال هؤلاء من أفراد شعوبهم ورعاياهم»[١٦] أى الذى يخون دولته ومجتمعه ويتآمر عليهما.

(٥) ذهب البعض ومنهم الإمام النخعى إلى أن المرتد يستتاب أبدًا ولايقتل.

وإجمال هذه المواقف التى تتسم بالحسم تفترض أن يكون المسلم عونًا لدينه لا سيفًا عليه، وهو ما يتطلب أن يسلم الإنسان عن اقتناع ويقين لا عن خوف ونفاق، وبهذا أمر الإسلام، لا إكراه فى الدين ولا جدال إلا بالتى هى أحسن، ليؤمن من آمن عن بينة ويكفر من كفر عن بينة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

● الفصل الثانى

منزلة خاصة لأهل الكتاب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إذا كان الإسلام قد احترم حق الآخر فى الحياة والعقيدة وحفظ له كرامته وإنسانيته، فإنه أنزل أهل الكتاب منزلة خاصة لم ينزلهم مثلها أى دين أو عقيدة أو حتى تشريع وضعى عند تعامله مع الآخر... فقد اشترط الحق تعالى على المسلم الإيمان برسل وكتب أهل الكتاب، وهو شرط لا يكتمل إيمان المسلم بدونه، ولا تكتمل تقوى المؤمن دون إيمانه بالرسل والكتب السابقين على الإسلام ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ (البقرة: ٤)، والرسول الكريم ﷺ هو قدوة المسلمين جميعًا فى الإيمان برسل الله جميعًا وبكتبه عز وجل ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ (البقرة: ٢٨٥).

إن الإسلام يأمر معتنقيه بالإيمان بكتب ورسل اليهود والنصارى، وأن يقولوا سمعًا وطاعة لهذا الأمر الإلهى، حتى وإن بدا من أهل الكتاب ما يجعل حالة الود التى يأمر بها الإسلام معهم أمرًا صعب المنال ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة: ١٠٩).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ورغم ما يظهره بعض أهل الكتاب من عناد ورفض للدعوة الإسلامية إلا أن الإسلام يأمرنا بودهم وتفضيلهم عن المشركين﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ**﴾ (البقرة: ١٤٥).

ذلك أن الإسلام جاء ليكمل الشرائع السابقة عليه وليس ليهدمها أو ينفيها أو ينكرها، جاء ليصلح ما حرفه البشر منها ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ (الشورى:١٣)، ورغم أن الإسلام يختلف عن اليهودية والنصرانية إلا أن الحق تعالى أمر المسلمين بمناقشة أهل الكتاب بالحسنى ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (العنكبوت: ٤٦)، بل إن المسلم مطالب بالترفع عن المهاترات وتسفيه المعتقدات.. حتى وإن فعل أهل الكتاب ذلك ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ (البقرة: ١١٣).

ويرى البعض أن موقف الإسلام المتسامح من اليهودية والنصرانية استهدف تحيدهما وعدم إثارة الخصومة والعداء مع أصحابهما، وهو موقف يحمل معنى الإنصاف لهما والاعتراف بدورهما»[١٧] ورغم حالة العداء التى قوبل بها الإسلام من يهود المدينة والمحيطين بها، ومن جيوش الروم المسيحية ومن والاهم من نصارى الشام إلا أن الإسلام لم يغير نظرته لأهل الكتاب، بل وطالب بالاتفاق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

معهم على مجموعة من العقائد والأخلاقيات التى تضمن الحد الأدنى من الود والتفاهم ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران: ٦٤).

يورد د. أحمد محمد الحوفى فى كتابه سماحة الإسلام[١٨] طائفة من الأحكام التى يتساوى فيها اليهودى والمسيحى مع المسلم والتى تعتبر حقوقا إضافية أقرها الإسلام لأهل الكتاب هى:

(١) المساواة فى القصاص.. فالنفس بالنفس والعين بالعين والأذن بالأذن والأنف بالأنف، والمسلم والكتابى سواء فى الديات والضمان والتعازير، ولعل أشهر الأمثلة التى تضرب فى هذا المجال ما فعله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين مكن القبطى من القصاص من ابن عمرو بن العاص الذى ضربه.

(٢) أُبيح للذمى كل زواج يقره دينه وإن خالف الإسلام، وأُبيح له كل طلاق وإن لم يتفق مع الإسلام، ولعل هذه النقطة بالتحديد تحتاج لإلقاء الضوء على ما يقال عن إجبار الإسلام الآخر العمل بقوانينه ـ قوانين الإسلام، فالشرع الحنيف لا يحجر على الحرية العقائدية أو الشخصية للآخر، كطرق الزواج أو حتى شرب الخمر، أو الاعتقاد المخالف للإسلام طالما أن هذه الأشياء تمثل خصوصية للآخر ولا تتعارض مع قوانين المجتمع الإسلامى، فإذا كان حد السرقة فى الإسلام هو قطع اليدين، فإن الحد يطبق على الجميع واستثناء أى عضو فى المجتمع يفتح الباب للفساد، وإذا طبق هذا الحد على المسلمين فقط فهذا يعنى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

التفريق بين أعضاء المجتمع، وتحريض غير المسلمين على مخالفة القانون العام للمجتمع، وإذا كان الجميع الآن يطالبون بمجتمع مدنى يسود فيه القانون ويخضع الجميع للقانون دون استثناء، فهذا بالضبط ما يسعى إليه الإسلام، والمسلمون المقيمون فى دول غير إسلامية يلتزمون بقوانين هذه الدول رغم أن بعضها يتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية كمنع ارتداء الحجاب، والبعض الآخر يحرم المسلمين من حقوق أقرها لهم دينهم كمنع تعدد الزوجات، إن الفيصل فى المجتمع المدنى هو قانون الدولة الذى يقره الأغلبية فيجب احترام هذا القانون.

(٣) سوى الإسلام فى الحرمان من الميراث بين الذمى والمسلم، فلا يرث المسلم قريبه الذمى ولا يرث الذمى قريبه المسلم ولا يرث الزوج المسلم زوجته الكتابية وكذلك لا ترثه.

(٤) أباح الإسلام للمسلمين أن يأكلوا من طعام أهل الكتاب وذبائحهم، بشرط أن يكون المذبوح مما يحل أكله للمسلمين، قال تعالى ﴿**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (المائدة: ٥)، وتوضح الآية أن أهل الكتاب يحل لهم أن يأكلوا طعام المسلمين.

(٥) أحل الإسلام للمسلم أن يتزوج نصرانية أو يهودية، وتبقى على دينها، ولها على زوجها من الحقوق مثل ما للمسلمة﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ لكن لا يحل للمسلمة أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يتزوجها كتابى؛ لأن نظرة الكتابى إلى الإسلام تختلف كل الاختلاف عن نظرة المسلم لسائر الأديان، فالكتابى لا يؤمن بمحمد أو بالقرآن الكريم، ومن هنا تكون الصلة الاعتقادية بين الزوجين معدومة.

(٦) الحرية الدينية مكفولة لأهل الكتاب كما هى مكفولة للمسلم.

(٧) مال الكتابى مصون كمال المسلم تمامًا، يقول الرسول الكريم ﷺ: من أخذ شبرًا من أرض بغير حق طوقه يوم القيامة من سبع أراض.

(٨) الصدقة تجوز على الكتابى كما تجوز على المسلم، بما فيها صدقة الفطر المرتبطة بفريضة إسلامية هى الصيام.

(٩) للمسلم أو الكتابى خمس (الركاز) الذى يعثر عليه فى غير ملك لأحد، وللدولة أربعة أخماس.

(١٠) ويزيد الكتابى على المسلم فى بعض الأمور، كالأمور التى يحرمها الإسلام، كتربية الخنازير وصناعة الخمور والتجارة فيها بين غير المسلمين، وهى أمور محرمة على المسلمين.

إنها حقوق أقرها الإسلام لهذا الآخر (أهل الكتاب) الذى يؤمن بوحدانية اللّٰه، رغم تحفظ الإسلام واعتراضه على تصورات طوائف كثيرة من اليهود والمسيحيين لمعنى التوحيد وشكله.

ولعل بعض الكُتّاب المسلمين يجدون حرجًا فى التطرق لبعض النقاط الشائكة فى هذا المجال، كقضية الجزية وحقوق المواطنة والحقوق السياسية للآخر فى الدولة والمجتمع الإسلامى، حيث ذهب بعض المفكرين المسلمين المتشددين للقول

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بحرمان الآخر من حقوق المواطنة والحقوق السياسية فى المجتمع المسلم، على أساس أن الإسلام هو قومية كل المسلمين، وقبل أن نتطرق لهاتين القضيتين الشائكتين لابد وأن نعود للتاريخ لنتعرف على ظروف ميلاد هاتين الإشكاليتين.. فقبل أن يخرج الإسلام من جزيرة العرب، وقبل أن تترامى رقعة الدولة الإسلامية وتضم إليها العديد من الأمصار ويضم المجتمع الإسلامى عناصر كثيرة غير المسلمين كان العالم مقسمًا بين قوتين عظميين (الفرس والروم)، فكيف تمددت كل دولة منهما حتى أصبحت إمبراطورية؟! الجواب بسيط: بالحرب، وكيف كان حال أبناء المستعمرات فى العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا وغيرها من الأمصار المستعمرة من قبل الدولتين؟

كان غزو هذا البلد أو ذاك واحتلاله بالقوة يعنى أن البلد بكل ما فيه من أرض وممتلكات، ومن فيه من بشر صار ملكًا لكسرى أو قيصر، إن شاء نكل بأهل البلدأو أبقى على حياتهم فيصيرون فى منزلة أقرب للعبودية، كانت المواطنة حق وميزة لا يتمتع بهما إلا أبناء الفرس أو الروم، وربما تمنح لمن يتفانى فى خدمتهم من أبناء المستعمرات، المناصب القيادية والأجهزة الإدارية لكل المستعمرات حكرًا عليهم... الضرائب تفرض على أبناء المستعمرات دون أن يحق لهم الاعتراض أو التحفظ وما من شك فى أن المواطنين الرومانيين ـ مثلاً ـ سواء كانوا مواطنين بالوراثة أو ممن اكتسبوا حقوق المواطنة بمنحة من إمبراطور أو حاكم كانوا مميزين مكانة ومنزلة عن سائر السكان»[١٩]. كانت المستعمرات الفارسية والرومانية تعيش حالة من النهب المنظم حتى أن أحد الكُتّاب صرخ بالشكوى من أن ذاك الذى يسرق من مواطن حر يقضى أيامه مكبلاً بالقيود، ولكن من يسرق من المجتمع يقضيها وهو يرفل فى الذهب والأرجوان.. كان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأشراف يعيشون فى أُبهة على أسلاب المقاطعات واستخدم جباة الضرائب من الزُراع والمتعهدين ثراءهم فى إنشاء قوة جديدة منافسة فى السياسة، وتدهورت الجماهير التى ألمت بها الفاقة والتى أكتظت بها الحاضرة إلى طبقة عمال من الكسالى»[٢٠]، ولم تكن الصورة فى الإمبراطورية الفارسية أفضل منها فى الرومانية بل يضاف إليها ما للأكاسرة من جبروت «كان الفرس يطلقون على الإمبراطور لقب ملك الملوك، وهو صاحب السلطة المطلقة فى طول البلاد وعرضها، فكانت كلمته التى تصدر من فيه كافية لإعدام من يشاء من غير محاكمة ولا بيان للأسباب، تمامًا كما يحدث عند الطغاة اليوم!!. وكان فى بعض الأحيان يمنح أمه أو كبيرة زوجاته حق القتل القائم على النزوات والأهواء، وقلما كان أحد من الأهالى ومنهم كبار وأعيان يجرؤ على انتقاد الملك أو لومه.. لدرجة أن كان كل ما يفعله من يرى الملك يقتل ابنه البرىء أمام عينيه رميًا بالسهام أن يثنى على مهارة الملك العظيمة فى الرماية»[٢١].

كان أبناء المستعمرات محرومين من الانخراض فى سلك الجندية، وإذا حدث فإنه يتم تجنيدهم فى بلاد أخرى غير بلادهم.. إنه قانون القوة الذى يفرض على المهزوم أو المستعمر بلده الخنوع التام، والذى يمنح كل المزايا للمنتصر الذى يمتلك القوة.

فى ذلك العصر خرج المسلمون من جزيرة العرب ليفتحوا الأمصار، فهل فعلوا فى أهل هذه الأمصار مثلما فعل الفرس والروم؟! إن التاريخ يقول: إن الأجهزة الإدارية فى الولايات التى فتحها المسلمون كان أغلب العاملين بها من أبناء هذه الولايات، وسواء من اعتنق منهم الإسلام أو من لم يعتنقه وفى مراحل تالية تبوأ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

عدد من المسيحيين واليهود مناصب قيادية -(كالوزارة مثلاً) فى عدد من الدول الإسلامية، لدرجة أن (آدم ميتز) تعجب لكثرة غير المسلمين فى المناصب القيادية فى الدول الإسلامية قائلاً: كأن النصارى هم الذين يحكمون المسلمين فى بلاد الإسلام.. ولعل فى هذا أبلغ رد على الذين يقولون بأن الإسلام يحرم الآخر من حقوقه السياسية فكيف نتحدث عن حق المسيحى أو اليهودى فى الإنتخاب أو الترشيح لمجلس نيابى، وقد كان من اليهود والنصارى رؤساء وزارات فى دولة وعهد كان الدين فيهما هو العنصر الرئيسى الذى يستمد منه الحكم شرعيته.

أما الجزية فليست كما يقول البعض إنها بدل سكن هذا الآخر لديار المسلمين، فهى فى حقيقتها بدل للدفاع والحماية «وقد فرض الإسلام الجزية على الذميين فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتساوى الفريقان؛ لأن المسلمين والذميين يستظلون براية واحدة ويتمتعون بجميع الحقوق وينتفعون بمرافق الدولة بنسبة واحدة، ولذلك أوجب الله الجزية للمسلمين نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى البلاد الإسلامية التى يقيمون فيها، ولهذا تجب - بعد دفعها - حمايتهم والمحافظة عليهم، ودفع من قصدهم بأذى»[٢٢].

وإذا كان المؤرخون يتحدثون عن الخيارات التى طرحها المسلمون الفاتحون على أهل الأمصار ويحصرونها فى الإسلام أو القتال أو دفع الجزية، فإن هناك خيارًا آخر لم ينتبه إليه كثير من المؤرخين، ألا وهو تحالف هذا الآخر مع المسلمين وقيامه بواجب الدفاع عن بعض التخوم والثغور أو الاشتراك مع الجيوش الإسلامية فى قتال الأعداء، وهذا الخيار كان يعنى عدم دفع الجزية وعدم الدخول فى الإسلام، وعدم قتال المسلمين، هذا ما حدث مع القائد عتبة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ابن فرقد فاتح أذربيجان الذى عقد عهدًا مع أهلها على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، ومن شارك منهم فى القتال مع المسلمين رُفعت عنه الجزية فى السنة التى يشارك فيها، أيضًا يذكر التاريخ أن سراقة بن عمرو عامل الخليفة عمر بن الخطاب استجاب لطلب (شهربراز - ملك - الباب) بأرمينيا بأن يعفيه وعشيرته من الجزية مقابل أن يقوموا بما يطلب منهم ضد أعداء المسلمين، وقد وافق سراقة على هذا الطلب بعد استشارة عمر بن الخطاب الذى لم يجد حرجًا فى رفع الجزية عن كل من قاتل فى صفوف الجيش الإسلامى من أهل أرمينيا، أو صد هجوم الأعداء.

أخرج مسلم عن بريدة رضي الله عنه قال: كان النبى ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال: فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم إن هم فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا فأخبرهم أن يكونوا كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.. إلى آخر الحديث الذى رواه الخمسة إلا البخارى. ويوضح الحديث أن الخيارات التى طرحها المسلمون على أعدائهم كانت: الإسلام، التحالف، دفع الجزية، القتال.. ومما يؤكد أن الجزية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بديل لأداء الخدمة العسكرية والدفاع عن الدولة أن القائد أبا عبيدة بن الجراح رد على أهل حمص الجزية التى أخذها منهم، عندما اضطر للانسحاب من المدينة بعد حشد الروم لجيوشهم ضد المسلمين، أيضًا صالح أبو عبيدة أهل السامرة بالشام على إسقاط الجزية عنهم مقابل أن يكونوا عيونًا وأدلاء للمسلمين.

والجزية ليست اختراعًا عربيًا أو إسلاميًا، ويذهب البعض إلى أن كسرى «أنوشروان» هو أول من رتب أصولها، وقد وضعها يونان أثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين، وفينيقية يومئذٍ من أعمال الفرس، فهان على سكان تلك السواحل دفع المال فى مقابل حماية الرءوس، والرومان وضعوا الجزية على الأمم التى أخضعوها، وكانت أكثر كثيرًا مما وضعه المسلمون بعدئذٍ، فإن الرومان لما فتحوا غاليا «فرنسا الآن» وضعوا على كل واحد من أهلها جزية يختلف مقدارها ما بين ٩ جنيهات و١٥ جنيهًا فى السنة أو نحو سبعة أضعاف جزية المسلمين»[٢٣].

«إن الذين تنطبق عليهم شروط الجزية، ليسوا سوى الذين تنطبق عليهم شروط الجندية، هم الذين يطالبون بالقتال فى أى بلد إذا ما دقت طبول الحرب، فإذا لم يشتركوا فى القتال، وذهب غيرهم ليصدوا العدوان ويموتوا فى ساحة القتال فليس ظلمًا على الإطلاق أن يدفع القاعدون مقابلاً لهذه الميزة، يظل رمزيًا فى جميع الحالات، وهذا النظام كان معمولاً به فى مصر حتى منتصف القرن العشرين، إذا كان على كل من لا يرغب فى أداء واجب الخدمة العسكرية من المسلمين وغيرهم أن يدفع بدل الجهادية»[٢٤]، ويذهب الكاتب الإسلامى فهمى هويدى إلى أنه مادام غير المسلمين فى الدولة الحديثة يقومون بأداء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الخدمة العسكرية والدفاع عن الدولة مثلهم مثل المسلمين، فبذلك تسقط عنهم الجزية.

ورغم هذا فإن هناك من يتوقفون أمام الآية الكريمة التى تفرض الجزية: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ (التوبة: ٢٩)، ويتوقفون بالأخص أمام قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ (التوبة: ٢٩)، فيقولون: إن المقصود هو إذلال من يعطى الجزية، ويتناسى هؤلاء أن الآية تتحدث عن حالة حرب وأنه رغم أننا فى القرن الواحد والعشرين إلا أن المهزوم فى الحرب يوقع وثيقة استسلام وليس معاهدة صلح، ويفسر أبو الأعلى المودودى هذه الآية بقوله: (والجزية نظير ما يناله الذميون من أمن وحماية فى الدولة الإسلامية، كما أنها دليل على رضاهم باتباع أحكام وقوانين الدولة الإسلامية، فالمعنى الصحيح لإعطاء الجزية (عن يد) هو إعطاؤهم إياها طائعين، (وصاغرون) تعنى ألا يكونوا أكابر الأرض أى ذوى مناصب كبرى[٢٥].

وإذا كان البعض يضخمون الحديث عن الجزية وكيفية أخذها فإنهم يتناسون أيضا أن الفقراء من أهل الكتاب أو العجائز يحق لهم أن يأخذوا من بيت مال المسلمين، بل إن البعض فسر قوله تعالى:﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ...**﴾ (التوبة:٦٠).

بأنه تعالى يعنى بالفقراء المسلمين، أما المساكين فهم المحتاجون من أهل الكتاب، وبذلك يصبح المال الذى يتقاضاه الفقير الكتابى ليس منة أو هبة من المسلمين، وإنما حق فرضه الله له.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ونعود لمعنى الصغار مرة أخرى «قال ابن القيم: واختلف الناس فى تفسير الصغار، الذى يكونون عليه وقت الجزية، فقال عكرمة: أن يدفعها وهو قائم، ويكون الآخر - المسلم - جالسًا، وقالت طائفة: أن يأتى بنفسه ماشيًا لا راكبًا، ويطال وقوفه عند إتيانه بها، ويجر عند الموضع الذى يؤخذ منه بالعنف، ثم تجر يده ويمتهن، وعقب على تلك الآراء بقوله: وهذا كله مما لا دليل عليه، ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك، والصواب فى الآية: أن الصغار هو التزامهم بمجريات أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية، فإن التزام ذلك هو الصغار»(٢٦).

وإذا كان البعض من المسلمين يتشددون فينفون الآخر ويقلصون حقوقه التى أقرها الإسلام، لسوء قراءاتهم للنصوص الدينية، والبعض الآخر من غير المسلمين يتحدثون عن عمد أو عن جهل عن قسوة الإسلام على الآخر، فيكفى أن نضع ما قاله الرحمة المهداة محمد بن عبد الله ﷺ أمام محكمة التاريخ لنرى هل طالب حاكم أو سياسى أو قائد أو مصلح اجتماعى أو حتى نبى، أهل ملته بما طالب به الرسول الكريم المسلمين من حسن معاملة هذا الآخر (أهل الذمة) رغم أن بهم مللاً شبه وثنية كالمجوس، يقول ﷺ: «من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه». فكيف يظلم الإسلام الآخر ورسول الإسلام يحذر المسلمين أنه سيكون خصم من ظلم معاهدًا، أو ذميًا، وقد كان عمر بن الخطاب الذى يتهمه البعض بالتضييق على أهل الذمة يقول: أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله، أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم.

ونعود مرة أخرى لما يثار عن نفى الإسلام حق المواطنة والحقوق السياسية عن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الآخر المقيم فى المجتمع والدولة الإسلاميين، ونستشهد هنا بوثيقة المدينة التى كتبها الرسول مع يهود المدينة، وكان من أهم ما جاء بها - فى مجال حق المواطنة للآخر (**وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيته.. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأن من خرج آمنًا ومن قعد آمنًا بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر و اتقى**).

هذه هى الوثيقة السياسية التى وضعها محمد ﷺ منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا «والتى تقرر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وحرمة الجريمة، وهى فتح جديد فى الحياة السياسية والحياة المدنية فى عالم يومئذٍ، هذا العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد وتعيث فيه يد الظلم فسادًا، ولئن لم يشترك فى توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع، إلا أنهم ما لبثوا بعد قليل أن وقّعوا بينهم وبين النبى ﷺ صحفًا مثلها، وكذلك أصبحت المدينة وما وراءها حرمًا لأهلها، عليهم أن ينضحوا عنها ويدفعوا كل عاد عليها، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة فيها من الحقوق وصور الحرية»[٢٧].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وإذا كانت الوثيقة تنص على أن يهود بنى عوف يكونون أمة مع المسلمين ولكل فريق حق الاعتقاد وكافة الحقوق المدنية إلا ما يهدد سلامة وأمن المدينة (الدولة) أو يفتت هذه الوحدة، فهل بعد ذلك حديث عن نفى الإسلام لحقوق الآخر فى المواطنة وممارسة حقوقه السياسية؟!

وإذا كان بعض المستشرقين يرون أن وثيقة المدينة كتبت فى وقت متأخر من إقامة الرسول بيثرب، وبعد غزوة الأحزاب أو بعد إجلاء بنى النضير وبنى قينقاع فإن هذا يحسب للرسول ﷺ وليس عليه، فهو إذا كان أقر هذه الوثيقة بعد ما كان من قبائل اليهود، فهو لا يؤاخذ البعض بالبعض الآخر، حتى وإن كان من ملته، وهو ﷺ يقر فى كلتا الحالتين (توقيعها فى العام الأول للهجرة أو بعد غزوة الأحزاب) أن الدولة والمجتمع الإسلاميين يمنحان حق المواطنة لمن يحافظ على أمنهما وسلامتهما ويلتزم بالأخلاقيات العامة، ويشارك فى صد العدوان عن هذا المجتمع وتلك الدولة «ويتضح من هذه الوثيقة أنها قامت على أساس فهم واسع لقاعدة القانون استنادًا إلى مبدأين بسيطين هما: مبدأ كفالة الحقوق الفردية عن طريق سلطة قضائية محايدة ومبدأ المساواة أمام القانون»[٢٨] كما يقول مونتجمرى واط فى كتابه «محمد فى المدينة»، ومكسيم رودنسون فى كتابه «محمد».

وإذا كانت الوثيقة قد وقعت بين الرسول ﷺ ويهود المدينة ولم تشمل المسيحيين، فقد تم ذلك لسبب بسيط، أن يثرب وقتئذٍ لم يكن بها مسيحيون، لكن عندما زار نصارى نجران يثرب وتحاوروا مع الرسول ﷺ ورفضوا اعتناق الإسلام، أرادوا فى الوقت نفسه الانضمام إلى الأمة بالشروط الواردة فى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الصحيفة بالقدر الذى كان يمكن به تطبيق هذه الشروط على منطقتهم[٢٩].

إننا مطالبون بأن نتوقف كثيرًا أمام كلمة (أمة) التى وردت فى وثيقة المدينة، فرغم النزعة القبلية والعصبية السائدة فى جزيرة العرب فى ذلك الوقت – القرن السابع الميلادى – والتى كانت كل قبيلة عربية معها تعتبر نفسها أمة، إلا أن الإسلام أراد تقديم مفهوم جديد للأمة، تقوم فيه المواطنة على أساس مختلف بعيدًا عن العصبية والقبلية والجنسية، بل ووحدة الدين فالصحيفة تتضمن بيانًا واضحًا بالخطوط التى كان الرسول يقيم عليها بناء الأمة فالأمة متعددة الديانات، أساسها ليس إقليميًا أو قبليًا فبعض مواد الصحيفة تفيد استبعاد المشركين من الأمة، ولما كانت الصحيفة قد أدخلت يهود يثرب فى الأمة فالظاهر أن الشرط الأساسى الوحيد لعضوية الأمة كان الإيمان بوحدانية الله»[٣٠]، ذلك ما يبدو للبعض لكن هذا الاستنتاج ليس صحيحًا تمامًا، فالمواطنة التى منحتها الدولة الإسلامية للمسلمين واليهود والمسيحيين المقيمين فيها منحت أيضًا لأصحاب ديانات لا تعتبر ديانات سماوية ولا يؤمن أصحابها بالتوحيد مثل المجوس الذين اعترفوا «بأنهم أهل ذمة، منذ قبلت منهم الجزية على عهد رسول الله ﷺ وفى القرن الرابع الهجرى كان لهم كاليهود والنصارى رئيس يمثلهم فى قصر الخلافة ودار الحكومة»[٣١] كما يؤكد آدم ميتز.

يورد الكاتب فهمى هويدى مجموعة من الحقوق لأهل الذمة تؤكد على أن نظرة الإسلام لهم ومعاملة المسلمين نبعتا من الاعتراف بأن هذا الآخر – أهل ذمة – مواطن لا يقل فى الحقوق والواجبات عن المسلم، من هذه الحقوق: أن المسلمين حين أعطوهم الذمة فقد التزموا دفع الظلم عنهم، وهم صاروا من أهل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الإسلام، على المحتسب أن يمنع المسلمين من التعرض لهم بسب أو أذى، ويؤدب من يفعل ذلك، وإذا وقع الذميون رعية الدولة الإسلامية فى أسر قوم من أهل الحرب ارتبطوا بأمان مع دولة المسلمين، كان على دولة المسلمين نقض العهد لاستنقاذهم، ويجب كف الأذى عنه - عن الذمى - وتحريم غيبته كالمسلم[٣٢].

إن منح عهد الذمة لهذا الآخر كان يعنى ببساطة وبلغة عصرنا هذا منحه الجنسية، وما دام هذا الآخر ملتزمًا بقواعد وقوانين وأخلاقيات المجتمع فهو يتمتع بكامل حقوق المواطنة، أما إذا قام بما من شأنه تهديدًا للدولة والمجتمع فلا عهد أو ذمة له، وليس فى هذا شىء غريب، فنحن نرى الآن دولاً تسحب الجنسية من بعض مواطنيها، ممن ارتكبوا أفعالاً تهدد أمن الدولة والمجتمع، سواء كان هذا المواطن ممن تجنسوا أو من المواطنين الأصليين.

كما يرد فهمى هويدى على من يحرمون غير المسلمين من ممارسة حقوقهم السياسية فى الدولة الإسلامية مثل: أبو الأعلى المودودى، د. مجيد خدورى، فيؤكد على أن هذه الآراء يلاحظ عليها عدة أمور:

الأمر الأول: إنها تتعامل مع أهل الذمة باعتبارهم كيانًا منفصلاً عن مجتمع المسلمين، وتكاد تضعهم فى مربع واحد مع الأجانب المستأمنين.. على أساس أن الفريقين من ملة واحدة؛ فريق منهم خضع لحكم الدولة الإسلامية، وفريق بقى خارجها وأُعطى الأمان، وتلك نظرية متأثرة بعنصرين: الخلفية التاريخية لعقد الذمة، وكونه اتفاقًا بين قبائل وأفراد ذوى مصالح متناثرة وكيانات منفصلة ثم معيار قسمه الناس على أساس أديانهم.

الأمر الثانى: إن بعض من يطرحون هذه التطورات يخاطبون عالمًا غير عالمنا،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أعينهم وفكرهم على الدولة الإسلامية فى العصر الأموى والعباسى الأول ولا يخاطبون المسلمين الموزعين على ٤٠ دولة، فهم يتحدثون عن دولة إسلامية واحدة غير موجودة على الخريطة الآن.

الأمر الثالث: إن الذين قالوا بأن غير المسلم يعتبر مواطنًا من الدرجة الثانية فى المجتمع الإسلامى لم يورد أحدهم نصًا شرعيًا يستند إليه فى دعواه، وإذا افترضنا أن البعض استخلص تلك النتيجة من قول الشافعية أن أهل الذمة يدفعون الجزية كمقابل سكنى الدار، فإن هذا الرأى ينبغى أن يعد مجرد اجتهاد فقهى، وليس نصًا شرعيًا بأى حال(٣٢).

على أى حال فإن الحديث عن مواطنة غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى خضع لمؤثرات التاريخ أكثر مما خضع لفكر الشريعة الإسلامية وتأثر نظام حقوق غير المسلمين فى عصور ما بعد الفتح بعاملين:

أ - إن المسلمين كانوا قلة من الناحية العددية بالنسبة إلى شعوب البلاد المفتوحة.

ب - إن المسلمين كانوا القوة السياسية ذات اليد الطولى فى عالم ذلك الوقت.

وكان العنصر الأول يثير حذر إذابة المسلمين فى غيرهم،. وكان العنصر الثانى يمكن المسلمين من فرض النظام الذى يحفظ هذا الوجود المتميز، والآن تغير هذا الوضع من طرفيه فلم يعد المسلمون أقلية فى كثرة مغايرة، بل صاروا هم الكثرة الغالبة بحيث يزول عنهم حذر الذوبان فى غيرهم.

وثمة نقطة أخرى، فإذا كان الفقه اتسع فى الماضى لاختلاف معاملة غير

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المسلمين ممن فتحت بلادهم صلحًا أو عنوة «فلابد من أن يسع فقه الشريعة اليوم واقع تاريخ معاصر، وهو أن غير المسلمين فى بلادنا قد شاركوا فى حركات تحريرهم الوطنية المعاصرة، وسالت دماء الاثنين معًا فى حركات كفاح شامل لإزاحة المحتلين الأوروبيين والغربيين فى القرن العشرين، ومن ثم وجب أن يكون لهذا الواقع التاريخى أثره الحاسم فى تقدير موازين الحقوق والواجبات المتساوية بين المسلمين وغير المسلمين فى بلادنا»(٣٤).

إذا كنا قد تحدثنا عن الحقوق التى أقرها الإسلام للآخر بما فيها الحقوق الإضافية لأهل الكتاب، فلعل هذا يدعونا للتساؤل عن الواجبات التى يطالب بها المجتمع الإسلامى هذا الآخر والتى سماها البعض شروط عقد الذمة، ويمكن تسميتها الآن بالعقد الاجتماعى بين غير المسلمين والمجتمع الإسلامى، والتى تضمن الوئام بين الدولة والمجتمع الإسلاميين، وهذا الآخر «وإذا تم عقد الذمة ترتبت عليه حرمة قتالهم والحفاظ على أموالهم وصيانة أعراضهم، وكفالة حرياتهم، والكف عن أذاهم، لما روى عن على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا.. والقاعدة العامة التى رآها الفقهاء: أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا.. وتجرى أحكام الإسلام على أهل الذمة فى ناحيتين، الناحية الأولى: المعاملات المالية، فلا يجوز لهم أن يتصرفوا تصرفًا لا يتفق مع تعاليم الإسلام، كعقد الربا وغيره من العقود المحرمة..

الناحية الثانية: العقوبات المقررة، فيقتص منهم وتقام الحدود عليهم متى فعلوا ما يوجب ذلك، وقد ثبت أن النبى ﷺ رجم يهوديين زنيا بعد إحصانهما.. أما ما يتصل بالشعائر الدينية من عقائد وعبادات، وما يتصل بالأسرة من زواج

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وطلاق فلهم فيها الحرية المطلقة، تبعًا للقاعدة الفقهية المقررة: «اتركوهم وما يدينون»[٣٥] هذا عن عقد الذمة، أما الواجبات التى يطالب بها الإسلام أهل الذمة (الآخر) فى المجتمع الإسلامى فهى:

١ - ألا يذكروا كتاب الله بطعن فيه ولا تحريف.

٢- ألا يذكروا رسول الله ﷺ بتكذيب له ولا ازدراء.

٣ - ألا يذكروا دين الإسلام بذم ولا قدح فيه.

٤ - ألا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح.

٥ - ألا يعينوا أهل الحرب ولا يَودُّوا أغنياءهم.

٦ - ألا يفتنوا مسلمًا عن دينه أو يتعرضوا لماله أو دمه.

والجدير بالملاحظة: أن هذه الشروط التى أوردها (الماوردى) فى كتابه «الأحكام السلطانية» تلائم هذا العصر أكثر من العصور السابقة، حيث الغالبية الآن فى المجتمع الإسلامى يدينون بالإسلام، وحيث تنفذ كثير من هذه الشروط بحكم القانون المدنى أو قانون أمن الدولة؛ فالقانون المصرى مثلاً يعاقب كل من يزدرى الأديان السماوية سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، وسواء ازدرى الإسلام أو المسيحية أو اليهودية، ولعل الشروط الثلاثة الأولى تتحدث عن تجاوزات تتم بشكل إعلامى أو جماعى، فمن البديهى أن يقول المسلم: إن غير المسلمين يطعنون فى القرآن ويزدرون الرسول ويذمون الإسلام بدليل أنهم لم يؤمنوا بالقرآن أو الرسول أو الإسلام، وهنا تحدد الخطوط فإذا كان غير المسلمين يمارسون ذلك فى بيوتهم أو دور عبادتهم وبينهم، فالمهم ألا يصل هذا لأذن المسلم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فيؤذيه أو ينشر بأية وسيلة إعلامية فيسىء للمسلمين، ويكون رد فعلهم بالمثل، ويصبح المجتمع ساحة للطعن فى الأديان.. والجدال مع الآخر فى المسائل العقائدية يجب أن يكون بالحسنى، ولعل الجميع؛ المسلمين وغير المسلمين يطمعون لأن تسود المودة والحوار والتواصل للمجتمع.

أما المشكلة الحقيقية فى مجال الواجبات المطالب بها غير المسلم فى المجتمع الإسلامى فيسميها الماوردى بالشروط المستحبة وهى:

١- لبس الغيار وشد الزنار.

٢- ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم.

٣- ألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوين لهم.

٤- ألا يجاهروا بشرب خمورهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم.

٥- أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة.

٦- أن يُمنعوا من ركوب الخيل عتاقًا وهجانًا ولا يُمنعوا من البغال والحمير.

«وهذه الشروط الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضًا للعهد، لكن يؤخذون بها إجبارًا ويؤدبون عليها زجرًا، ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم، هذا ما يذهب إليه الماوردى، وهذه الشروط تستند إلى ما اصطلح عليه بالعهد العمرى - نسبة إلى عمر بن الخطاب[٢٦] واستهدفت تنظيم المجتمع الإسلامى فى عصره الأول وإظهار ما فى الإسلام من عزة ويبدو أن تلك الشروط ظلت مجهولة لفترة ولم تظهر إلا فى أواخر القرن الثانى الهجرى.

وإذا كان د. قاسم عبده قاسم يرى أن العهد العمرى وثيقة ظاهرة الوضع، وأن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كتب الفقه والنظم الإسلامية لا تمثل الوضع فى صدر الإسلام ولا فى العصور التى كتبت فيها وإنما كانت تمثل أمانى مؤلفيها ـ فإن بعض هذه الشروط يتنافى وما أقره الإسلام من المساواة فى الحقوق المدنية لمواطنى الدولة الإسلامية (لبس الغيار وشد الزنار) وبعضها يصعب تحقيقه الآن (ألا تعلو أبنيتهم) فالمسلمون يسكنون الآن بنايات مشتركة مع غير المسلمين، وهذا هو النمط السائد فى كل مدن العالم الإسلامى.

نفس الشىء مع الشرط الخامس، فقد اختلفت وسائل المواصلات فكيف يمكن تمييز غير المسلمين عن المسلمين مع انتشار السيارات والطائرات والبواخر، وهل يجوز التمييز بينهم فى وسائل النقل العامة أو الخاصة، وهل هذا أمر متاح أو ممكن؟!

أما الشرط الثانى (ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم) فالتاريخ يشير إلى أن هذا الشرط تم تجاوزه فى مراحل كثيرة من تاريخ الدولة الإسلامية، فكتب التاريخ تصور لنا مواكب احتفال المسيحيين بأعيادهم وخروجهم فى جماعات ضخمة حاملين صلبانهم وهم يسيرون فى شوارع بغداد أيام المأمون مثلا، غير أننا هنا يجب أن نلاحظ أمرين كانا وما زالا محددين لدرجة حساسية المجتمع الإسلامى تجاه الآخر:

الأول: إن تسامح المسلمين أو تشددهم تجاه الآخر مرتبط بقوة الدولة الإسلامية، فكلما كانت الدولة فى حالة قوة كانت درجة التسامح أكبر واعتبر المسلمون الآخر عنصر إثراء للدولة والمجتمع، وكلما كانت الدولة فى حالة ضعف اعتبر المسلمون هذا الآخر عنصر إضعاف للدولة والمجتمع.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الثانى: إن درجة التسامح والتشدد تجاه الآخر تتأثر بالضغط الخارجى على الدولة الإسلامية حيث يزداد الشك فى موالاة هذا الآخر الداخلى للقوة المعادية الضاغطة أو الغازية خاصة إذا كانا على دين واحد.. وهو أمر لم ولن يكون حكرًا على المسلمين، فالولايات المتحدة الأمريكية مثلاً وبعد الهجوم اليابانى على «بيريل هاربورت» أثناء الحرب العالمية الثانية اتخذت إجراءات غير إنسانية ضد الأمريكيين من أصل يابانى رغم أن بعضهم كان يدين بالمسيحية والبعض الثانى يمثل الجيل الثانى أو الثالث الذى ولد وتربى فى هذه البلاد.

ولعل هذا الشرط (ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم) يتماس مع فكرة مراعاة مشاعر الأغلبية، وإذا كان الحديث هنا ينصب على غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى فدعونا نقلب الآية ونفكر فيها على النحو التالى «هل يقبل أن يرأس شخص مسلم دولة أغلبيتها غير مسلمة؟ هل يقبل أن تتصدر مساجد المسلمين الواجهات والميادين الرئيسية فى مدينة مسيحية الطابع والملة؟ هل يقبل أن يؤذن جماعة من المسلمين للصلاة عبر مكبر للصوت خمس مرات كل يوم فى مجتمع أوروبى غير مسلم؟ حتى إذا جاز القانون هذه الخطوة أو تلك فمن المؤكد أنها جميعًا تؤذى مشاعر الأغلبية غير المسلمة، بحيث يصبح من العقل والذوق وربما المصلحة أيضًا، أن نجيب على الأسئلة بالنفى»[٣٧] أما إذا كانت الإجابة بالإيجاب فإن هذا الشرط الذى قال به الماوردى وغيره يصبح غير منطقى بل وغير إنسانى.

ونأتى للشرط الرابع (ألا يجاهروا بشرب خمورهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم) وقد يدهش البعض عندما نقول إن هذا الشرط يحدده سلوك المسلمين دون حاجة لفرضه قسرًا على غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فداخل المجتمعات الإسلامية التى يحترم أبناؤها الأخلاق الإسلامية لن تجد غير المسلمين يجاهرون بشرب الخمور أو إظهار صلبانهم وخنازيرهم، والعكس صحيح، فإذا لم يحترم المسلمون الأخلاق الإسلامية ويحرصون عليها فكيف نطالب غيرهم بذلك.

أما الشرط الخامس (أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة) فنرى أن الجزء الأول منه ربما يتعارض مع ما ورد عن رسول الله ﷺ حين رأى جنازة فوقف فقال له بعض الصحابة: يا رسول الله إنه يهودى، فقال ﷺ: أو ليست نفسًا، إذا رأيتم جنازة فقفوا.. إنه دعوة من المبعوث رحمة للعالمين للاعتبار من الموت، ورحمة بتلك الروح التى كرمها الحق تعالى سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة.

أما الجزء الثانى من هذا الشرط والذى ينص على عدم المجاهرة بالندب أو النواح، فربما يكون السبب وراءه مبالغة أهل المتوفى فى إظهار الحزن والتعبير عن الفاجعة بشكل سيئ قد يتعارض والإيمان بالله، وقد نهى ﷺ المسلمين عن التلفظ أو النطق بما يغضب الله فى حالات الموت، وقال حين توفى ابنه إبراهيم: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ما يغضب الله».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

● الفصل الثالث

الحرب فى الإسلام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحرب ليست اختراعًا إسلاميًا، فهى ظاهرة إنسانية نشأت مع تكون المجتمعات البشرية الأولى وهى «فى جوهرها تبادل منظم للعنف.. لقيت الاعتراف على طول التاريخ الإنسانى باعتبارها نشاطًا مقبولاً بل اعتبرت نشاطًا طبيعيًا ومجيدًا»[٣٨] لحسم الخلافات بين البشر الذين غالبًا ما يصنف فريق منهم بأنه خيِّر والآخر بأنه شرير، أو يوصف أحدهما بأنه على حق والآخر على باطل.. ولا نكاد نجد أمة وحضارة لم تعرف الحرب، بل لا نبالغ إذا قلنا إن الحرب كانت هى الوسيلة الرئيسية لتكوين الدول والإمبراطوريات منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى الآن.

وقد أقرت الديانة اليهودية الحرب واعتبرتها الطريق لتكوين دولة إسرائيل القديمة، نقرأ فى سفر التثنية الإصحاح (٢٠) ما يلى (**حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن إجابتك إلى الصلح وفُتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك**) (١٠ - ١٤).

«وإذا كانت المسيحية فى بدايتها قد لجأت إلى السلم فليس معنى ذلك أنها تنكر الحرب»، ولكن لأنها لم تكن فى طاقتها، وما كانت بقادرة عليها، فقد كانت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فئة قليلة من الفقراء لا معرفة لهم بالحرب أو الجلاد فى مجتمع يدين لروما بالولاء ولجند روما بالسلطة، فآثرت المسالمة وتخفت بالدعوة حتى لا يقضى عليها فى مهدها، وظل المسيحيون الأوائل يتخفون فى دعوتهم قرونًا طويلة حتى اعتنق قسطنطين المسيحية فقويت شوكتهم، وأنزلوا بخصومهم من ألوان البطش والقسوة ما أنزلوه بهم من قبل، ولم يشفع فيهم سماحة المسيحية ولا ما دعا إليه المسيح عليه السلام من الحلم والصفح»[٣٩].

أما الإسلام فقد وضع شروطًا واضحة محددة لشن الحرب، ولم يترك الأمر لهوى هذا الحاكم أو ذاك الخليفة، وأول قاعدة فرضها الإسلام للحرب ألا تكون حربًا عدوانية، فلا يحق للمسلمين الاعتداء على غيرهم دون سبب يحدده الشرع ﴿**وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (البقرة: ١٩٠)، ولا يجوز للدولة المسلمة أن تشن حربًا ضد دولة أخرى طمعًا فى ثرواتها أو موقعها الاستراتيجى، ما دامت هذه الأخيرة لم تعاد المسلمين أو تضطهدهم أو تتحالف مع عدو ضدهم أو تزدرى الإسلام أو تطعن فى القرآن أو الرسول.. إنها قاعدة لن نبالغ إذا قلنا إن الغرب بما يدعيه من رقى ومثالية لم يقرها إلا فى القرن العشرين، وإن كثيرًا من الدول الغربية أقرتها على الورق فقط ولم تلتزم بها حتى الآن.

إذا كانت هذه هى القاعدة الأساسية فمتى يحق للمسلمين شن الحرب؟ لقد حدد القرآن الكريم هذه الحالات ويمكن حصرها فى النقاط التالية:

١ - الجهاد فى سبيل الله ضد من يقاتل المسلمين أو يمنعهم من تبليغ الرسالة ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾ (البقرة:١٩٠).

٢ - القتال لدفع الفتنة ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (الأنفال: ٣٩) ويقول تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ**

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

﴿حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣).

٣ - القتال ردًا على أذى ينال النفس أو المال أو حيفًا بمستضعف أو بغى طائفة على طائفة حتى وإن كانت من المسلمين، أى القتال لرد الظلم والعدوان والاضطهاد ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الحج: ٣٩- ٤٠)، ويقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

وفى غير ذلك جنح الإسلام إلى السلم ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١)، وإذا كان الإسلام قد أقر الحرب كصيغة للتعامل مع الآخر الخارجى المعتدى أو الظالم أو الذى يهدد مجتمع المسلمين ودولتهم فقد وضع لهذه الحرب آدابًا وأخلاقيات، سبق بها الإسلام كل المواثيق الدولية، فالحرب فى الإسلام ليست «للتدمير أو التخريب أو التعذيب ولا لانتهاك الحرمات ولا لقتل المسالمين من رجال الدين ولا العجزة من الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال، وإنما هى للقضاء على العدو الذى يبغى الشر ويريده ويفتك بالمسلمين إن ظفر بهم أو نال منهم، فالشدة على المحاربين قرين الرحمة بغير المحاربين، ولقد كان النبى ﷺ يقول: «أنا نبى المرحمة وأنا نبى الملحمة»[٤٠] ولذلك يمكن القول إن الإسلام لم يقرر الحرب إلا فى حالتين «الحالة الأولى: حالة الدفاع عن النفس والعرض والمال والوطن عند الاعتداء. الحالة الثانية: حالة الدفاع عن الدعوة إلى الله إذا وقف أحد فى سبيلها بتعذيب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من آمن بها أو بصد من أراد الدخول فيها أو بمنع الداعى من تبليغها»[٤١]، أما ما دون ذلك فالسلم هو القاعدة الأساسية «فالعلاقة بين الناس فى دستور الإسلام علاقة سلم حتى يضطروا إلى الحرب دفاعًا عن أنفسهم أو اتقاءً لهجوم تكون المبادرة فيه ضربًا من الدفاع، فالحرب يومئذٍ واجبة على المسلم وجوبًا لا هوادة فيه، وهو - مع وجوبها - مأمور بأن يكتفى من الحرب بالقدر الذى يكفل له دفع الأذى، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة إلى الصبر والمسالمة، ويتكرر هذا الأمر كلما تكرر الإذن بالقتال والتحريض عليه، وكل تحريض أمر به ولى الأمر فى القرآن فهو التحريض على تجنيد الجند، وحض العزائم على حرب لم يبق له محيد عنها ولا غرض له منها إلا أن يكف بأس المعتدين عليه وعلى قومه»[٤٢] والحرب فى الإسلام لها آداب فهى حرب بدون غدر أو غلو أو تمثيل بالقتلى، تشن ضد المحاربين من الرجال المقاتلين ولا تطرق لغيرهم من النساء أو الأطفال أو العجائز أو رجال الدين، ولا يتم خلالها حرق المدن أو إتلاف الزرع أو قتل البهائم ،وهى بهذا المعنى تختلف تمامًا عن الحرب المقدسة والتى تعنى «قطع رءوس الأعداء لترمى داخل الأسوار المحاصرة أو ترفع على رءوس الرماح لإخافة الأعداء»[٤٣] أو يعتبر العنف فيها عنفًا مشروعًا أو مبررًا أو تمنح غفران الخطايا فيصبح «بوسع الجنود أن يؤدوا مهام مهنتهم ضد الكفار بما يشاءون من وحشية عارفين أنهم لا يرتكبون بذلك أيًا من الخطايا المميتة»[٤٤].. وبشكل عام فإن الحرب فى الإسلام ترتبط بمفهوم أوسع هو الجهاد.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفصل الرابع

الجهاد.. تفسيرات خاطئة وحقائق مغيبة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فى سبعينيات القرن العشرين أصدر عبدالسلام فرج قائد تنظيم الجهاد كتاب «الفريضة الغائبة» وهو الكتاب الذى كانت إحدى نتائجه اغتيال الرئيس المصرى السابق (أنور السادات) كانت الفريضة الغائبة التى أشار إليها عنوان الكتاب هى الجهاد، فقد أكد عبدالسلام فرج على أن القتال فى هذا العصر فرض على كل مسلم ضد المجتمعات والحكام الذين يدعون الإسلام دون أن يطبقوه تطبيقًا كاملاً، فوفقًا لما رآه «عبدالسلام» فإن العدو يقيم الآن فى أقطار المسلمين (بل أصبح العدو يمتلك زمام الأمور، وذلك العدو هم هؤلاء الحكام الذين انتزعوا قيادة المسلمين، ومن هنا فجهادهم فرض عين، وما دام فرض عين فليس هناك استئذان للوالدين فى الخروج للجهاد كما قال الفقهاء، فمثله كمثل الصلاة والصوم).

كان ذلك الرأى نتيجة لحكم أصدره عبدالسلام فرج وتنظيمه بتكفير المجتمع، ومنذ ذلك الوقت تأكد دخول كلمة الجهاد الدائرة الحمراء، فما يذكرها المتشددون حتى تطرح معنى واحدًا هو إشهار السلاح فى وجه الغير، سواء كان هذا الغير حكامًا مسلمين أو أهل ذمة أو أجانب عابرين أو مقيمين داخل العالم الإسلامى، وما أن يذكر غير المسلمين كلمة الجهاد حتى يعنوا بها الإرهاب والعنف ومحاولة ابتزاز الآخر وفرض الإسلام عليه بالقوة، مستلهمين فى ذلك التراث الأسود لكثير من المستشرقين الذين روجوا لمقولة انتشار الإسلام بالسيف.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وإذا كان المستشرقون ومن على شاكلتهم قد عمدوا إلى تشويه معنى الجهاد لتشويه الإسلام من جانب ولإيجاد مبرر أخلاقى لاستعمار العالم الإسلامى، على اعتبار أن الإسلام دين يدعو للعنف والدموية ويحرض على قتال الآخر، فإن المتشددين الإسلاميين أساءوا فهم معنى الجهاد عن جهل أو تعصب أو كرد فعل مبالغ فيه لما تعرضت له هذه الجماعات المتشددة من تعذيب، وما تعرضت وتتعرض له الأمة الإسلامية من ضغط أو غزو خارجى.

«والجهاد فى سبيل الله أمر جاء به القرآن وجرت به السنة لا يمارى فى هذا أحد، ولكن ما الجهاد؟ فى اللغة أصله المشقة، يقال: جاهدت جهادًا أى بلغت المشقة، وفى الشرع جهاد فى الحرب وجهاد فى السلم، فالأول هو مجاهدة المشركين بشروطه، والآخر هو جهاد النفس والشيطان، وفى الحديث: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس»[٤٥].

والجهاد بمعنى القتال فرض على المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة المنورة عندما نزل قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ (الحج: ٣٩- ٤١)، وفى الآيات تعليل للإذن بالقتال بأمور ثلاثة:

١- إنهم ظلموا بالاعتداء عليهم، وإخراجهم من ديارهم بغير حق إلا أن يدينوا دين الحق ويقولوا: ربنا الله.

٢-إنه لولا أذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التى يذكر فيها اسم الله كثيرًا بسبب ظلم الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٣- إن غاية النصر والتمكين فى الأرض: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر [٤٦].

لكن كثيرًا من الفقهاء والعلماء المسلمين عندما يعرفون الجهاد ينصب حديثهم فقط على القتال ومقاومة المشركين ومجاهدة الكافرين، وأخلاقيات الجهاد فى الإسلام ومنزلة المجاهدين.. إلخ ليجد القارئ نفسه فى فصل كامل يتحدث عن الحرب والقتال والغنائم تحت اسم الجهاد.

إن الجهاد فى الإسلام إنما هو جهاد من أجل فكرة، هذه الفكرة هى ما عبر عنه سبحانه «بسبيل الله، وسبيل الله هو الخير والعدل والحق، فالقتال فى الإسلام إنما كان من أجل أن يكون الدين كله لله، وألا تكون فتنة، ومن أجل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، ثم من أجل هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق[٤٧].

ومن الخطأ تضييق معنى الجهاد وقصره فى القتال «فالحرب صورة من صور الجهاد وليست هى كل الجهاد، فالجهاد فى الإسلام لا يعنى الحرب وحدها، ولا يعنى مجاهدة الآخرين فى سبيل الحق فحسب، وإنما هو أيضًا مجاهدة النفس ومجاهدة الحياة، وجهاد النفس فى القدرة على التغلب عليها وقهر أهوائها إذا كانت أمارة السوء، وجهاد الحياة فى الصبر عليها والتغلب على مصائبها وأحزانها»[٤٨].

والجهاد يكون بالنفس والمال، ولعل تضيق البعض لمعنى الجهاد فى القتال مرده إلى تطابق المعنيين فى الغزوات والمواقع الأولى للإسلام، فلا يشك أحد من المسلمين فى أن كل الغزوات لتى قادها الرسول ﷺ أو عقد ألويتها لبعض الصحابة كانت جهادًا فى سبيل الله، كما اقترن اسم المجاهدين بالمحاربين المسلمين فى صدر الإسلام، أيضًا التصق بالمقاتلين الجزائريين ضد الاستعمار الفرنسى وبالأفغان المقاومين للاحتلال السوفيتى.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وفى حين يذهب بعض المفكرين المعاصرين لاعتبار الجهاد وسيلة لتطبيق معانى وأخلاقيات الإسلام، فإنهم لا يقصرون معنى الجهاد على القتال ويرون أن «الجذر اللغوى لكل من الاجتهاد والجهاد جذر واحد، فالجهد هو أصلهما، وبذل الوسع واستفراغ الجهد فى ميادين الفكر هو الاجتهاد، وبذل الجهد واستفراغ الجهد لوضع هذا الاجتهاد الفكرى فى الممارسة والتطبيق، بكل السبل وفى مختلف الميادين هو الجهاد الذى يحقق المقاصد والغايات الحقيقية من الاجتهاد، إنهما وجهان لعملة واحدة هى منهج الإسلام» (٤٩)، وذلك أن الإسلام ليس مجرد مذهب نظرى يفتقر للآليات التى تطبقه، وقد يفهم البعض من هذا إن الإسلام أقر الجهاد ليضمن به نشر الدين بالقوة، وهذا استنتاج غير صحيح، نعم لعب الجهاد دورًا مهمًا فى توطيد أركان الدولة الإسلامية، لكنه لم يكن فقط جهادًا بالسيف، ولا كان قتالاً لاستعباد الأمم وفرض سيطرة المسلمين عليها ونهب ثرواتها، فإذا كانت الدولة الإسلامية قد اتسعت فى قرن من الزمان لمسافة تمتد من تخوم الصين حتى سواحل المحيط الأطلسى واجتازت البحر المتوسط لتصل شبه الجزيرة الأيبيرية وجنوب أوروبا، فلم يكن الهدف وراء هذه التوسعات هو إجبار الناس على اعتناق الإسلام بالقوة وإلا لما وجد الآن فى العالم الإسلامى أحد غير المسلمين، كان جهاد المسلمين الأوائل يعنى استيعابهم لكل معانى الجهاد، مجاهدة النفس ومقاومة الشهوات وحب التسلط، وإقامة العدل والتعامل بالرحمة، وكان لهذا ثمراته، فقد ضرب هؤلاء المجاهدون المثل فى عظمة الإسلام، فاعتنقت الغالبية العظمى من سكان الأمصار المفتوحة الإسلام طوعًا دون إكراه، لما وجدوه فى الدين الحنيف من عدل ورحمة ومساواة وأمن، ولما وجدوه فى المجاهدين من تواضع وتقوى وبُعد عن الظلم والفحش، إذًا لم تكن القوة أو إ كراه الآخر عاملاً فى انتشار الإسلام «فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا فى أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التى لم يعرفوها من قبل، وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة»[٥٠].

وإذا كنا لا ننكر أن كثيرًا من الفتوحات الإسلامية تمت لضرورات سياسية فيجب أن ننتبه لأمرين:

الأول: إن الجهاد بشقه العسكرى لا يساوى الحرب المقدسة، فالقدسية صفة لا يقرها الإسلام إلا للحق تعالى، والقتال فى سبيل الله لا يعنى شن الحرب على أساس دينى، فإذا كان المسلمون فى حالة تحالف مع آخر غير مسلم ووقع ظلم على هذا الآخر وجب على المسلمين رد الظلم عنه رغم أنه غير مسلم، وهذا ما حدث فى فتح مكة، فقد كانت خزاعة حليفًا للمسلمين رغم أنها لم تكن مسلمة، وهب المسلمون لنجدتها والدفاع عنها حين غدرت بها قريش.

ثانيًا: إن الجهاد بمعناه العام أشمل وأوسع من الحرب فإذا كان الجهاد بمعنى القتال فرض على «المسلم الذكر العاقل البالغ الصحيح الذى يجد من المال ما يكفيه ويكفى أهله حتى يفرغ من الجهاد»[٥١]. فإنه بمعناه العام فرض على المسلم البالغ العاقل بل والمسلمة البالغة العاقلة كليهما يجب عليه تبليغ الرسالة إلى غير المسلمين، دون إكراه أو إجبار لهم على اعتناق الإسلام، وكان تبليغ الدعوة أحد الأسباب التى دعت المسلمين لخوض الحروب ضد المشركين، أو بمعنى أدق العجز عن تبليغ الدعوة فما كانت دولة الفرس أو الروم أو حتى مشركو مكة ليسمحوا للمسلمين بتبليغ الدعوة فى حرية «إن الدين الإسلامى رسالة أوجب الله نشرها وإذاعتها على الأمة الإسلامية، وكما أوجب الله نشرها وإذاعتها فى جانب العقيدة فقد أوجب نشرها وإذاعتها فى جانب الأخلاق»[٥٢]. أى أن الجهاد يعنى أيضًا التبليغ سواء بشكل فردى أو جماعى أو جماهيرى، إنه رسالة إعلامية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بالمعنى الحديث، وجد المسلمون صعوبات فى نشرها بين الناس وتبليغها إليهم فخاضوا حروبًا ليحصلوا على الحق فى توصيل هذه الرسالة، إنه وفقًا لمعطيات العصر الحديث لا يكون إلا ضد من يمنع المسلم من تبليغ الرسالة، هذا على المستوى الإعلامى، أما على المستوى السياسى فإن موقف الإسلام لا يختلف عما يقره القانون الدولى من حق الشعوب فى الدفاع عن نفسها و ردّ العدوان ومقاومة المحتل أو المستعمر بكل الوسائل التى تدفعه لرد الحقوق إلى أصحابها.

وإذا كان البعض يقصر معنى الجهاد فى القتال ضد المعتدين ومضطهدى العباد وفقًا لما وضعه الإسلام من أخلاقيات للقتال فإننا هنا يجب أن نؤكدعلى ما يلى:

١- إن الجهاد فى الإسلام أعم وأشمل من القتال، فأحاديث الرسول الكريم توضح أن هناك معان أخرى للجهاد، يقول ﷺ عن مقاومة أصحاب البدع (ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لايؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل).. رواه مسلم، معنى هذا أن الجهاد يعنى أيضًا مقاومة أصحاب البدع ومخربى العقيدة، مقاومتهم باليد أو اللسان أو القلب، وكل حسب قدرته أو حسب الحالة والوضع، والجهاد بهذا المعنى دعوة للحفاظ على نقاء الدين، وهى دعوة موجهة لكل المسلمين ليصبح المجتمع إيجابيًا فاعلاً لا سلبيًا ومفعولاً به.. ويقول الرسول الكريم ﷺ أيضًا فيما رواه الترمذى وأبو داود (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) والمعنى هنا واضح تمامًا، إنه مقاومة الحاكم الظالم ومقاومة التسلط السياسى وإباحة المعارضة السياسية التى تذكر الحاكم أيًا كان بأنه بشر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وتمنعه من تأليه نفسه وتسد عليه وعلى من حوله أبواب الفساد والإفساد.

إن تضييق معنى الجهاد وقصره على القتال خطأ «فسبيل الله الذى من أجله كان الجهاد بوسائله المختلفة قد بينه الله فى القرآن الكريم تفصيلاً، إن الله قد بين بالتفصيل ما يتضمنه إسلام الوجه لله، إن إسلام الوجه لله يتضمن التوحيد فى العقائد والعدل في المعاملات والرحمة فى الأخلاق ويتضمن النصفه من النفس فى كل الأحوال وما خالف ذلك فإنما هو المنكر»[٥٣] وإذا كان من يتحدثون عن الجهاد باعتباره القتال يقولون إن آية السيف قد نسخت العديد من الآيات الداعية للحوار مع الآخر ووده والإقساط إليه فيما مجمله مائة وعشرون آية، فإن آية السيف هذه غير محددة «وإذا كان المسلم يؤمن بأن القرآن يصدق بعضه بعضًا، فلا يجوز دعوى نسخ آية منه إلا بيقين، فكيف نتحدث عن آية نسخت مائة وعشرين آية وهى غير محددة؟. قال بعضهم: إنها آية ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾ (التوبة: ٣٦)، وهذه ليست إلا المعاملة بالمثل، قاتلوهم كافة كما يقاتلونكم كافة.. وقال آخرون: آية السيف هى قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ**﴾ (التوبة: ٥)، وهذه الآية نزلت فى مشركى العرب الذين نكثوا العهود وأخرجوا المؤمنين من ديارهم وبدءوا المسلمين بالقتال كما قال تعالى فى نفس السياق: ﴿ **أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ (التوبة: ١٣)، وقد أمهلوا أربعة أشهر يسيحون فى الأرض ثم بعد ذلك عليهم أن يحددوا موقفهم، قبل هذه الآية نقرأ ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ**﴾ (التوبة: ٤)، وبعدها نقرأ ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾ (التوبة: ٦)،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وعقبها نقرأ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٧)، وقال بعضهم: آية السيف هى قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩)، وهذه الآية فى قتال انعقدت أسبابه بوقوف هؤلاء ضد الدعوة وصدهم الدعاة أو قتلهم، أو تآمرهم على المسلمين ومعاونتهم لأعدائهم المحاربين لهم، وقد نزلت بعد غزوة تبوك التى وقعت مع دولة الروم البيزنطية»[٥٤].

٢- إنه حتى إذا كان للجهاد فى الإسلام معنى واحد هو القتال فى سبيل الله فقد وضع الإسلام شروطًا محددة لشن القتال - سبق توضيحها - بدونها لا يعتبر القتال جهادًا وإنما بغى وظلم وعدوان، وليس من أسباب القتال أن تقاتل الآخر؛ لأنه غير مسلم، فالإسلام أباح حرية العقيدة»، ولو كان القتال لمجرد الكفر لوجب أن نقتل الشيوخ والنساء والرهبان والحراثين والتجار، ومن فى حكمهم ممن لا يحارب ولا يقاتل ولكن هذا محظور، ولهذا نهتنا الأحاديث النبوية والوصايا الراشدية من أبى بكر وعمر عن قتلهم.

وجاء عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تعتدوا﴾ قال الاعتداء: «قتل الناس والصبيان»[٥٥] والإسلام دين وسطى ومنهاج منطقى يأمر بقتال من يقاتله ومسالمة من يسالمه ومن المتواتر المبالغ فيه أن المسيحية تدعو إلى السلام والصفح والتسامح والمحبة ما لا يدعو إليه الإسلام، وذلك لأن الإسلام أشهر سيفًا ولم تشهر المسيحية سيفًا، وأن الدعوة إليه تمت على مشافر السيف وهو ما يجافى سماحة المسيحية وتسامحها، والقياس بحدوده تلك قياس خاطئ فليس هناك ما يؤكد عزوف المسيحية عن امتشاق الحسام دفاعًا عن الدعوة لو قدرت عليه،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولكن المؤكد إنها حين قدرت امتشقت الحسام وأشهرته صارمًا عنيفًا واقترفت باسم الصليب من القسوة والتنكيل بالعزل والأبرياء ما لم يعرفه الإسلام فى تاريخه الطويل»[٥٦].

ولا يعيب أمة أن يكون لديها مفهوم يحافظ على قوتها ويحفظ كرامتها ما دام هذا المفهوم لا يغذى النزعات العدائية، وإلا فإن مفهوم الفروسية الذى انتشر فى أوروبا القرون الوسطى يصبح أيضًا مفهومًا عدائيًا يحرض على سفك الدماء وانتهاك الآخر، إن الغرب مازال ينظر برومانسية شديدة للفروسية وأخلاقياتها وجمالياتها فى حين أن الفروسية كانت سببًا مهمًا فى نهضة أوروبا العسكرية وتصدير هذه النهضة للخارج بالغزو والقتال بحق أو بدون وجه حق، كانت الفروسية «مثال جمالى يتخذ صورة مثال خلقى ويشكل الخيال البطولى والعاطفة الرومانسية أساسه ودعامته، على أن الفكر الوسيطى لم يكن يسمح بالأشكال المثالية للحياة النبيلة أن توجد مستقلة عن الدين، من أجل ذلك وجب أن تكون التقوى والفضيلة جوهر حياة الفارس، غير أن الفروسية ستقصر على الدوام دون بلوغ هذه الوظيفة الخلقية، ذلك أن مصدرها الأرضى يشدها إلى أسفل، إذ إن مصدر الفروسية إنما هو الكبرياء المتطلع إلى الجمال، كما أن الكبرياء المسبوك فى قالب شكلى يتولد عنه تصور أو مفهوم الشرف هو فى الواقع قطب الرحى للحياة النبيلة»[٥٧] ، أما الجهاد فهو مفهوم إلهى قرره الحق لرد العدوان وحماية الأمة والحفاظ على عزتها بما لا يعنى إذلال الآخر.

٣ - اعتبرت بعض الجماعات المتشددة ما تقوم به من أعمال عنف ضد المجتمع المسلم نوعًا من الجهاد، وشملت هذه الأعمال المسلمين وغير المسلمين من المواطنين، إضافةً للأجانب المتواجدين فى المجتمع الإسلامى أو العابرين به كالسائحين، كما شملت أنظمة الحكم ومن يمثلها من سياسيين أو رجال شرطة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أو جيش أو موظفين وحتى الكُتَّاب والصحفيون، بعض هذه الجماعات كان منطقها فى هذه الممارسات وذلك الفهم تكفيرها للجميع واعتبارها قتال الكافرين واجبًا، واستحلال حرمة ومال هؤلاء الكافرين، البعض الآخر من هذه الجماعات المتشددة يدخل ما تقوم به من أفعال فى إطار المعارضة السياسية أو بمعنى أدق التمرد السياسى على الحكومات، الذى يهدف لإحراج أنظمة الحكم أمام الرأى العام العالمى ولفت انتباه وسائل الإعلام العالمية لقضيتهم.

وعلى أى الأحوال فإن الجهاد فى الإسلام بأى معنى من معانيه لا يبيح قتل الإنسان سواء كان من أهل الذمة أو أجنبى مستأمن أو مسلم بالطبع.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

• مصادر الباب الأول

١ - رضوان السيد. الجماعة والمجتمع والدولة، سلطة الأيديولوجية فى المجال السياسى العربى والإسلامى. دار الكتاب العربى (بيروت) الطبعة الأولى ١٩٩٧ ص ٢٣٥.

٢ - نذير أكيسلمن. الإسلام وحقوق الإنسان، بعض الملاحظات على نقاش جدلى، مجلة السياسة الدولية العدد١٥١ يناير ٢٠٠٣ ص ٩٧.

٣- الإمام محمد عبده. الإسلام دين العلم والمدنية. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة) طبعة خاصة لمكتبة الأسرة، تحقيق ودراسة د. عاطف العراقى ١٩٩٨ ص ١٦٥.

٤ - المصدر السابق ص ١٩٧.

٥- الإمام محمد عبده. رسالة التوحيد. الهيئة العامة لقصور الثقافة (مصر) طبعة خاصة ١٩٩٧ ص ١٧.

٦- السيد ياسين. حوار الحضارات، الغرب الكونى والشرق المتفرد. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢ ص ٢٤.

٧- د. جمال حمدان. اليهود أنثروبولوجيا. الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨ ص ٩٨.

٨- د. محمد عمارة. الإسلام وحقوق الإنسان. ضرورات لا حقوق، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٨٩ المجلس الوطنى للثقافة والفنون و الآداب. الكويت مايو ١٩٨٥ ص ١٥.

٩ - د. محمد عمارة. الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية. دار الشروق. مصر. الطبعة الأولى ٢٠٠٣ ص ١١.

١٠ - د. نظمى لوقا. التقاء المسيحية والإسلام. مكتبة غريب (القاهرة) ١٩٩٧ ص ١٧٢.

١١- عباس محمود العقاد. الإنسان فى القرآن الكريم. الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة خاصة ١٩٩٦ ص ١٢.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

١٢- د. فاطمة مصطفى عامر. تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى. سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٧٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ جـ ١ ص ٣١٦.

١٣ - د. عبدالله آل الشيخ. لباب التفسير من ابن كثير. دار الهلال. مصر. الطبعة الأولى ١٩٩٤ جـ ١ ص ٦٤٧.

١٤- الجماعة والمجتمع والدولة. مصدر سابق ص ٢٣٦.

١٥- لباب التفسير من ابن كثير. مصدر سابق. جـ ١ ص ٧٥.

١٦- الشيخ عبدالعزيز جاويش. الإسلام دين الفطرة والحرية. دار الهلال. مصر. كتاب الهلال ١٩٨٣ ص ١٥٨.

١٧- شبلى العسيمى. عروبة الإسلام وعالميته.. سلسلة آفاق عربية. دار الشئون الثقافية العامة. وزارة الإعلام العراقية. الطبعة الرابعة ١٩٨٦ ص ١٤٦.

١٨- د. أحمد محمد الحوفى. سماحة الإسلام. الهيئة المصرية العامة للكتاب. طبعة مختصرة لمكتبة الأسرة ١٩٩٧ ص ٧١ - ٧٤ بتصرف.

١٩- م. ب. تشالز روث. الإمبراطورية الرومانية. ترجمة رمزى عبده جرجس. الهيئة المصرية العامة للكتاب جـ ١ ص ٦١.

٢٠- و.ج.دى بورج. تراث العالم القديم. ترجمة زكى دوس. الهيئة المصرية العامة للكتاب جـ١ ص ٢٧١.

٢١- د. إمام عبدالفتاح إمام. الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى. سلسلة عالم المعرفة العدد ١٨٣ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب الكويت. مارس ١٩٩٤ ص ٣٥.

٢٢ - السيد سابق. فقه السنة. دار الفتح للإعلام العربى. مصر. الطبعة الأولى ٢٠٠٠ المجلد الثالث ص ٤٩.

٢٣- فهمى هويدى. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. مصر. الطبعة الثالثة ١٩٩٩ ص ١٣٠- ١٣١.

٢٤- المصدر السابق ص ١٣٧- ١٣٨.

٢٥- أبو الأعلى المودودى. الحكومة الإسلامية. ترجمة أحمد إدريس. دار المختار. القاهرة ١٩٧٧ ص ١٠٠.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٢٦- مواطنون لا ذميون. مصدر سابق ص ١٣٩.

٢٧- د. محمد حسنين هيكل. حياة محمد. الهيئة المصرية العامة للكتاب. طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ١٩٩٦ ص ١٩١.

٢٨- د. بركات أحمد. محمد واليهود نظرة جديدة. ترجمة محمود على مراد. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ ص ٨٢.

٢٩- المصدر السابق ص ٩٣.

٣٠- المصدر السابق ص ٩٣.

٣١- مواطنون لا ذميون. مصدر سابق ص ٦٢.

٣٢- المصدر السابق ص ١١٤.

٣٣- المصدر السابق ص ٢٠- ١١٢ بتصرف.

٣٤- طارق البشرى وآخرون. الحوار القومى الدينى. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٩ ص ١٣٩.

٣٥- فقه السنة. مصدر سابق. المجلد الثالث ص ٤٨ - ٤٩.

٣٦- د. ناريمان عبدالكريم أحمد. معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية. الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٦٠.

٣٧- مواطنون لا ذميون. مصدر سابق ص ١٤٧.

٣٨- فيليب تايلور. قصف العقول. ترجمة سامى خشبة. سلسلة عالم المعرفة. العدد ٢٥٦ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب الكويت إبريل ٢٠٠٠ ص ٢٣.

٣٩- د. حسين فوزى النجار. الإسلام والسياسة. دار المعارف. مصر. الطبعة الثانية ١٩٨٥ ص ٢٣١.

٤٠- المصدر السابق ص ٢٤١.

٤١- فقه السنة. مصدر سابق ص ١٦.

٤٢- عباس محمود العقاد. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ ص ١٧٢.

٤٣- قصف العقول. مصدر سابق ص ١٠٢.

٤٤- المصدر السابق ص ١٠٤.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٤٥- لواء حسن صادق. الفرق الإسلامية بين الفكر والتطرف. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢ ص ٣٥٠.

٤٦- فقه السنة. مصدر سابق المجلد الثالث ص ٢١.

٤٧- د. عبدالحليم محمود. الجهاد فى الإسلام. دار المعارف. مصر ١٩٨٨ ص ٥- ٦.

٤٨- الإسلام والسياسة. مصدر سابق ص ٢٣٤.

٤٩- د. محمد عمارة. معالم المنهج الإسلامى. دار الرشاد. مصر. ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

٥٠- جوستاف لوبون. حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ ص ١٢٨.

٥١- فقه السنة. مصدر سابق المجلد الثالث ص ٢٣.

٥٢- د. عبدالحليم محمود. منهج الإصلاح الإسلامى فى المجتمع. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١ ص ١٣٧.

٥٣- المصدر السابق ص ١٣٧.

٥٤- د. يوسف القرضاوى. الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد. دار الشروق. مصر. الطبعة الأولى ٢٠٠٢ ص ٣٠٢- ٣٠٣.

٥٥- المصدر السابق ص ٢٩٩.

٥٦- الإسلام والسياسة. مصدر سابق ص ١٣١.

٥٧- يوهان هويزنجا. اضمحلال العصور الوسطى، دراسة لنماذج الحياة والفكر والفن بفرنسا والأراضى المنخفضة. ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ ص ٧١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الباب الثانى

بين النظرية والتطبيق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

• تمهـــيد

المُفْتَرى والمُفْتَرى عليه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لا توجد أمة لها سجل فى التاريخ صفحته بيضاء من غير سوء، ذلك أن التاريخ يكتبه البشر لا الملائكة، وإذا كان من حقنا أن ننظر لتاريخنا بفخر فمن حق التاريخ علينا ألا ننكر ما ارتكبنا فيه من أخطاء، وإذا كان من حق الآخر علينا أن نعتذر له عما ارتكبنا فى حقه من اضطهاد أو تمييز، فمن حقنا على الآخر أن يعترف لنا بما استفاد منا.. التاريخ ليس شيئًا مقدسًا وتقديسه أمر يرفضه الإسلام، فما أعرض كثير من الناس عن اتباع الحق إلا أنهم يقدسون التاريخ دون النظر إليه بموضوعية، قالوا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم لمقتدون، قالوا وجدنا آباءنا عليها عاكفين، قالوا كيف تتركون دين الآباء والأجداد وتتبعون دينًا جديدًا .... إلخ.

وإذا كان لكل أمة سجل فى التاريخ به الأبيض وبه الأسود، فإن أمة الإسلام هى صاحبة السجل الأكثر بياضًا الأقل سوادًا، ذلك أن الإسلام يضع الحدود فاصلة دقيقة بين الحق والباطل ، فى العقائد والعبادات ويرسم القواعد الأساسية للمعاملات، الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات، فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه، والمسلم الحق هو الذي يأمن لدينه وعرضه فلا يقترب من هذه الأمور.

نعم أخطأ بعض المسلمين ـ حكام ومحكومون ـ فى حق الآخر أحيانًا، كما أخطأوا فى حق الله وحق أنفسهم وإخوانهم فى الدين، لكن هؤلاء هم الاستثناء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لا القاعدة، الأقلية لا الأكثرية، من يقيم عليهم الإسلام الحجة، لا من تقام بهم الحجة على الإسلام، فالإسلام تقام عليه الحجة بما ورد فى القرآن الكريم والسُّنة النبوية الصحيحة، وليس من خلال أفعال بشر أو اجتهاد هذا العالِم أو ذاك.

ولن تكون موجة الافتراءات التى تشن على الإسلام حاليًا هى الأخيرة، كما لم تكن الأولى، فمنذ بدأ الرسول الكريم ﷺ الدعوة إلى الله بدأ سيل الافتراءات والأكاذيب ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ (النحل : ١٠٣)، قالوا إن محمدًا شاعر ومجنون، وكاهن ... إلخ ولن يتوقف قولهم ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ (آل عمران : ١٨٦).

لكل أمة أفضالها وأخطاؤها وللتاريخ أن يقول كلمته، فهل كانت أخطاء المسلمين ناتجة عن اتباعهم لتعاليم الإسلام أم ناتجة عن عدم اتباعهم لهذه التعاليم وسوء تفسير البعض للشريعة الإسلامية، وهل طالب الإسلام الناس بغير الحق والعدل، وهل حمَّلهم فوق طاقتهم فانحرف البعض عن الطريق المستقيم لثقل الحمل؟ ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ (البقرة : ٢٨٦)،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الفتوحات الإسلامية بين الجهاد والحروب المقدسة والضرورات السياسية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وضع الإسلام قواعد للحرب تصب جميعها فى خانة عدم الاعتداء أو الظلم أو الجور ، لكنها تنبع من الرغبة فى رد العدوان ونصرة المظلوم وقتال من يعادى الأمة ويتحين الفرص للانقضاض عليها، فهل كانت الفتوحات الإسلامية حروبًا دينية أو مبنية على أساس دينى، أم أنها جاءت لضرورات وحتميات سياسية؟ إذا كانت الإجابة تشير إلى الجانب العقائدى ودوره فى إشعال هذه الحروب فربما يعنى هذا أن الفتوحات لم تكن سوى حروب مقدسة، على الطريقة الصليبية، وهو ما لا يقره الإسلام ولا يرضى عنه المسلمون أو يعترفون به، أما إذا كانت الإجابة تشير إلى تأثير السياسة فى الفتوحات بشكل مطلق فسوف نجد أنفسنا أمام حالة من الغزو الذى استمر لما يزيد عن قرن من الزمان.

لكن المتتبع لتاريخ الفتوحات الإسلامية يستطيع أن يستنتج أن هذه الفتوحات قد مرت بعدة مراحل من حيث الدوافع، تغلب فى بعضها مفهوم الجهاد على الأهداف والدواعى السياسية، وتغلبت الأهداف السياسية على فكرة الجهاد فى مراحل أخرى، مع التأكيد على وجود اختلاف جوهرى بين مفهوم الجهاد ومفهوم الحرب المقدسة، فغاية الجهاد هى تبليغ الدعوة الإسلامية للآخر فى ظل ظروف صحية تظهر لهذا الآخر عظمة الإسلام وتزيل أى عائق أمام فهم الآخر للإسلام، حتى يصبح حرًا فى اعتقاده، إما يقتنع بهذا الدين أو يرفضه، أما الحرب المقدسة فهى الحرب التى تشن باسم الدين أو باسم الله بهدف القضاء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

على الآخر المخالف فى العقيدة وهى حرب يعتبر كل شىء فيها ضد الآخر مبررًا، بل ويمنح البركة والغفران؛ فقتل الآخر فى الحرب المقدسة والتنكيل به وإحراق مدنه أو تدميرها أمر مبرر بل ويستحق الإشادة، هذا المفهوم العنصرى لا نجد له مثيلاً أو شبيهًا فى الإسلام، كما أن الآخر ـ خاصة فى الغرب ـ لا يجد مثيلاً أو شبيهًا لديه لفكرة الجهاد، وتنبع المشكلة لدى هذا الآخر حين يحاول تقريب المفهومين ـ الجهاد والحرب المقدسة ـ ويكون تقريب المفهومين عملية استنباطية محاصرة بموروث تاريخى غير ودى، فيخلط كثير من المفكرين الغربيين بين المفهومين كما فعل فيلب تايلور حين تحدث عن الفتوحات الإسلامية بقوله: «وفى الشرق جاء التهديد الحربى الرئيسى من الإسلام الذى بعث به محمد، ومفهوم الجهاد ـ الحرب المقدسة ـ والذى انتشر تدريجيًا فى المناطق التى فتحها من قبل الإسكندر الأكبر». (١).

يروى عن الرسول (ﷺ) أنه قال لمعاذ بن جبل ومن معه حين بعثهم لفتح اليمن: لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم، فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً ثم أروهم ذلك وقولوا لهم : هل إلى خير من هذا سبيل؛ فلأن يهدى الله على يديك رجلاً واحدًا خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت .. ويروى رواح بن ربيعة أنه خرج مع رسول الله (ﷺ) فى غزوة غزاها فمر رسول الله وأصحابه على امرأة مقتولة فوقف عليها ثم قال : ما كانت هذه لتقاتل .. ثم نظر (ﷺ) فى وجوه أصحابه وقال لأحدهم: الحق بخالد ابن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفًا ـ أجيرًا ـ ولا امرأة «وغضب عليه الصلاة والسلام حين سمع بقتل بعض الأطفال فى غزوة فقال غاضبًا : ما بال قوم تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية أى لا تقتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية .. ونهى عن المثلة وإن لج فيها العدو فلم يمثل بأحد من قتلى المشركين لتمثيلهم بجثة حمزة بن عبد المطلب فى غزوة أحد وقال : إياكم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والمثلة[٢] مثل هذه الأخلاقيات تراه فى الشق الحربى أو العسكرى من فكرة الجهاد، لكنك بالطبع لا تراها فى الحروب المقدسة أو الحروب الدينية، فالحرب فى نظر الإسلام ليست عملية ممتعة وليس المقصود بها هو إفناء الآخر وإنما منعه من العدوان ومن الغرور بما فى يده من قوة ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة : ٢١٦).

ويوصى أبو بكر الصديق قواده قبل انطلاقهم إلى المعارك قائلاً: أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منه شيئًا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون قومًا قد محضوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فخفقوهم بالسيف خفقًا .. اندفعوا باسم الله.

ومما كتبه عمر بن الخطاب إلى سعيد بن أبى وقاص رضى الله عنهما ومن معه من الأجناد: أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصى منكم من عدوكم .. ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله ـ كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولاً .. ونحٍّ منازلهم ـ جند المسلمين ـ عن قرى أهل الصلح والذمة، فلايدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحدًا من أهلها شيئًا، فإن لهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فنولوهم خيرًا ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

ويصف (ول ديورانت) سلوك المسلمين الأوائل فى الفتوحات وصفًا ينصف إلى حد ما هؤلاء المجاهدين، حيث يقول «ولقد كانت جيوش العرب خيرًا من جيوش الفرس والروم نظامًا وأحسن قيادة ، يألفون المشاق وينالون جزاءهم من الفىء، لقد كان فى وسعهم أن يحاربوا وبطونهم خاوية ويعتمدون على النصر فى الحصول على طعام، ولكنهم لم يكونوا فى حروبهم همجًا متوحشين» (٣).

ذلك أن المسلمين الأوائل استوعبوا جيدًا معنى الجهاد وطبقوه فى حروبهم، فالمعنى الصريح للجهاد كما جاء فى الآيات «التى نزلت فى سرية عبد الله بن جحش، قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدون عن سبيل الله، وهذا هو القتال فى سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه، وبعبارة تتمشَّى مع أسلوب عصرنا الحاضر : الدفاع عن الرأى بالوسائل التى يقاتل بها أصحاب الرأى ، فإذا أراد أحد أن يفتن رجلاً عن رأيه بالدعاية والمنطق دون أن يحمله على ترك هذا الرأى بالقوة وبغير القوة من وسائل الرشوة والتعذيب لم يكن لأحد أن يدفع هذا الرجل إلا بدحض حجته وتفنيد منطقه، لكنه إذا حاول بالقوة المسلحة أن يصد صاحب رأى عن رأيه، وجب دفع القوة المسلحة بالقوة المسلحة متى استطاع الإنسان إليها سبيلاً» (٤) وقد كانت المرحلة الأولى من الفتوحات الإسلامية تطبيقا لمعانى الجهاد المختلفة تمامًا عن معنى ومغزى الحروب الدينية أو الحروب المقدسة، ذلك أن الدولة الإسلامية الشابة فى المدينة المنورة كانت محاطة بالأعداء ـ المشركين ـ من كل الجهات ، وهدد هؤلاء الكارهون للدين الجديد أمن هذه الدولة أكثر من مرة، كان أخطرها فى غزوة أحد والأحزاب، حين تحالفت قريش مع قبائل غطفان وبنى مرة، فزارة، أشجع، سليم ، بنى سعد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

، أسد ومع كل من لهم عند المسلمين ثأر حتى بلغ جيش الأحزاب أكثر من عشرة آلاف رجل تآمروا مع يهود المدينة للقضاء على محمد (ﷺ) والمسلمين والإسلام، لذلك لم يكن أمام الرسول ﷺ سوى رد العدوان وقتال مشركى العرب ويهود المدينة وما حولها ، ليس لأن هؤلاء وأولئك مخالفون فى العقيدة ولكن لأنهم سعوا للقضاء على الإسلام ودولته، ولنا أن نتساءل، ماذا لو أن قريشًا تركت محمدًا ودعوته هل كان سيضطر للهجرة إلى يثرب، وحتى وإن هاجر ماذا لو أن قريشًا سمحت لمن يريد من المسلمين الهجرة أن يهاجر دون أن تسلبه ماله أو تستولى على أملاكه أو تضيق على من بقى من أهله ، لقد أقر الحق تعالى مبدأ حرية العقيدة منذ أن كانت الدعوة الإسلامية فى مهدها (لكم دينكم ولى دين) لكنَّ قريشًا لم ترضَ بهذا المبدأ ، فقد رأى سادتها فى الإسلام تقويضًا لسلطانهم فأعلنوا الحرب .. ولو أن قريشًا تركت الرسول ﷺ ودعوته فبأية حجة كان سيقاتلهم، إن جهاد الرسول ﷺ ضد مشركى جزيرة العرب ومن سار على نهجهم من أهل الكتاب يأتى فى إطار محدد هو ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (البقرة : ١٩٠)، ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾ (التوبة : ٣٦)..

فى المرحلة الثانية من الفتوحات الإسلامية والتى يمكن أن نحددها بفترة حكم الراشدين، امتزج فكر الجهاد ـ بمعناه الصحيح ـ بأهداف سياسية واستراتيجية لا نقول إن الخلفاء الراشدين سعوا إليها لكنهم وجدوا أنفسهم مجبرين على التعامل معها «فقد كانت الفتوحات فى هذه المرحلة لا تحكمها الرغبة فى نشر العقيدة ولا حمل الناس عليها كرهًا وإنما أدى إليها واقع تاريخى، وأدت إليها أسباب لم يكن من بينها حمل الناس كرهًا على اعتناق الإسلام، ولعلها أقرب إلى دواعى السياسة منها إلى الدواعى الدينية» (٥) فلم يكن صدام المسلمين بدولتى الفرس والروم بمبادرة من المسلمين وإنما تم بعد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تعمد حلفاء الروم إعاقة الدعوة الإسلامية وقتل الدعاة الذين أرسلهم الرسول (ﷺ) لقبائل الشام العربية، بل إن الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية تعتبر امتدادًا لحروب الردة «وربما كانت هذه الفتنة الداخلية من العوامل التى أدت إلى فتح العرب غربى آسيا، ويلوح أن فكرة هذه المغامرة وهذا التوسع لم تكن تخطر ببال أحد من زعماء المسلمين حين تولى أبو بكر الخلافة، وحدث أن بعض القبائل العربية الضاربة فى بلاد الشام رفضت المسيحية والخضوع للدولة البيزنطية، وصدت جيوش الإمبراطورية ، وأرسلت تطلب النجدة من المسلمين، فأرسل إليهم أبو بكر المدد»[٦] هذا على الجبهة الرومية ، أما على الجبهة الفارسية فالوضع لا يختلف كثيرًا ، فقد كان اشتباك المسلمين مع جيوش الفرس «استطرادًا لحروب الردة فى أطراف البحرين ، فكانت القبائل التى تدين لسلطان فارس توالى الإغارة على أرض المسلمين فيدفعونها ويقتصون منها ويتعقبونها فى بلادها» [٧].

أما حروب الردة فيمكن اعتبارها نوعًا من التمرد على الخليفة والعاصمة المركزية ـ المدينة المنورة ـ فالقسم الأكبر من المرتدين كان تمرده لأسباب سياسية واقتصادية، كان هؤلاء يرون ، عدم أحقية قريش وأبى بكر والمدينة المنورة فيما وصلوا إليه من مكانة بين العرب، وفى أخذ الزكاة ، وربما كانوا ينظرون للزكاة وكأنها جزية تدلل على خضوعهم لقريش ولعاصمة الخلافة «فمن المعروف أن كثيرًا من هذه القبائل لم تعترف بأبى بكر خليفة للنبى فى القيادة لأسباب ودوافع عديدة فى مقدمتها التمسك بالعصبية وما يرتبط بها من نزعة التعلق بالحرية والاستقلال، وقد طرد المرتدون عمال الصدقات للتخلص من الزكاة التى اعتبروها نوعًا من الإتاوة التى تحد من استقلالية القبيلة، كما دعمت بعض القبائل عددًا من أدعياء النبوة بدافع من العصبية القبلية، ولمنافسة قريش فى الرئاسة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولم تكن حركة الردة فى جوهرها حركة دينية بقدر ما كانت فى الواقع حركة سياسية وضحت فيها العصبية القبلية» [٨] وكانت نظرة أبى بكر للوضع نظرة سياسية فقد اختلف مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى رأى عدم قتال مانعى الزكاة باعتبارهم مسلمين لا ينكرون الزكاة وإنما ينكرون إعطاءها للعاصمة، لكن أبا بكر كان يرى فى هذا الموقف من مانعى الزكاة تهديدًا لكيان الدولة، بل وربما للإسلام أيضًا، وهناك من يرى أن أبا بكر كان «مضطرًا إلى مقاومة الطامعين فى الخلافة وإلى محاربة القبائل التى امتنعت عن أداء ما فرض القرآن من الزكاة، ولم يلبث أبو بكر أن رأى أن أحسن وسيلة لمعالجة انقسام العرب هو أن يوجه العرب إلى البلاد الأخرى كيما يمارسون عاداتهم فى الحرب والقتال ، وسار الخلفاء الذين أتوا بعده على هذه السياسة الرشيدة التى انتشر بها الإسلام» [٩].

وقد سعى أبو بكر وفقًا لهذا كسياسى وقائد إلى جمع المسلمين على هدف يوحد الدولة بدلاً من الإبقاء على الحال على ما هو عليه، وذلك لعلمه بطبيعة القبائل العربية المحبة للقتال والتى لم يكن الإسلام بعد قد استطاع أن ينزع من صدور رجالها النزوع للعدوان، سعى الصديق لاستثمار مثل هذه النزعات وتوظيفها، ولكن بالشكل الصحيح الذى يقره الإسلام، أيضًا كان الوضع الاقتصادى الصعب لكثير من القبائل العربية حيث الفقر والجفاف من الأشياء التى وضعت فى الحسبان، وكأن الخليفة الأول وجد نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما : إما أن يستفيد من الكثرة العددية للعرب المتمرسين على القتال الذين يرون فيه فخرًا ما بعده فخر، والذين تعيش غالبيتهم ظروفًا اقتصادية صعبة ويمتلكون بذور التمرد، ليوسع بهم رقعة الدولة الوليدة ويبلغ بهم الدعوة الإسلامية ويؤمن التخوم المتحفزة، أما الخيار الثانى فهو الحفاظ على رقعة الدولة الإسلامية دون السعى لزيادتها وهو ما كان يعنى استمراره كقائد للدولة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فى مواجهة أزمات سياسية، واقتصادية وعسكرية مستمرة، وفى هذه الحالة قد يتطور الأمر لغزو خارجى يقوض أركان الدولة الإسلامية الوليدة، وهو أمر لا يمكن استبعاده، فمن المؤكد أن صدام المسلمين بالفرس والروم كان أمرًا حتميًا، فالحلفاء العرب لكلتا الدولتين لم يكونوا راضين عن تلك المكانة التى نالها محمد ﷺ وهو مجرد رجل بدوى فى نظرهم، ولطالما استعلى الغساسنة والمناذرة فى الشمال الغربى والشمال الشرقى على أبناء جلدتهم من العرب من سكان وسط وجنوب الجزيرة العربية، وقد كانت دولة الروم «ترسل البعوث إلى تخوم الجزيرة وتهيج القبائل لحرب المسلمين منذ عهد النبى ﷺ وكان المسلمون يعيشون فى فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها، يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبى حيث يقول : وكنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابى شديدًا وقال : أثم هو!! ففزعت فخرجت إليه، وقال حدث أمر عظيم.. قلت : ماهو؟ أجاءت غسان؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول .. طلق النبى ﷺ نساءه!!» (١٠).

موقف الصديق المؤمن بالجهاد فى سبيل الله والمدعم بضرورات سياسية، لم يكن استغلالاً للدين لأهداف سياسية، بل كان تسخيرًا للمعطيات المتاحة فى سبيل خدمة الدعوة والدولة الإسلامية الوليدة ولم تكن فتوحاته حروبًا دينية، فهو لم يشن الحرب ضد الفرس أو الروم، لأن هؤلاء مسيحيون وأولئك مجوس أو زرادشت، وإنما لصد عدوان محتمل وقطع دعم يتلقاه المتمردون على الدولة من الفرس والروم وبعد أن انتهى الصديق من تأمين الإسلام فى عقر داره بدأ مرحلة تأمين الإسلام فى حدوده وتخومه ودفع الخطر من هجوم الأعداء عليه ، إنه رضي الله عنه «أخذ فى تسيير البعوث إلى حدود العراق والشام وأنه رضي الله عنه قد التزم فى سياسته الخارجية خطة النبى ﷺ فى تلك السياسة، وهى الخطة التى ظهرت فى بعثة تبوك ثم فى بعثة أسامة بن زيد ، وأصدق ما يقال فيها انها خطة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لا هجوم فيها ولا تهجم ولا باعث لها إلا دفع الأذى وحماية الطريق، والتمهيد لنشر الدين بالحسنى والبرهان إن تيسر نشره بالحسنى والبرهان، فإن قامت العقبة من قوة طاغية تحول دون ذلك فعلى القوة الطاغية حساب تلك العقبة حيثما حان أوان الحساب» (١١).

لقد كان الهدف السياسى للفتوحات الإسلامية فى عصرها الأول هو تأمين «حرية الدعوة، ثم كان النصر يدفع المسلمين إلى نصر آخر، وما كان ليقف فى سبيلها شىء أو يعوقها عائق، حتى وإن كان خشية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من مغبة التوسع حتى ود لو كان بينه وبين الفرس سد: لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم» (١٢) على حد قوله .

وفى المرحلة الثالثة ـ مرحلة ما بعد الراشدين ـ غلبة النظرة السياسية على فكرة الجهاد فى دفع الفتوحات ، أو إن شئنا الدقة لقلنا إن القيادة الإسلامية ـ الخليفة ـ كانت له أهداف سياسية واضحة من وراء الفتوحات.

وهذا لا ينفى أن هناك من الخلفاء من فكر فى الفتوحات باعتبارها سبيلاً لتبليغ الدعوة، أما الجنود المجاهدون فبعد الفتنة الكبرى وتغلب الأمويين «لم يعد الناس يرون ما يدفعهم إلى الحرب طوعًا، فجعلوا يتقاعدون فاضطر الخلفاء إلى التجنيد بالإلزام، ولعل أول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف على عهد عبدالملك بن مروان» (١٣).

إن تحول الجيوش الفاتحة من جيوش مجاهدين متطوعين إلى جيوش نظامية يمكن اعتباره دليلاً على غلبة الدوافع السياسية على فكرة الجهاد، وقد وجد العديد من الخلفاء الأمويين فى الفتوحات غطاء شرعيًا لخلافتهم، ربما ينسى الناس اغتصابهم للخلافة، فلم يتفق كل المسلمين على أحقية بنى أمية فى الخلافة، وكان الشيعة والخوارج من أكثر المجاهرين بهذا، كانت الفتوحات تعنى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

للخلفاء الأمويين إظهارهم بمظهر المدافع عن الإسلام، أو الذى يمد رقعة الدولة الإسلامية ويقيم سلطانها على الأرض، ويهيئ الأجواء فى الأمصار المفتوحة لتبليغ الدعوة، ويعنى أيضًا قوة سلطانهم بما يضاف لخزائنهم من خراج الأمصار المفتوحة ، كما يضيف رصيدًا استراتيجيًا من الجنود ـ ممن اعتنقوا الإسلام من غير العرب ـ إضافة إلى أن الفتوحات وما تبعها من هجرة لبعض القبائل العربية إلى أراضى الدولة الإسلامية الجديدة كان يعنى لهؤلاء الخلفاء تأمين الجبهة الداخلية ضد الفتن والنزاعات القبلية، والتى كانت سببًا فى سقوط الدولة الأموية حين عجزت عن استيعاب الخلافات القبلية، بعد أن ظن بعض الخلفاء الأمويين أن إثارة النزعات القبلية لمصلحة الدولة.

وخلال المراحل الثلاث الأولى من تاريخ الفتوحات الإسلامية لم يمارس المسلمون ضغطًا على الآخر لاعتناق الإسلام بل إن سماحة الفاتحين كانت سببًا فى انتشار الإسلام، وهو ما كان محفزًا لمزيد من الفتوحات، حتى أن البطريرك «يوساب الثالث» وهو من اليعقوبيين السريانيين أرسل إلى زميل له ليبدى دهشته من اعتناق المسيحيين للإسلام رغم عدم إجبار المسلمين لهم على ذلك ، تساءل البطريرك «أين أبناؤك أيها الأب؟ أين هذا الشعب العظيم شعب مرو؟ لم تصبهم كارثة ولم يستسلموا لسيف، ولم يعذبوا بنار، وإنما تأثروا بمتاع الدنيا ، فارتدوا عن دينهم ، ورموا أنفسهم فى مهاوى الهلاك والكفر ـ يقصد الإسلام ـ كالمجانين ، واحزناه على الآلاف الذين كانوا يحملون اسم المسيحية، ولم يستشهد منهم أحد، ولم يضحِّ واحد منهم لدينه ، أين بيع كرمان وفارس؟ لم يقض عليها الشيطان أو سلطان، أو ملك أو خليفة ولكن قضى عليها ساحر ـ يقصد الرسول (ﷺ) ـ هز رأسه فقط فسقطت كنائس الفرس كلها على الأرض .. أما العرب الذين آتاهم الله ملك الدنيا كما تعلم ، فلم يطعنوا فى ديننا ، ولم يعتدوا على معابدنا ، بل العكس كانوا فى صف ديننا، وفضلوه على غيره، وأكرموا رهباننا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقساوستنا، واحترموا أولياءنا ، وأحسنوا الهبات إلى كنائسنا فلماذا إذًا هجر أهل مرو نصرانيتهم زلفى لهؤلاء العرب، وهم يعلمون ويقولون إن العرب لم يطلبوا منهم تغيير دينهم، بل أقروهم عليه كاملاً، ولم يطلبوا منهم إلا ضريبة يسيرة يؤدونها عن أنفسهم، ولكنهم اشتروا خلود أرواحهم فى دين المسيح بمتاع قليل» (١٤).

لم تعنى الفتوحات إذًا إجبار الآخر على اعتناق الإسلام، ولم تستهدف استباحة هذا الآخر أو تدميره، إنها تطبيق لشكل من أشكال الجهاد يتنافى تمامًا وفكرة الحرب المقدسة.

ورغم أن المرحلة الرابعة من الفتوحات الإسلامية تمت فيها الحروب لأسباب سياسية بحتة إلا أن هذه الحروب لم تكن حروبًا مقدسة أيضًا، ويمكن التأريخ لهذه المرحلة بنهاية العصر العباسى الأول، حين وصلت الخلافة الإسلامية لمرحلة من الضعف تمكن فيها الولاة من الاستقلال كل بولايته، وسعى بعضهم لتوسيع ولايته على حساب الولايات الإسلامية الأخرى، وخلال هذه المرحلة التى تمتد حتى القرن الخامس عشر، تمدد العالم الإسلامى فى عدة اتجاهات وانكمش فى منطقة واحدة هى جنوب غرب أوروبا (إسبانيا والبرتغال) بعد نجاح ملوك وأمراء قشتالة وأراجون فى القضاء على الدويلات الإسلامية فى الأندلس ثم طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية، وفى الوقت نفسه تقريبًا كان العثمانيون يواصلون انتصاراتهم العسكرية فى البلقان وشرق أوروبا حتى وقفوا على أبواب ڤيينا، وإذا كان الدافع السياسى هو السمة البارزة فى التوسعات العثمانية فى أوروبا فإن هذه السمة تزداد بروزًا فى توسعات آل عثمان فى العالم الإسلامى وهى توسعات يصعب أن نطلق عليها فتوحات، وإذا كان يحسب للعثمانيين تسامحهم الدينى مع مسيحى أوروبا، فيحسب عليهم عنفهم فى الخلاف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

السياسى، ويذهب البعض إلى اعتبار الأسرة العثمانية «أسرة قل أن يوجد لها فى التاريخ مثيل فى هذا المزيج من القوة الحربية والمهارة والمقدرة الإدارية والقسوة والوحشية والإخلاص الرفيع للآداب والعلوم والفنون.. وكان مراد الأول أقل أفراد هذه الأسرة جاذبية ولما كان أميًا فإنه كان يبصم بأصابعه المغموسة في المداد على الوثائق، على غرار القتلة المغمورين، ولما قاد ابنه صاوندجى ثورة إجرامية فاشلة ضده، فقأ مراد عينيه وقطع رأسه، وأرغم آباء الثوار على قطع رءوس أبنائهم، ودرب مراد جيشًا لا يكاد يقهر، وفتح معظم أراضى البلقان، ويسر خضوعهم له بأن أقام لهم حكومة أقدر من تلك التى عرفوها على عهد السيطرة المسيحية» (١٥) وسواء وصفت التوسعات العثمانية فى أوروبا بالفتوحات أو بالحروب أو حتى بالاستعمار فيجب ألا نتجاهل حقيقتين :

الأولى : أن هذه التوسعات لم تستهدف إجبار الآخر على اعتناق الإسلام، فمثلما حدث فى «الفتوحات العربية الباكرة كانت سياستهم ـ أى العثمانيين ـ المرنة تجاه المسيحيين الأرثوذكس وغيرهم من الأقليات الدينية محل ترحيب من الجماهير الخاضعة غالبًا، هذه السياسة التى قامت على أساس عش ودع الآخرين يعيشون، كانت تتناقض تمامًا مع التطرف المتعصب فى الدول المسيحية فى ذلك الوقت، وقد اعتاد الفلاحون البلقانيون زمن السلطان محمد القول: إن عمامة التركى أفضل من إكليل البابا» (١٦).

الحقيقة الثانية : أن التوسعات العثمانية فى أوروبا أوجدت حالة من الهلع فى العالم المسيحى الغربى، قل أن نجد لها مثيلاً فى أى مكان من الحروب التى خاضها المسلمون ضد هذا العالم، وذلك أن هذه التوسعات كانت تمثل تهديدًا مباشرًا لأوروبا المسيحية لقلب أوروبا، هذا الرعب أفرز تعبئة عسكرية ضد الأتراك ردتهم عن فيينا، كما أفرز نوعًا من الهجاء ضد الأتراك المسلمين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والإسلام.

ولم يلحظ أى من الفتوحات أو التوسعات الإسلامية بالنقد والتحليل الذى حظيت به التوسعات العثمانية، فإذا كان هناك من يصفها بأنها مجرد حروب توسعية غير مقدسة وغير مفرطة فى الوحشية فإن هناك من يراها من منظور آخر هو أن الأتراك جاءوا «فى مسوح الدين الإسلامى وتحت قناعه، وكان هذا فى عصر الدين لا القومية، وفى وهج ذكريات الصليبيات، مما سهل عليهم الفتح بلا ريب، بلى لقد رأينا أن الجزائر هى التى استنجدت بالأتراك واستدعتهم لحمايتها، ولكن هذا لا ينفى الحقيقة المقررة من أن الوجود التركى هنا يعد نوعًا خاصًا ـ ومحيرًا ربما ـ من الاستعمار هو الاستعمار الدينى، ولولا القناع الدينى لعد مماثلاً للغزو المغولى الوثنى الذى سبقه، ولو وجه على هذا الأساس بكل تأكيد، وكل مظاهر الاستعمار الاستغلالى الابتزازى لا تنقص العثمانية، فقد كانت تركيا هى المتروبول وبقية الآيالات والولايات مستعمرات تابعة تعتصر كل مواردها وخيراتها بلا مواربة لتحتشد حشدًا فى المتروبول»»[١٧].

ولعل السمعة السيئة التى نالتها التوسعات العثمانية تعود إلى نظام التجنيد الذى بدأ فى عهد مراد الأول حين عمد إلى تكوين قوة عسكرية جديدة عرفت بالإنكشارية وهى قوة تتألف من الرقيق الشباب الذين بدءوا يتعلمون اللغتين التركية والعربية، كما أخذوا بممارسة التقاليد والأعراف العثمانية، فضلاً عن تأديتهم الشعائر الإسلامية، ويدينون بولاء راسخ للسلطان الذى غدا رمزًا مقدسًا لهم .. ثم تطور نظام التجنيد العثمانى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر بتطبيق قانون جديد دعوه باسم الدوشرمه Devshirme وخصوصًا فى عهد السلطان مراد الثانى ١٤٢١ - ١٤٥١م وكانت تطبيقات هذا القانون تقوم أساسًا على فصل الأطفال المسيحيين عن آبائهم وأمهاتهم واستئصالهم من أصولهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وجذورهم ليجلبوا ويربوا تربية عثمانية إسلامية ، ثم تصنيفهم إما للانخراط فى فرق الإنكشارية أو للعمل فى الخدمات الإدارية للدولة وأجهزتها»[١٨].

فى نفس المرحلة ـ الرابعة ـ تمدد العالم الإسلامى جنوبًا داخل الصحراء الأفريقية الكبرى على يد الموحدين والمرابطين، وبشكل عام فقد «كان الدمار الناتج عن الفتوح قليلاً فقد تم القضاء على الخصوم الذين يمثلون الإمبراطورية ونزاعاتها المذهبية الدموية، ولم يشمل الجماهير التى خضعت للحكم الجديد، وقد تسامح المسلمون مع المسيحية ولكنهم قوضوا بنيانها، إذ إن الحياة المسيحية والطقوس والأوقاف والسياسة واللاهوت صارت كلها شأنًا خاصًا ولم تعد شأنًا عامًا، ومن دواعى السخرية الحادة أن نزل الإسلام بمكانة المسيحيين إلى تلك المكانة التى وضع المسيحيون اليهود فيها من قبل، مع اختلاف واحد، كان الحط من مكانة المسيحيين مجرد تنزيل قانونى؛ إذ لم يكن مصحوبًا بالاضطهاد المنظم أو إراقة الدماء، وعمومًا لم يكن مقرونًا بالسلوك المزعج وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن دائمًا وفى كل مكان» [١٩] لكننا هنا يجب أن نفرق بين أمرين أو مرحلتين، بين الفتوحات كفعل عسكرى له أهداف محددة يأتى على رأسها تهيئة الأجواء للدعوة الإسلامية، وبين الحكم العربى والإسلامى للأقطار التى تم فتحها والذى مر بأطوار عدة من حكم الراشدين شبه الجمهورى إلى الحكم الملكى القائم على سلطان القوة فى العصر الأموى، إلى الحكم القائم على نظرية الحق الإلهى فى العصر العباسى والفاطمى... إلخ والذى تغيرت خلاله مفاهيم المواطنة وعلاقة القيادة بالجماهير وعلاقة المسلمين بالآخر وفقًا للضغوط الخارجية ، أضف لذلك أن مكانة المواطن القانونية فى كل مكان لابد وأن تهبط فى حالة إعفائه لنفسه أو إعفاء السلطة الحاكمة له من الدفاع عن نفسه وأرضه (الجندية)، ورغم تعرض غير المسلمين داخل الدولة الإسلامية لأعمال اضطهاد وتمييز فى بعض الأحيان وهى قليلة ومن بعض الحكام ممن عم ظلمهم المسلمين وغير

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المسلمين إلا أننا لا نستطيع أن نقول إن الفتوحات أنتجت حكمًا استعماريًا فقد «جادل كثير من الكُتَّاب الغربيين ـ فى لجاج مفهوم ـ بأن هذه الدولة ـ العربية الإسلامية ـ كانت إمبراطورية استعمارية لم تخرج عن أن تكون غزوًا وانصياعًا وتبعية أجنبية، والحقيقة أن الدولة العربية كانت إمبراطورية تحريرية بكل معنى الكلمة كما قد نقول، فهى التى حررت كل المناطق من ربقة الاستعمار الرومانى أو الفارسى المتداعى واضطهاده الوثنى وابتزازه المادى، وبعدها لم تعرف الدولة الجديدة عنصرية أو حاجزًا لونيًا، بل كانت وحدة مفتوحة من الاختلاط والتزاوج الحر، وما عرفت قط شعوبية أو حاجزًا حضاريًا حيث كانت وسطًا حضاريًا متجانسًا مشاعًا للجميع، لا ولم تخلق نواة متروبولية سائدة تتميز عن سائر المقاطعات والأقاليم فى شىء» (٢٠).

وقد يثير طول فترة الفتوحات الإسلامية بعض التساؤلات عن دموية المسلمين أو حبهم للقتال وإصرارهم عليه رغم أن الإسلام يدعو للسلام ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ (الأنفال : ٦١)، وهنا لابد أن نوضح النقاط التالية :

١- أن معارك المسلمين مع دولة الروم فى الشام ومصر وشمال أفريقيا كانت معارك بين دولة شابة وإمبراطورية استعمارية فرضت هيمنتها ونفوذها على الأقاليم المستعمرة بالقوة وأن جيوش المسلمين التى خاضت هذه الحروب نادرًا ما اشتبكت مع أبناء هذه الأمصار المستعمرة، وإذا كان فتح شمال أفريقيا قد تم عدة مرات خاض فيها المسلمون حروبًا مع أبناء الشمال الأفريقى من البربر، فإن هذا الفريق الذى خاض الحرب ضد المسلمين كان من أذناب الرومان الذين سعوا لعودة الاحتلال الرومانى مرة أخرى، أو الذين شجعهم خلع المسلمين للرومان على محاولة خلع العرب، وعلى النقيض من هذا نجد أهل الشام ومصر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يقدمون الدعم للمسلمين، فقد كان أبناء مصر والشام «مستعدين لتلبية نداء أى فاتح بعد بإطعامهم» (٢١).

٢- كان العداء بين العرب المسلمين والفرس مستحكمًا بسبب رد كسرى على كتاب الرسول ﷺ الذى يدعوه فيه للإسلام، فعندما «ألقى كتاب محمد إلى كسرى ورأى فيه اسم محمد قبل اسمه ووجد وهو ملك الملوك، أن هذا يتضمن أفضلية محمد عليه وفق رأى الشرقيين ـ مزق الكتاب غاضبًا قبل أن يقرأه وداسه تحت قدميه وقال : يكاتبنى بهذا وهو عبدى، وأن النبى لما بلغه ذلك قال : مزق الله ملكه كما مزق كتابى... وقد قبلت دعوة النبى فمزق خلفاؤه ملك كسرى كل ممزق» (٢٢) ويذهب أغلب المؤرخين إلى أن كسرى لم يكتف بتمزيق كتاب الرسول ﷺ ووصفه بالعبد له ، بل كتب إلى «بازان» عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذى يدعى أنه نبى بالحجاز، هذه الجملة أو هذا الأمر الملكى إن دل على شىء آخر غير غرور واستعلاء كسرى فإنما يدل على أن الصلح بين المسلمين البسطاء والفرس الذين كانوا يرون العرب عبيدًا لهم، كان أمرًا مستحيلاً.

٣- لم يذكر التاريخ أن المسلمين قد وقَّعوا معاهدة سلام شامل مع الفرس أو الروم تتضمن عدم الاعتداء أو السماح للمسلمين بتبليغ الدعوة فى حرية، وما وقعه بعض القادة المسلمين من معاهدات كان من أبناء الأمصار أو سكان المدن، أو مع قيادات رومانية أو فارسية، وكانت المعاهدات مع هذه الفئة الأخيرة معاهدات جلاء لا سلام شامل، معنى هذا أن المسلمين كانوا فى حرب أو حالة حرب أو تحفز دائم مع الفرس ـ إلى سقوط دولتهم ـ ومع الروم ، وهو ما كان مبررًا لمواصلة الفتوحات ، «وقد أدرك زعماء الإسلام بعد فتح الشام ومصر أن ليس فى مقدورهم أن يدافعوا عن سواحل بلادهم من غير أسطول، وسرعان ما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت العمائر البيزنطية (٦٥٢ ، ٦٥٥م) ثم احتلوا قورسقه فى عام ٨٠٩ وسردينة فى عام ٨١٠ وإقريطش (كريت) فى ٨٢٣ ، ومالطة فى ٨٧٠» [٢٣] وذلك أن الروم ظلوا يمثلون تهديدًا حقيقيًا لسواحل الدولة الإسلامية، وكم مرة غزت فيها أساطيلهم مدنًا ساحلية فى الدولة الإسلامية، فخربتها أو نهبتها وأسرت كثيرًا من رعايا الدولة الإسلامية» وعندما كان المسلمون يعانون الحرب الأهلية بعد مقتل عثمان كانت الدولة البيزنطية تمر بمرحلة استقرار ونهوض فى ظل الإمبراطور قسطنطين الرابع ٦٦٨-٦٨٥م الذى أنزل هزيمة بالمسلمين بالبحر عام ٦٧٨ ، تبعها صلح دفع بمقتضاه معاوية للبيزنطيين ضريبة سنوية... وتحت ضغط البيزنطيين ترك المرابطون المسلمون مرعش وملطية وضاعت رودس وقبرص ومن ناحية الجزيرة الفراتية ضاعت أرمينيا» [٢٤].

٤- إن تمدد الدولة الإسلامية الفتية على مدى أكثر من قرن كان فى بعض حالاته استغلال لظرف سياسى مناسب أتاح للمسلمين فتح هذا القطر أو ذلك، دون أن يكون فى نيتهم بالضرورة ضم هذا القطر للدولة الإسلامية، فقد كانت الخلافات الداخلية فى دولة القوط الغربيين (الأندلس) والصراع على السلطة سببًا فى هذا الفتح، حين استنجد بعض المتصارعين على السلطة من القوط بموسى بن نصير الوالى الأموى على شمال إفريقيا، تذكر بعض الروايات أن الأوامر التى أصدرها موسى بن نصير لقائد جنده طارق بن زياد كانت تقضى بالتدخل المحدود لنصرة فريق من القوط على فريق آخر، لكن طارق بن زياد تجاوز هذه الأوامر «وحاصر إشبيلية ومريدة ، ولام ـ موسى ـ طارقًا لأنه تعدى حدود الأوامر الصادرة له، وضربه بالسوط، وزجه فى السجن، ولكن الخليفة الوليد استدعى موسى وأطلق سراح طارق فواصل هذا القائد فتوحاته» [٢٥] هذا الموقف الذى تم فيه استغلال ظرف سياسى لمد رقعة الدولة الإسلامية، إن جاز

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

للتاريخ إدانته واعتباره غزوًا أدى إلى احتلال، فبنفس المنطق لابد وأن ننظر لكل توسعات الدولة الرومانية، خاصة ضمها لمصر ، فقد تدخل الرومان فى شئون مصر سياسيًا ثم عسكريًا بهدف معلن هو إنهاء الخصومة بين كليوباترا السابعة وشقيقها بطليموس الرابع، لكن سير الأحداث كان يؤكد أن «قيصر قد اغتنم الفرصة لكى يفرض حمايته على مصر بالرغم من أنه فى حديثه نفسه قد وعد الشعب فى الإسكندرية أن يرجع لهم قبرص» [٢٦] والتى كانت تابعة للتاج المصرى واحتلها الرومان، لقد أدى التدخل الرومانى فى مصر فى النهاية إلى أن تصبح مصر ولاية رومانية» رغم أنها لم تشكل تهديدًا للإمبراطورية الرومانية بل كانت دولة صديقة فقد كانت النية مبيتة لهذا» منذ عام ٦٤ ق.م عندما اقترح كراسوس ضم مصر» [٢٧].

٥- إذا كانت لغة القوة هى اللغة التى بنيت على أساسها الممالك والإمبراطوريات فى العصور القديمة والوسطى ـ وحتى الآن رغم وجود مجتمع دولى ...إلخ ـ فيحسب للمسلمين أنهم لم يمارسوا القهر على الآخر لاعتناق الإسلام، وأنهم الأقل دموية ووحشية على مدى التاريخ، وأن توسعاتهم خاصة فى مراحلها الأولى قدمت معنى جديدًا للتوسعات العسكرية، فسيادتهم السياسية والعسكرية على الأمصار التى فتحوها لم تعنِ استعباد أبناء هذه الأمصار أو انتزاع ممتلكاتهم، كان الفاتحون المسلمون أكثر رحمة من غيرهم بالمغلوبين» وقلما ارتكبوا فى تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس فى عام ١٠٩٩ ، ولقد ظل القانون المسيحى يستخدم التحكيم الإلهى بالقتال أو الماء أو النار فى الوقت الذى كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية فينفذها قضاة مستنيرون» [٢٨].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

دار السلام ودار الحرب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

دار السلام ودار الحرب، مصطلحان أطلقهما فقهاء المسلمين للتفريق بين مجتمعين مختلفين يتوافر لأحدهما الأمان فيعيش المرء بين جنباته مطمئنًا على نفسه ودينه وماله وأهله، بينما تتهدده المخاطر فى المجتمع الثانى فيعيش فيه خائفًا.. وإذا كان المصطلحان يثيران الآن لغطًا كثيرًا ويستخدمهما البعض للتدليل على أن الإسلام اعتمد سياسة الحرب والصراع كسياسة أساسية تحدد علاقته بالآخر الذى يعيش خارج المجتمع والدولة الإسلاميين فإن هذه الأصوات تتجاهل عدة حقائق مهمة يجب أخذها بعين الاعتبار عند الحديث عن «دار السلام ودار الحرب» منها :

١) الظروف التاريخية التى نشأ المصطلح بسببها، فقد نشأ تعبير دار الإسلام أو دار السلام منذ اعتبرت دار الهجرة ـ يثرب أو المدينة المنورة ـ فى زمن النبى ﷺ هى دار السلام فلما أسلم أهل الأمصار صارت البلاد التى أسلم أهلها هى بلاد الإسلام ، فلا يلزمهم الانتقال منها كما يقول ابن قيم الجوزية فى كتابه «أحكام أهل الذمة» وقبل أن تتمدد الدولة الإسلامية وتخرج عن حدود المدينة المنورة، كان كل موضع سوى مدينة رسول الله ﷺ ثغرًا ودار حرب ومغزى جهاد كما يرى ابن حزم .. بل يمكن القول إن المسلمين عاشوا فى محيط معادٍ لهم منذ بداية الدعوة وإلى ما بعد موقعة الأحزاب أو الخندق، فحتى ذلك الوقت كانت الغالبية العظمى من القبائل العربية فى جانب قريش وضد المسلمين.

٢) كانت حالة الصراع والحرب التى فرضت على الدولة الإسلامية حينًا،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وخاضتها هذه الدولة حينًا لصد عدوان محتمل ، من أهم الأسباب المدعمة لتقسيم فقهاء المسلمين العالم إلى دار سلام ودار حرب ، فلم يكد الإسلام يفرض سيطرته على جزيرة العرب حتى وجد المسلمون أنفسهم وجهًا لوجه أمام قوات الفرس والروم وحلفائهم من القبائل العربية ، فقد بدأ الصدام بعد مقتل عدد من الرسل الذين أرسلهم الرسول ﷺ لبعض القبائل العربية شمال الجزيرة، كان هدف هؤلاء هو الدعوة للإسلام، وتكرر الأمر ، مرة مع بنى «سليم» الذين غدروا بخمسين ممن أرسلهم النبى ﷺ، ومرة فى ذات الطلح، حين غدر أهلها بخمسة عشر رجلاً لم ينج إلا رئيسهم .. كان بداية الصدام فى مؤتة «ويختلف الرواة فى سبب غزوة مؤتة هذه، فيذهب بعضهم إلى أن قتل أصحابه ـ أصحاب النبى ـ فى ذات الطلح كان سبب الغزو لتأديب هؤلاء الغادرين ، ويذهب آخرون إلى أن النبى أرسل رسولاً من رسله إلى عامل هرقل على «بصرى» وأن أعرابيًا من غسان قتل هذا الرسول باسم هرقل فبعث محمد ﷺ بالذين قاتلوا فى مؤتة لتأديب هذا العامل ومن ينصره» (٢٩).

البداية إذًا بالعدوان لم تكن من جانب المسلمين، واعتبار الآخر الخارجى محاربًا وداره دار حرب فرضها هذا التحرش من جانب لآخر، خاصة وأن هذا الآخر كان يتحين الفرصة للانقضاض على الدولة الإسلامية، فما أن أرسل الرسول ﷺ ثلاثة آلاف مقاتل من خيرة صحابته حتى كان الروم فى انتظارهم، كانت «أنباء مسيرتهم قد سبقتهم، فقام شرحبيل عامل هرقل على الشام فجمع القبائل ممن حوله ، وأوفد من جعل هرقل يمده بجيوش من الإغريق ومن العرب، وتذهب بعض الروايات إلى أن هرقل نفسه تقدم بجيوشه حتى نزل مآب من أرض البلقاء على رأس مائة ألف من الروم، كما انضم إليه مائة ألف أخرى من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى» (٣٠).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ثم توالت الصدامات وما لبث المسلمون أن اشتبكوا مع الفرس والروم فى حروب طاحنة، تمكن فيها المسلمون من تقويض أركان دولة الفرس بالكامل، وانتزاع الممتلكات الأسيوية والأفريقية للدولة الرومانية، لكن ظل خطر الروم قائمًا على الدولة الإسلامية، كان الرومان ينسحبون من هذا البلد أو ذاك ثم يعاودون الهجوم عليه ، وقد يستردونه، ثم يضطرون للانسحاب منه تحت الضغط الإسلامى. أو يشنون حملات بحرية على هذه المدينة الساحلية أو تلك ، ولم تكد الأمور تستتب ويتقلص نفوذ الروم وتتحوصل دولتهم حتى بدأ الصليبيون هجومهم على العالم الإسلامى فاحتلوا أجزاءً منه ، ثم تعرض العالم الإسلامى لخطر المغول، ثم بدأ القشتاليون هجومهم على مسلمى الأندلس حتى اضطروهم للجلاء عن الأندلس ، ثم بدأت الحملات الاستعمارية على يد البرتغاليين ثم الإسبان فالهولنديين ثم الفرنسيين والإنجليز .

إنه تاريخ ممتد من الحروب كان المسلمون فى أغلبه هم المدافعون، لذلك يبدو التفريق بين دار السلام ودار الحرب رأيًا لا تجنى فيه على ذلك العالم الخارجى المعادى، ورغم اختلاف الأوضاع العالمية ووجود مجتمع دولى بالمعنى الصحيح للكلمة إلا أن العالم الإسلامى لم ينج من ضغط بعض الدول الكبرى واحتلالها لأقطار إسلامية، أو تأييدها لدول معادية للمسلمين.

٣) إن المعيار العقيدى لقسمة الناس ليس الأوحد المأخوذ به «فالأحناف والزيدية يرون أن القضية الفاصلة توافر عنصر الأمان بالنسبة للمقيمين فيها ـ الدار ـ فإذا كان الأمن فيها للمسلم على الإطلاق ، فهى دار إسلام وإن لم يأمنوا فيها فهى دار حرب، ومن الباحثين من يذهب إلى القول بأنه إذا تحقق الأمان للمسلمين، وإذا أقيمت الشعائر الإسلامية أو أغلبها كانت البلاد دار إسلام حتى ولو تغلب عليها حاكم كافر» [٣١] وهذا ما يذهب إليه د. وهبة الزحيلى فى كتابه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

«العلاقات الدولية فى الإسلام»... ولعل هذا الرأى يقلب الأمور رأسًا على عقب حيث تصبح معه كثير من الدول الغربية التى تحفظ للمواطنين حريتهم وكرامتهم ويسود فيها القانون ـ تصبح دار سلام ـ فى حين تصبح الكثير من الدول الإسلامية التى تحكمها الدكتاتوريات دار حرب!!

إن الحديث الشريف يعرف المسلم بأنه من سلم المسلمون من لسانه ويده ، فلماذا إذًا كان المسلمون يعيشون فى مجتمعات تقول إنها مسلمة، لكن هذا المسلم لا يأمن على نفسه أو أهله من لسان أو يد غيره من المسلمين أو من لسان ويد الحكام، هل يصبح هذا المجتمع دار سلام أو إسلام ؟!.. لعلنا جميعًا نعرف ما قاله أحد المفكرين المصريين فى القرن ١٩ عندما زار أوروبا فعاد ليقول : وجدت هناك إسلامًا ولم أجد مسلمين، وأرى هنا مسلمين ولا أجد إسلامًا .. إذا كان هذا هو الحال منذ قرن مضى وحتى الآن فإنه بالتأكيد كان مختلفًا منذ قرون ، وكان فقهاء المسلمين لديهم مبررات حقيقية لتقسيم العالم إلى دار سلام ودار حرب، فقد كان العالم الإسلامى ومازال يضم بين جوانبه مللاً وفرقًا وديانات مخالفة للشرع الحنيف، وكان أهل هذه الملل والفرق والديانات يعيشون آمنين لهم حقوق وواجبات محددة، وفى المقابل وخارج حدود العالم الإسلامى كانت الأحادية هى السائدة، ولم يكن للمخالف عقائديًا مكان، خاصة من كان يعتبر كافرًا من وجهة نظرهم مثل المسلمين، بل إن الأمر تطور فى أحيان معينة ليقوم المسيحيون فى العالم الغربى بطرد اليهود من بلادهم أو بعض مدنهم، ففى القرن الثانى عشر مثلاً عام ١١١٠ بالتحديد منعت روسيا نهائيًا دخول يهود جدد إليها، وحددت للموجود منهم مناطق معينة لا يقيمون خارجها، فيما عرف تاريخيًا بحظيرة اليهود .. ومع اشتعال الحملات الصليبية اشتعلت نار الاضطهاد الدينى، حتى إذا ما قارب القرن الرابع عشر على الانتهاء عام ١٣٩٤ اختفى يهود فرنسا تمامًا بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا فى الدول المجاورة، أما يهود

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إيطاليا فظلوا متقوقعين بها ، وفى نهاية القرن السادس عشر لم يكن ثمة سوى ثلاث مدن ألمانية مفتوحة لليهود هى فرانكفورت وفرمس وفيرث» [٣٢] بل إن الأمر تطور فى مراحل تالية لتقوم حروب دموية بين الكاثوليك والبروتستانت.

كان هذا يحدث خارج العالم الإسلامى فى الوقت الذى أصل فيه فقهاء المسلمين لمصطلح دار السلام ودار الحرب، واعتبرت الغالبية العظمى من هؤلاء الفقهاء ـ غير المسلمين فى ديار الإسلام ـ من أهل دار السلام.. وإذا كانت الغالبية العظمى من المفكرين الإسلاميين الآن يتحفظون على مصطلحى دار السلام ودار الحرب ويطالبون بنظرة جديدة للعلاقات الدولية تتوافق والتطورات العالمية ، فإننا يجب ألا نصب كل نقدنا على الفقهاء المسلمين الذين ابتكروا هذا المصطلح ، ونلقى نظرة على المفكرين الغربيين فى تلك الفترة، فهل كانت نظرتهم للعلاقات الدولية وتقسيم العالم أكثر رقيًا من نظرة الفقهاء المسلمين فى العصور الوسطى، أم أن طبيعة العصر هى التى أملت على هؤلاء وأولئك هذا التصور؟

تثبت كتب التاريخ أنه لم يكن هناك اختلاف بين «ما ذهب إليه العالم المسيحى فى العصور الوسطى عما ذهب إليه مشرعو القانون الدولى فى أوروبا بعد قيام الدولة القومية الحديثة، فقد كان عليهم أن يوفقوا ما ذهب إليه الفكر المسيحى فى العصور الوسطى وبين قيام الدولة القومية التى قامت على أنقاض الوحدة السياسية للعالم المسيحى، فكان ما ذهبوا إليه من تشريع بقصد تنظيم العلاقة بين الدول المسيحية وحدها، فأنكروا أن يكون لغيرها بما فيها الدولة الإسلامية ما لبعضها البعض من حقوق والتزامات فلم يكن جرويتوس فى كتابه ـ حقوق الحرب والسلام ـ وقد نشر عام ١٦٢٥ ، يعنى من المعلومات التى تحكم الدول أكثر مما وعاه المشرع الرومانى فى قانون الأمم، مشوبًا بفكرة مبهمة عن الصلة بين القانون الطبيعى وقوانين الإنسان، وظل هذا الإبهام قائمًا فى التشريع الأوروبى للعلاقات الدولية، فبينما يذهب القانون الطبيعي إلى فكرة المساواة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والالتزام المتكافئ بما تقتضيه كلية القانون الطبيعى، فإن قوانين الإنسان لا تسوغ المساواة العامة ولا الالتزام المتكافئ، إذ تقيم الفواصل بين ما هو أوروبى وما هو غير أوروبى، فلم تسو بين الدول الأوروبية والدول الأسيوية والإفريقية، وظلت تركيا بمنأى عن المجتمع الدولى كما عناه الأوروبيون حتى حرب القرم إذ جاء فى المادة السابعة من معاهدة مارس ١٨٥٦ أن الباب العالى عضو فى المجتمع الدولى لجماعة الدول الأوروبية» (٣٣)، ورغم هذا الاعتراف فقد ظلت الامتيازات الأوروبية قائمة فى الدولة العثمانية، وكانت سببًا من أسباب ضعفها وانهيارها، وحتى قيام الأمم المتحدة أواخر النصف الأول من القرن العشرين كان الغربيون يقسمون العالم إلى ثلاث جبهات هى العالم المتمدن وقصد به العالم المسيحى الغربى، العالم غير المتمدن ويشمل أغلب الدول الإسلامية خاصة التى لها علاقة مع العالم الأوروبى، العالم البدائى المتوحش ويشمل بقية دول العالم ، وذلك وفقًا للتقسيم المعروف بتقسيم (لوريمر).

إذا كانت الغالبية من المفكرين الإسلاميين الآن يطالبون بتجاوز ذلك التقسيم ـ دار السلام ودار الحرب ـ وينادون بسيادة القانون الدولى الذى لا يفرق بين دولة صغيرة ودولة كبيرة فى حق الوجود والأمان بغض النظر عن ديانة هذه الدولة أو تلك ، فإن الواقع يؤكد أن الغرب الآن هو الذى يعود بنا إلى تقسيمات للعالم تضرب بعرض الحائط ما أنجزه الجنس البشرى فى مجال حقوق الإنسان والعلاقات الدولية، فقد قررت الولايات المتحدة حسب وصف الكاتب الأمريكى «وليام باف» فى الوثيقة الأمريكية للأمن القومى التى أطلقها جورج دبليو بوش فى السابع عشر من سبتمبر» قررت أنها لن تحترم مبدأ السيادة المطلقة للدول، وهى تفعل ذلك لا لكى تستبدل به مبدأ عالميًا جديدًا يسعى إلى تحرير الدول، بل إنها تفعله لتحقيق أهداف الأمن القومى الأمريكى والذى تجعل فيه وإن كان بصورة مضمرة ـ الأمن القومى لكل الدول الأخرى تابعًا لها» (٣٤).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد ذهب بعض الفقهاء المسلمين إلى تقسيم العالم إلى ثلاثة أقسام : دار السلام ودار الحرب ، ودار العهد أو الموادعة ، وهى البلاد أو الأقاليم التى للذميين فقط وتعتبر أرضهم دار موادعة أو عهدًا، وتنال هذه الصفة «عندما يخيرهم المسلمون بين الإسلام أو المسالمة فيختارون المسالمة ويصالحون المسلمين على شروط يتفقون عليها، ويكون على المسلمين حمايتهم والدفاع عنهم، ويكون على هؤلاء الذميين أن يؤدوا الجزية للمسلمين مقابل ذلك، كما كان عهد النبى ﷺ لنصارى نجران وعهد أبى عبيدة لأهل حمص وعهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح مع أهل النوبة وعهد معاوية مع أهل أرمينيا، ويرى الشافعى أن الموادعة أو العهد لا يكون إلا مع الموادعين من الحكام فإن كانوا من غير الموادعين فليس لهم عهد ولا موادعة»(٣٥).

وبلغة عصرنا الحالى نستطيع أن نقول إن المقابل لدار العهد أو الموادعة هو الأقليم الذى يدار بطريقة الحكم الذاتى، ليس للدولة الأم أو الدولة المركزية عليه إلا ما ينص عليه الدستور ـ العهد ـ وأنه يدير شئونه بالطريقة والقوانين التى ترضى أهله شريطة ألا تهدد أمن الدولة الأم.

إذا كان موقف المسلمين من الآخر الخارجى يتحدد بما يقرره هذا لآخر من عداء أو مسالمة للدولة الإسلامية، فإن هذا الموقف لا يشمل مواطنى هذه الدولة الأجنبية التى ربما تكون معادية، فقد تكون الدولة معادية وبعض رعاياها من غير المسلمين يرفضون هذا العداء أو يقفون موقفًا محايدًا ، ليس مع دولتهم المعادية أو ضدها ويسمى هؤلاء بالمستأمنين ، ويكون لهم الأمان فى حالة دخولهم ديار الإسلام عابرين أو مرتحلين أو مقيمين لأجل محدد، كالتجار والسائحين .

وللمستأمن «حق الحماية والرعاية وإن كانت داره فى حرب مع المسلمين ناشبة ما دام لا ينكث بعهد الزمان ولا يفتات عليه بغدر أو خيانة تضر بالدولة ، فالحرب فى الإسلام هى حرب المقاتلين مع الجماعات والدول لا يصلى سعيرها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الآمن ما دام بعيدًا عن القتال غير مشارك فيه بفعل أو برأى، وهو آمن على ما له وملكه وما كسبت يداه حلالاً من غير ربا فى دار الإسلام، ويبقى له ماله وإن عاد إلى بلده التى هى فى حرب أو فى حالة حرب مع المسلمين ولا تزول عنه ملكيته حتى وإن حمل السلاح ضد المسلمين» (٣٦).

ويحق للمسلم الفرد كما يحق للدولة منح الأمان، فللمسلم أن يجير أو يؤمن أو يعاهد فردًا أو مجموعة من الناس وأمانه وعهده مصونان.

ويولى الإسلام العهود والمواثيق أهمية بالغة، وهذا جانب تغافل عنه كثيرون حينما كتبوا عن علاقة المسلمين بالآخر الخارجى فيرى كثير من الفقهاء والمفكرين الإسلاميين أن حرمة العهود فوق حرمة الدين، فإذا قتل مسلم مشركًا من قوم بينهم وبين المسلمين عهد، وجب دفع الدية إلى أهل القتيل، ويحظر على المسلمين نصرة المسلم على قوم غير مسلمين بينهم وبين المسلمين عهد ﴿**وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ**﴾ (الأنفال : ٧٢).

والوفاء واجب على المسلمين حتى وإن بدت نية الآخر للغدر ، فإذا ما أراد المسلمون نقض العهد فعليهم إخطار الآخر أولاً بهذه النية ، ولا يحق للمسلمين مباغتة الآخر بنقض العهد ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ (الأنفال : ٥٨).

إن الإسلام دين الوسطية، وأفعال المسلمين وردود أفعالهم يجب أن تتسم بالواقعية والمنطقية ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ**﴾ (النحل : ١٢٦). هذه هى القاعدة الأساسية، أما السمو والصبر والمثالية فمراحل تالية يدعو إليها الإسلام، إن التزم بها المسلم كان له الأجر والثواب عند الله ، وإن لم يلتزم وتعامل بطبيعته الإنسانية دون ظلم فلا أجر له ولا إثم عليه ﴿**وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ**

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لِّلصَّابِرِينَ ﴾ (النحل : ١٢٦).

وعلاقة المسلمين مع الدول والمجتمعات غير المسلمة تتحدد وفقًا لموقف هذه الدول والمجتمعات من المسلمين ودولتهم ، فإذا ما أبرمت معاهدة سلام أو تعاون أو تحالف وجب على المسلمين الوفاء بها، وإذا ما نقض هذا الآخر المعاهدة وجب على المسلمين الرد بالمثل، وإذا احترم هذا الآخر المسلمين داخل دولته ولم يضطهدهم أو ينتقصهم من حقوقهم ولم يعادِ دولة الإسلام أو يتحالف مع عدو ضدها، فبأى حق يجوز للمسلمين قتاله؟!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

● الفصل الثالث

صور مضيئة من التاريخ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ما أن شارف القرن الثانى الهجرى على الانتهاء إلا وكانت الفتوحات الإسلامية قد بلغت أقصاها من الشرق حتى وصلت بلاد الهند وتخوم الصين ومن الغرب حتى شملت الشمال الأفريقى وشبه الجزيرة الأيبيرية ثم واصلت تقدمها حتى سهول فرنسا، وتأكد سيطرة العرب على البحر المتوسط وجزره باستيلائهم على جزيرة صقلية ٨٧٨م.

وما أن استتب الأمر للعرب الفاتحين حتى وجدوا أنهم يحكمون بلادًا كانت مهد حضارات عظيمة وإن غربت شمسها وأنهم ـ أى العرب ـ يتعاملون مع شعوب ذات ثقافات عريقة ومميزة تبز ثقافتهم وتفوقها فى مناحى شتى من العلوم والفنون والصناعات.

كانت هذه لحظة فارقة فى تاريخ الإنسانية كما يصفها المؤرخون المنصفون ، فلو كان هؤلاء العرب أجلافًا متعصبين لفعلوا فعلة المغول النكراء فيما وقع تحت أيديهم من البلاد والأمصار فدمروا رموز الحضارات وبددوا معالم الثقافات والعلوم «فقد قام المغول بتدمير مكتبة بغداد والتى كانت تعد أعظم مكتبة فى العالم فى عصرها وألقوا بالكتب فى نهر دجلة فسودت مياهه لمدة أيام من مداد هذه الكتب.. أو كما فعل الأتراك الغاشمون حين دمروا مكتبة العزيز بالقاهرة والتى كانت أعظم مكتبة فى أفريقيا كلها، وكذلك فعلت القبائل الجرمانية المتوحشة حين استولت على روما فعاثت فيها فسادًا وتدميرًا . لكن العرب كانوا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

على قدر من السماحة والتفتح جعلهم يحافظون على هذا الإرث الإنسانى العظيم» (٣٧).

بل لقد دفعهم حبهم للعلم وتعطشهم للمعرفة للإقبال والدرس على علوم ليس لهم بها معرفة، وفنون وصناعات لم يألفوها من قبل، ولما كانت هذه المعارف والفنون فى غير لغتهم العربية فقد قامت فى الوقت نفسه تقريبًا حركتان تنويريتان عظيمتا الشأن هما حركة الترجمة الكبرى من اللغات الأخرى إلى العربية لأهم المنجزات الثقافية والعلمية للحضارات المعروفة فى هذا الوقت، وعلى الأخص الهندية والفارسية واليونانية واللاتينية، كما قامت بالتوازى مع حركة الترجمة السابقة حركة نشيطة لتعلم هذه اللغات ودراسة هذه العلوم فى مصادرها الأصلية.

حين فتح العرب بلاد فارس والشام ومصر كانت توجد فى ذلك الوقت ثلاث مدارس على قدر عظيم من الأهمية والمكانة هى مدرسة (جند يسابور) ومدرسة (حران) وثالثة بالإسكندرية، فحافظ العرب الفاتحون على هذه المدارس وشجعوا علماءها وقربوهم، وأعلوا من شأنهم حتى صارت لهم منزلة عظيمة عند الخلفاء المسلمين وولاتهم، ولم تقف عوامل اختلاف الدين أو الجنس أو العرق عائقًا لاستفادة العرب المسلمين من علوم هؤلاء العلماء وفنونهم، كانت مدرسة جند يسابور تعنى على وجه الخصوص بالطب والترجمة واشتهر منها جوجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وابنه جبريل طبيب الرشيد المأمون والعديد غيرهم من أطباء النصارى النساطرة، أما مدرسة (حران) وكان غالبية علمائها من الصابئة واليهود ومن أشهرهم ثابت بن قرة الرياضى الفلكى ومحمد ابن جابر الفلكى وعالم الهندسة والرياضيات، واشتهرت مدرسة الإسكندرية بعلوم الفلسفة والكيمياء والعلوم الطبيعية والتنجيم والفلك، وكانت هذه هى البؤر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الباقية والتى يسطع منها نور العلم والثقافة بينما خيم ظلام الجهل والتخلف على ما حولها من بلاد وأقطار قام العرب بالمحافظة عليها وجعلها الأساس لحضارة إسلامية سادت على مدى خمسة قرون ، واحتلت مكان الصدارة والقيادة الفكرية فى العالم كله كما يقول ول ديورانت.

ولم تحل ديانة جبريل بن بختيشوع فى أن يصبح من أثرياء الدولة الإسلامية فى العصر العباسى، فقد بلغ مجموع ما تقاضاه فى سنة واحدة من خدمته للرشيد ٤,٩ مليون درهم «فإذا جمع ذلك فى مدة خدمته كلها وهى ٢٣ سنة كان مقدار ما قبضه من مال الدولة العباسية ١١٢,٧ مليون درهم يخرج منها ما قطع عنه من مرتبات البرامكة بعد نكبتهم فى العشر سنين الأخيرة، وهو ٢٤ مليون درهم فالباقى ٨٨,٧ مليون درهم وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال» [٣٨]، بل إن الرشيد كان يمنح هذا الطبيب هدايا أو «عيديات» بمناسبة الأعياد المسيحية صنفت على النحو التالى : ٥٠ ألف درهم فى عيد صوم النصارى ، ١٠ آلاف درهم كهدية على يوم الشعانين ـ كثياب ـ إضافة لمبلغين مماثلين على عيد الفطر.

وانتشرت على أثر ذلك حركة علمية وثقافية بمعظم حواضر الدولة الإسلامية الفتية كانت البصرة والكوفة وبغداد وجند يسابور وحران وغيرها من المدن الإسلامية ملتقى العلماء العرب المسلمين والفرس والمسيحيين واليهود والمجوس ، «ولم يأنف العرب المسلمون أن يأخذوا العلم من هؤلاء، بل لقد كانت إدارة المدارس فى ذلك العهد توكل إلى العلماء من النساطرة تارة وإلى اليهود تارة أخرى بفضل سماحة الخلفاء المسلمين» [٣٩].

ومن العدل والإنصاف أن نقول إن هذه المساهمات التى قام بها هؤلاء العلماء كان لها أبلغ الأثر فى تطور الحضارة الإسلامية كما أنهم فى الوقت نفسه تمتعوا بجو من الحرية والتشجيع قلما وجدوه فى كنف أمة أخرى، وحظوا أيضًا بأرفع المناصب والمراتب عند معظم خلفاء المسلمين، فقد قام أهل الذمة بدور مهم فى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحياة السياسية والاقتصادية فى عصر ولاة الخلفاء الراشدين، ثم قاموا بدور علمى فى المراحل التالية، واستمروا فى أداء هذه الأدوار فى عصر الولاة الأمويين والعباسيين، «فإذا كانت روح الإسلام الحقة هى التى دفعت بالعرب إلى سياسة التسامح الدينى نحو المصريين (وغيرهم) فإننا نجد أيضًا أنه كان للعوامل السياسية أكبر الأثر فى حمل العرب على ترك مقاليد الأمور فى أيدى أهل مصر من القبط خاصة، محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين، أى أن القبط صاروا يتمتعون بحريتهم الدينية إلى جانب قيامهم بنصيب كبير فى إدارة بلادهم، ولاشك فى أن القبط قد حلوا محل الرومان الذين غادروا مصر، والذين كانوا يشغلون كثيرًا من الأعمال فيها» (٤٠).

وعن طريق العلماء والمترجمين غير المسلمين من أمثال حنين بن إسحق وابنه إسحق وقسطا بن لوقا ويوحنا ابن البطريق وبن المقفع وغيرهم عرف العرب منطق أرسطو وهندسة إقليدس وحكمة وفلسفة الهند وآداب ومعارف الفرس، واندمج هؤلاء وغيرهم فى بوتقة الحضارة الإسلامية الوليدة، وانخرطوا فى نسيجها يؤثرون ويتأثرون بعد أن أتت حركة النقل والترجمة من اللغات الأخرى إلى العربية ثمارها، واستوعب المسلمون حضارات وثقافات الأمم السابقة، وقاموا بالعناية بهذا التراث الإنسانى والمحافظة عليه من الضياع والاندثار، ثم جاء دورهم فى إبداع حضارتهم المتفردة وثقافتهم المميزة.

انصهرت الأمم التى فتحها العرب المسلمون فى الدولة الإسلامية الجديدة وأثروا بثقافاتهم وحضاراتهم فى ثقافة وحضارة الإسلام بعد أن دخلت شعوب هذه الأمم فى الإسلام طوعًا واختيارًا لما وجدوا فيه من عدالة ومساواة وما لمسوه فى أتباعه من سماحة ومروءة، وفجرت تعاليمه وأفكاره طاقات الإبداع والابتكار عند أبناء هذه الشعوب، فانطلقوا جنبًا إلى جنب مع إخوانهم العرب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المسلمين، يأتون بكل جديد وفريد فى شتى العلوم والفنون والمعارف.

فليس عجيبًا أن يكون معظم كبار علماء المسلمين ومفكريهم فى شتى العلوم من غير العرب نسبًا وإن كانوا من المسلمين انتسابًا. وليس من العجيب أن ينبغ من هؤلاء كثيرون فى علوم اللغة العربية وعلوم الحديث والقرآن، وأن يكونوا من أشد المدافعين عن الدين الإسلامى والثقافة الإسلامية ضد الحاقدين والمتآمرين، ولا عجب من كل ذلك بعد أن شمل الإسلام الجميع ووسعهم بعدله وسماحته وتعاليمه وقيمه.

لقد بلغت الحضارة الإسلامية أوجها بداية القرن الثالث الهجرى وبان ذلك بكل وضوح فى مختلف جوانب ومظاهر الحياة وعلى مدى اتساع ربوع الدولة الإسلامية، وتجلت عظمة هذه الحضارة وقمتها فى الشرق فى بغداد إبان حكم الدولة العباسية وفى الغرب فى دولة الأندلس، وقاهرة المعز فى عهد الفاطميين، كانت مظاهر الحضارة والتمدن والثقافة بهذه الحواضر تشى بعظمة وعز الإسلام فمن فن متطور فى العمارة إلى أنواع عديدة متنوعة من السلع والصناعات والأدوات الحديثة وأنماط من المأكل والملبس وضروب اللهو والتسلية لم تكن معهودة من قبل، وتعكس حالة الرفاهية والرغد فى هذه العواصم المزدهرة وكم يذكر المؤرخون أن مجالس الخلفاء والوزراء والوجهاء كانت فى هذه الحواضر قبلة العلماء والمفكرين والشعراء والأدباء، يتحاورون ويتجادلون ويلقون أبحاثهم وأفكارهم ونظرياتهم دون خوف أو غضاضة، حتى المتطرف والغريب منها دون أن يلتفت أحد لدين هذا أو نسب ذاك، ولم يذكر التاريخ إلا فى النادر بل والنادر جدًا ضيق الخلفاء أو اعترض الفقهاء على رأى أو مصادرة فكر، ومثلما أصبح الدين الإسلامى هو دين الأغلبية الساحقة فى الدولة الإسلامية أضحت اللغة العربية هى لغة الدين والثقافة والعلم لهم ... وامتزجت العادات وتقاربت الأذواق فى عفوية ودون قهر أو إرغام بين العرب وأبناء الشعوب الأخرى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

حتى صعب التمييز بين هؤلاء وهؤلاء إلا فى أضيق نطاق.

منذ هذا الوقت من الزمان (القرن الثالث الهجرى) وضحت معالم الثقافة الإسلامية الجديدة، وتجلت ملامحها الفارقة والمختلفة عما عداها من الثقافات الأخرى، وبنظرة خاطفة يمكننا أن نتعرف على عوامل تميز هذه الثقافة فى هذا العهد فيذكر المقريزى فى (نفح الطيب) أن نمط الحياة فى القرن السادس الهجرى قد شهد اختفاء لبس العمائم واحتضان الملابس المحلية من جانب العرب الفاتحين، والاشتراك المبكر فى الأعياد الدينية الإسلامية والمسيحية متضمنًا إجازة الأحد بجانب الجمعة، مما يعد أمرًا بالغ الأهمية على تحول الشعائر الدينية إلى عادات قومية، ومما لاشك فيه أن كثيرًا من أهل البلاد الأصليين الذين دخلوا فى الإسلام كانوا وراء استمرار هذه الاحتفالات ، ولم يكن الأمر مجرد مشاركة إسلامية للمسيحيين فحسب، ولكنها حياة فلكلورية غنية تمسك بها أهل البلاد الأصليون، وأعجب بها وتبناها العرب بدليل كما يقول صاحب (نفح الطيب) مرة أخرى (إن الأمير نفسه كان يشارك فى هذه الاحتفالات ويخرج الهبات والجوائز فى هذه الأعياد) أى أنها تجاوزت الوجود الفلكلورى إلى الوجود الرسمى.

ويذكر أبو صالح الأرمنى أنه كان من عادة أهل مصر من القبط والمسلمين فى عيد الميلاد «أن يوقدوا الشموع والمصابيح والأحطاب على نطاق واسع ونستخلص من روايته هذه أن المسلمين قد شاركوا القبط فى الاحتفال بأعيادهم منذ السنوات الأول للفتح العربى»(٤١).

وإذا كان الولاة لم يشاركوا قبط مصر احتفالاتهم فى عصر الراشدين والأمويين والعباسيين فإن الوضع تغير فى عهد الإخشيديين والفاطميين «إذ شارك كثير من هؤلاء الأمراء والخلفاء القبط فى احتفالاتهم الرسمية بكثير من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أعيادهم بل صار للدولة رسوم تحرص تمامًا على القيام بها» [٤٢] .

وامتدت أجواء التسامح التى فرضها الإسلام لتشمل العلاقة بين غير المسلمين بعضهم البعض، فيذكر المؤرخون أن بطرك الأرمن اغريفوريس قدم إلى مصر فى العصر الفاطمى وأن أمير الجيوش أحسن استقباله، كما أحسن استقباله البطرك القبطى «كير لص» وسمح له بالمشاركة فى تعيين الأساقفة الأقباط.

فى ذلك الوقت لم يكن المسلمون متوجسين من الآخر الداخلى أو الخارجى فتشير «بعض المصادر التاريخية إلى أن الوزير ـ الفاطمى ـ بهرام الأرمنى سيطر على كل الأمور فى مصر فاستدعى أسرته وأهله من أرمينيا، حتى بلغ عدد الأرمن فى البلاد المصرية ثلاثين ألفًا، وقاموا ببناء عدد كبير من الكنائس كما يقول المقريزى .. ومن الأشياء الملفتة للنظر وبشدة كثرة عدد الوزراء اليهود والنصارى فى العصر الفاطمى، وحالة التسامح التى أشاعها رأس هذه الدولة فى مصر (المعز لدين اللّه الفاطمى) وإنفاقه من ماله الخاص على إصلاح الأديرة والكنائس وهو ما جعل كثيرًا من المؤرخين المسيحيين فى عصره يقولون بأنه اعتنق المسيحية!!

تلك كانت أهم عوامل تفرد الثقافة الإسلامية الناشئة فى ذلك العهد واختصاصها بسمات ميزتها عن باقى الثقافات، فقد كان من المعهود قبل الفتوحات الإسلامية أن الفاتحين يفرضون نمط ثقافتهم على شعوب البلاد المفتوحة فتبيد ثقافة هذه الشعوب أو تنعزل هذه الثقافات فتضعف وتزوى على مر الزمان، أما أن يتشارك الفاتحون وشعوب البلاد المفتوحة دون قهر أو إرغام فى تكوين ثقافة جديدة تمام الجدة حتى على الفاتحين فإن هذا كان شيئًا غير معهود من قبل.

استمرت الحضارة الإسلامية على مدى خمسة قرون من الزمان أو يزيد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

متألقة قوية تصب فى مجرى التراث الحضارى الإنسانى العالمى ما جعله يزداد ثراء وغنى، وهو ما يشهد به التاريخ لهذه الحضارة من أصالة ورقى فتحققت بالحقيقة خلافة المسلمين على الأرض.

دار الزمان بعد ذلك دورته وفعلت سنن الله فى الكون فعلها فتوقف الصعود المطرد للحضارة الإسلامية، وبدأت عوامل التفكك والضعف والانحلال تنخر فى جسدها لأسباب عديدة منها ما هو عام ومتعلق بدورة صعود وهبوط الحضارات ومنها ما هو خاص بهذه الحضارة ولا مجال لمناقشة هذه الأسباب هنا ، وأدى ذلك إلى تقطع أوصال الدولة الإسلامية إلى ممالك ودويلات أضعفت بعضها البعض من جراء التطاحن والحروب فيما بينها مما أغرى قوى أخرى ناشئة إلى التطلع للاستيلاء على هذه الدويلات والممالك واحدة بعد الأخرى، وبدأت دورة جديدة من دورات الحضارة الإنسانية.

ومرة أخرى تكررت تلك اللحظة الفارقة فى تاريخ الإنسانية فقد كان بعض الذين سقطت أجزاء الدولة الإسلامية فى أيديهم من السماحة والتفتح بالقدر الذى جعلهم يحافظون على ما وقع بين أيديهم من التراث الحضارى والثقافى الإسلامى ويعتنون به أشد العناية، حدث هذا على وجه الخصوص فى جزيرة صقلية عندما استولى النورمانديون عليها من المسلمين عام ٩٠٢م إذ أنشأ (روجر) الثانى والذى كان ملكًا محبًا للعلوم والثقافة العربية ديوانًا للترجمة يعمل به مسلمون عرب ونصارى ويهود، «فنشأت بذلك نهضة حضارية قوامها اللغات العربية واللاتينية واليونانية، كما أرسل هذا الملك أيضًا للجغرافى العربى المشهور الإدريسى عندما سمع به واحتفى به وأجزل له العطاء وطلب منه وضع خريطة للأقاليم السبعة المعروفة للأرض في هذا الحين، وأن يضع له كتابًا شاملاً عن الأرض فكان كتاب الإدريسى المشهور نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» (٤٣).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وكذلك فعل الإمبراطور الرومانى فريدرك الثانى، وكان أيضًا محبًا للحضارة الإسلامية ومتأثرًا بها حتى أنه صبغ بلاطه بالصبغة الإسلامية ولشدة ولعه بالعلوم أنشأ أول جامعة فى بلاده هى جامعة بلنسية لدراسة علوم الطب على الطريقة الحديثة ، معتمدًا على كتب الطب العربية والعلماء المسلمين، وكان ثانى الأماكن التى شهدت تسليم مشعل الحضارة من المسلمين للقوى الأخرى الناهضة هى بلاد الأندلس وكان من حسن الطالع أن الجيل الأول من الأمراء المسيحيين الذين حاربوا العرب المسلمين فى الأندلس، واستولوا على ملكهم مستنيرين فأحاطوا أنفسهم بعلماء من العرب واليهود فحدث أن أقام ألفونس السادس عندما استولى على طليطلة مجمعًا من العلماء من الأديان الثلاثة.

«وكان مطران طليطلة ريموند هو الذى استقدم علماء من مختلف الأرجاء إلى مدينته وأنشأ بها ديوانًا لترجمة التراث العربى الإسلامى وأدخل دراسة الترجمات فى مناهج المدارس المسيحية» (٤٤).

ولسوف تظل الأندلس هى النموذج الأبرز الذى يطرحه المسلمون للتعبير عن الجنة الأرضية، عن المجتمع الذى يمكن أن يعيش فيه الجميع فى تسامح وود ورفاهية «ففى عصر الأندلس الذهبى كانت المدن الأندلسية أعمر المدن فى القارة الأوروبية من أقصاها، وكان فى قرطبة وحدها ناسخ واحد يستخدم مائة وسبعين جارية فى نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة، وكان فى قصر الخليفة أربعمائة ألف كتاب، وكان سادات أوروبا يفاخرون بما يقتنونه من منسوخاتها أو مصوغاتها المعدنية أو آنية الفخار التى لا يعرف لها نظير فى بلد آخر، وكان عدد سكانها نحو ألف ألف يسكنون نحو مائتين وخمسين ألف بيت ، ولم تكن مدينة فى أوروبا يأوى إليها أكثر من ثلاثين ألفًا أو خمسين ألفًا على أكبر تقدير، وإلى قرطبة وزميلاتها غرناطة وأشبيلية وطليطلة ومرسية ومالقة كانت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تتجه وفود العواهل الأوروبيين فى طلب الأدوية أو التحف أو أدوات الترف والزينة وفرق الموسيقى والغناء»[٤٥] وحتى بعد سقوط غرناطة ظل لهذه الحضارة أثرها إلى أن عمت روح التعصب وبدأت محاكم التفتيش عملها، فأطفأ ضيق الأفق فى أعوام قليلة ما أنجزه أهل الأندلس من مسلمين ومسيحيين ويهود فى قرون .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

مصادر الباب الثانى

١- قصف العقول ـ مصدر سابق ص ٨٢ .

٢- الإسلام والسياسة ـ مصدر سابق ص ٢٤٢ .

٣- ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ٢٠٠١ ج ١٣ ترجمة محمد بدران ص ٧٢ .

٤- حياة محمد ـ مصدر سابق ص ٢٠٩ .

٥- الإسلام والسياسة ـ مصدر سابق ص ٢٥١ .

٦- قصة الحضارة ـ مصدر سابق ج ١٣ ص ٧١ .

٧- عباس محمود العقاد ـ عبقرية الصديق ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢ ص ١٥٢ .

٨- عروبة الإسلام وعالميته ـ مصدر سابق ص ١٠٠ .

٩- حضارة العرب ـ مصدر سابق ص ١٣٩ .

١٠- عبقرية الصديق ـ مصدر سابق ص ١٥١.

١١- المصدر السابق ص ١٥١.

١٢- الإسلام والسياسة ـ مصدر سابق ص ٢٥٠.

١٣- جورجى زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامى ـ مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس ـ دار الهلال (مصر) ١٩٦٨ ج١ ص ١٧٠.

١٤- محمد عطية الإبراشى ـ عظمة الإسلام ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣ ج١ ص ٢٧٨.

١٥- قصة الحضارة ـ مصدر سابق ـ ج ٢٦ ترجمة محمد على أبو درة ص ٥٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

١٦- جون ل. اسبوزيتو ـ التهديد الإسلامى حقيقة أم خرافة؟ ـ ترجمة د. قاسم عبده قاسم ـ دار الشروق ـ مصر الطبعة الأولى ٢٠٠١ ص ٦٨.

١٧- جمال حمدان ـ استراتيجية الاستعمار والتحرر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ ص ٥٢ - ٥٣ .

١٨- سيار الجميل ـ بقايا وجذور التكوين العربى الحديث ـ الأهلية للنشر والتوزيع ـ الأردن ـ الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧ ص ٧٠.

١٩- التهديد الإسلامى ـ مصدر سابق ص ٦٢.

٢٠- استراتيجية الاستعمار والتحرر ـ مصدر سابق ص ٢٩.

٢١- حضارة العرب ـ مصدر سابق ص ١٣٢.

٢٢- المصدر السابق ص ١٠٨.

٢٣- قصة الحضارة ـ مصدر سابق ج ١٣ ص ٢٢٧.

٢٤- الجماعة والمجتمع والدولة ـ مصدر سابق ص ٢١١.

٢٥- قصة الحضارة ـ مصدر سابق، ج ١٣ ص ٢٨١.

٢٦- منيرة محمد الهمشرى دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق.م سلسلة تاريخ المصريين عدد ١٤٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ ص ١٣٩.

٢٧- المصدر السابق ص ١٤٣.

٢٨- قصة الحضارة ـ مصدر سابق، ج ١٣ ص ٣٨٣.

٢٩- حياة محمد ـ مصدر سابق ص ٣٢٤ .

٣٠- المصدر السابق ص ٣٢٥ .

٣١- مواطنون لا ذميون ـ مصدر سابق ص ١٠٤.

٣٢- اليهود أنثروبولوجيا ـ مصدر سابق ص ٧٩ - ٨٠ .

٣٣- الإسلام والسياسة ـ مصدر سابق ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

٣٤- السيد ياسين ـ الحرب الكونية الثالثة ـ عاصفة سبتمبر والسلام العالمى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣ ص ٣٧٨.

٣٥- الإسلام والسياسة ـ مصدر سابق ص ٢٥٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٣٦- المصدر السابق ص ٢٥٨.

٣٧- د. توفيق الطويل ـ فى تراثنا الإسلامى والعربى ـ سلسلة كتب ثقافية عدد ٨٧ ـ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ص ١٩٠.

٣٨- تاريخ التمدن الإسلامى ـ مصدر سابق سابق ج ٢ ص ١٤٥.

٣٩- سماحة الإسلام . مصدر سابق ص ٧٠.

٤٠- تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية ـ مصدر سابق ص ١١٣.

٤١- المصدر السابق ٣٦٤.

٤٢- المصدر السابق ص ٣٦٧.

٤٣- فى تراثنا الإسلامى والعربى ـ مصدر سابق ٢٠٩ - ٢١٠.

٤٤- المصدر السابق ص ٤١٥ .

٤٥- عباس محمود العقاد ـ أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ ص ٩٠.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الباب الثالث

المسلمون والآخر
صراع الدين أم الدنيا؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

• تمهيد

أسباب الخلاف والاختلاف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الاختلاف بين المسلمين وغيرهم أمر وارد، ليس فقط لاختلاف العقائد والشرائع ولكن أيضًا لاختلاف المصالح، والاختلاف بين أى مجموعتين بشريتين يمكن احتواؤه، بل ويمكن التعايش فى سلام فى حال إقرار هاتين المجموعتين مبدأ التعددية والاعتراف بالآخر كشريك فى الحياة على ظهر هذا الكوكب، وهو شريك لا يمكن تجنبه فى ظل ثورة الاتصالات والمواصلات وتداخل المصالح.

لكن مشكلة الاختلاف تبرز بعنف عندما تنفى مجموعة بشرية الآخر لأسباب عقائدية أو سياسية أو اقتصادية.. إلخ وقد تتضافر كل هذه الأسباب فلا تؤدى إلا إلى القضاء على الآخر أو السعى لذلك ورغم أن علاقة المسلمين بالآخر خاصة الخارجى كانت متوترة فى أوقات كثيرة فإنها اليوم أشد توترًا وذلك لعدة أسباب هى:

١- مرحلة الضعف الشديد التى تمر بها الأمة الإسلامية، دون وجود أمل فى الوحدة التى يعول عليها المسلمون كثيرًا فى تحسين أوضاعهم.

٢- ظهور تيار العنف السياسى والذى يسمى مجازًا بتيار الإسلام السياسى والذى يسعى لإعادة مجد المسلمين- بطرق خاطئة بالطبع - عن طريق تحطيم الدائرة السياسية والعسكرية المفروضة على العالم الإسلامى (الغرب وحلفاؤه من العرب والمسلمين وإسرائيل) فى الوقت نفسه الذى ينمو فيه اليمين العنصرى فى أوروبا واليمين الدينى فى أمريكا. وما يحدثه التشدد فى المعسكر المسلم والغربى من ردود افعال متطرفة تصنع أفعالاً أشد تطرفًا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٣ - انفراد قوة عالمية واحدة بالمسرح العالمى الولايات المتحدة ومحاولتها فرض هيمنتها ونفوذها على العالم وبحث بعض صناع سياستها عن عدو استراتيجى تضمن مواجهته الديناميكية والحيوية للولايات المتحدة على مستويات عدة.

هذه العوامل - الأسباب - تفاعلت ومازالت تتفاعل لتنتج فريقين أحدهما يمتلك كل أسباب القوة فيسعى لفرض منطقه ورؤيته ومبادئه على العالم، وفريق ثانٍ معتز بهويته رافض لاستمرار أحواله المتدهورة على ما هى عليه، لذلك يأتى الصدام وهو صدام ليس حتميًا إلا فى مثل هذه الظرف.

وبالنظر إلى التاريخ الإسلامى يمكن القول إن القاعدة الأساسية التى كانت تحكم علاقة المسلمين بالآخر هى (رد الفعل) وهى قاعدة لم تقتصر على معاملتهم للآخر الخارجى بل تعدت إلى نظرتهم للآخر الداخلى فأغلب الأحكام المتشددة التى أصدرها الفقهاء المسلمون ضد الآخر الداخلى، كانت خلال اجتياح المغول للعالم الإسلامى والحروب الصليبية وما واكبها من أعمال وحشية قام بها الآخر الخارجى المتفق دينيًا مع الآخر الداخلى، وأيضا خلال المرحلة الحالية التى تسود فيها نظرية المؤامرة على الإسلام مع وجود بعض الدلائل المؤكدة لهذه النظرية، ومنذ القرن السادس عشر وحتى الآن مارس الآخر خاصة الغرب ضغوطًا مختلفة على العالم الإسلامى فأسهم بشكل مباشر أو غير مباشر فى صناعة تخلف المسلمين.

ولعل من الملاحظات الجديرة بالاهتمام أن حديث المسلمين عن الآخر غالبًا ما يقلص هذا الآخر فى الغرب وهو ما يعنى أن غالبية المسلمين لا تنظر إلى الصراع مع الآخر على أساس عقائدى، فهناك صراعات أخرى ربما أعنف بين المسلمين والهندوس والروس وفى الصين والهند الصينية والفلبين..إلخ وإنما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تنظر أغلبية المسلمين للآخر والعلاقة معه على أساس حضارى.. حضارة مهزومة أو غابرة- الإسلامية - فى مواجهة حضارة قوية باطشة - الغربية - تريد فرض نظرتها ونظرياتها على الجميع، وهناك اعتبارات أساسية لابد وأن تؤخذ فى الحسبان عند تقييم مجمل علاقة المسلمين والآخر - الغرب - منها «أن طغيان العامل السياسى على العامل الثقافى فى مسار العلاقة مع الغرب أدى إلى تنامى الاتجاهات السلفية التى لم تكن تحتل نفس المساحة التى باتت تحتلها مع مرور الزمن فتعثر عمليات التحديث وتعقد إشكالية التفاعل مع الغرب - ولدا تلقائيًا مساحة أكبر للتيارات الرافضة للتوجه التحديثى لمشروع النهضة، والتى بدأت الترويج لفكرة مغلوطة تماثل التحديث بالتغريب لتدعو فى مقابلها بالعودة إلى الأصول أو الموروث، ويصبح التشكيك فى الثقافة الغربية بصفة عامة أمرا متسقًا مع طبيعة هذا الفكر ومنطقه»[1].

ولأن التاريخ سلسلة متصلة من الأحداث ولأن المسلمين لم يستطيعوا تجاوز نكبتهم الحضارية منذ قرون ولم يستطيعوا فى الوقت نفسه نسيان حضارتهم فإن نظرتهم للآخر الآن غالبًا ما تتم من خلال منظور تاريخى يربط ما يحدث معهم الآن بما حدث فى الحروب الصليبية وإجلاء المسلمين عن الأندلس، وما حدث فى الحقبة الاستعمارية الحديثة، لذلك لا يبدو غريبًا أن يسود التوجس تجاه الآخر والذى يترجم فى مجموعة من الصور النمطية عن الغرب.. وهى صور لا تقل سوءًا عن الصور النمطية الأخرى التى فى ذهن الآخر عن الإسلام والمسلمين.

وقد يكون التحفز الفكرى للمسلمين ضد الغرب مفهومًا للبعض، فى ظل سيطرة عقل الأزمة لكن ما أسباب التحفز لدى الآخر - الغرب - ضد المسلمين؟ هل الأسباب سياسية اقتصادية بحتة (البترول والموقع الاستراتيجى للعالم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الإسلامى) أم أن هناك أسبابًا حضارية تعنى أن الغرب يفكر بمنطق «أن الأرض ينبغى أن تنتمى إلى من يعرف كيف يستغلها إلى أقصى حد، أما صاحبها الأصلى فليذهب إلى الجحيم.. والاعتقاد بأن ما ينتمى إلى حضارة أكثر تقدمًا بالمعنى المادى البحت للكلمة من حقه أن يعيش على حساب المتخلفين أو حتى فوق جثثهم»[٢] وإذا كان ذلك حقيقيًا فهل تحفز الغرب ضد الآخر الحضارى يضع الإسلام والمسلمين على رأس قائمة الآخر المختلف أو المضاد؟ بمعنى أكثر تبسيطًا هل يكره الغرب المسلمين والإسلام أكثر مما يكره الهنود والهندوسية أو الصينيين والكنفوشيوسية؟ نستطيع أن نقول ذلك على غرب ما بعد ١١ سبتمبر فماذا عما قبل ذلك؟!

إننا هنا يجب ألا نتجاهل الحقائق التالية:

أولاً- أن العالم الإسلامى كان هو التجسيد الأكثر حضورًا لمعنى الشرق بالنسبة للغرب، وأن أطول الصراعات وأشدها عنفًا ودموية بين حضارات العالم هى الصراعات التى نشأت بين العالم الإسلامى والغرب، وقد لعب العامل الجغرافى فى ذلك دورًا مهمًا حيث كان حوض البحر المتوسط مسرحًا لهذا الصراع وحيث ظل العالم الإسلامى حاجزًا بين الغرب الأوروبى والعالم الآخر - الهند والصين - وقبل الكشوف الجغرافية لم يكن أمام الغرب الأوروبى من فرصة للتمدد سوى باتجاه الشرق أو الجنوب لكن قوته العسكرية لم تمكنه من ذلك» وما دفع بأوروبا الغربية لتقفز قفزة أوسع عبر المحيط إلى العالم الجديد هو ضغط العالم العثمانى من الشرق حيث أغلق طرق التجارة البرية مع الشرق الأقصى حتى اضطرت أوروبا قسرًا إلى البحث عن الطريق الدائرى البديل»[٣] ورغم الهروب الأوروبى إلى العالم الجديد إلا أن التنافس الاستعمارى خاصة فى آسيا وأفريقيا كان يعنى حصارًا للعالم الإسلامى، فلم يلبث أن أصبح العالم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الإسلامى جزءًا من ساحة التنافس بين الدول الاستعمارية خاصة فى القرن التاسع عشر، وحتى بعد انزواء الإمبراطوريات الاستعمارية العجوزة (فرنسا وبريطانيا) وظهور الولايات المتحدة كلاعب رئيسى على المسرح السياسى العالمى ظل الصراع الإسلامى الغربى قائمًا من خلال شكلين متشابكين هما: التنافس الغربى مع السوفيت والذى أصبح العالم الإسلامى أحد مسارحه المهمة، والصراع العربى الإسرائيلى، والذى دعم الغرب أحد طرفيه - إسرائيل - ثم اتخذ الصراع أشكالاً مختلفة عسكرية وثقافية بعد سقوط الاتحاد السوفيتى، فالهيمنة المطلقة للولايات المتحدة لم تقابل باعتراف من قبل جماعات الإسلام السياسى والتى رأت فى أمريكا تجسيدًا لمعانى الشر والطغيان.

ثانيًا - ورث العالم الإسلامى إمبراطورية شرقية كبيرة هى الإمبراطورية الفارسية فى حين ورث الغرب الإمبراطورية المضادة الرومانية الشرقية والغربية وغنى عن الذكر ما كان بين الفرس والروم من صراع وهو ما يمثل أحد الأبعاد الحضارية والتاريخية لفكرة الصراع.

ثالثًا - كان للدين وما يزال أثره فى إذكاء نار الصراع بين المسلمين والغرب، فالغرب لا ينسى أن الشام والشمال الأفريقى كاملاً كان محيطًا مسيحيًا خالصًا اجتاحه الإسلام سياسيًا فى فترة وجيزة ثم تحول إلى محيط إسلامى، وأنه رغم حالة الضعف الشديد التى تعيشها الأمة الإسلامية فإن الإسلام يحقق انتشارًا ملحوظًا ليس فى محيطه الأفريقى والآسيوى وإنما داخل المحيط الغربى - أوروبا وأمريكا - وإذا كان العالم الإسلامى قد انكمش جغرافيًا منذ القرن السادس عشر الميلادى فإن «هذا التراجع والانكماش هو عملية زحزحة وخروج وليس ردة دينية بطبيعة الحال، فيكاد الإسلام ينفرد بين الأديان جميعًا بأنه لم يعرف أى ارتداد عقائدى بمعنى التحول عنه إلى غيره، وإن عرف الانحسار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والتراجع الجغرافى فى أكثر من مرحلة وفى أكثر من جبهة»[٤] هذه الحقيقة تترجم إلى اعتزاز من قبل المسلمين بدينهم وحضارتهم الغابرة ورفض متزايد للنموذج الحضارى الذى يطرحه الغرب، كما تترجم إلى تحفز وتوجس من قبل اليمين الدينى فى الغرب وتطاول على الإسلام والمسلمين فى بعض الأحيان، مع ملاحظة أن هذا اليمين المتطرف ليس رجال دين فقط بل رجال سياسة واقتصاد وإعلام وعسكريين.. إلخ

وإذا كانت المجتمعات الغربية تصدر نفسها باعتبارها مجتمعات علمانية لادينية فإن المسلمين يرفضون تصديق هذه الصورة ربما للنشاط التبشيرى الذى تمارسه العديد من الهيئات الغربية وربما لتصاعد أصوات اليمين الدينى وانضمام بعض أفراده إلى النخبة الحاكمة خاصة فى الولايات المتحدة فى عهد جورج بوش الابن، وربما أيضًا بسبب الدعم الغربى غير المحدود لإسرائيل وظهور ما يعرف بالمسيحية الصهيونية والتى ترجمتها جماعات الإسلام السياسى إلى تحالف مسيحى يهودى موجه ضد الإسلام، وازداد تأويل سياسات الغرب على أساس دينى بعد أحداث ١١ سبتمبر، كما رد الغرب ظاهرة الإسلام السياسى وما تقوم به جماعاته من عنف إلى خلل فى بنية الثقافة الإسلامية باعتبارها ثقافة تحرض على العنف لذلك يمكن اعتبار أحداث ١١ سبتمبر نقطة فاصلة فى إضفاء ظلال دينية على الصراع الحضارى بين المسلمين والغرب، فبعد هذا الحدث المروع تزايدت «عمليات توظيف الدين ورموزه وتفسيراته وتأويلاته فى العلاقات العولمية والدولية، ولا سيما النزاعات حول الهوية والمصالح والحدود وتشكيلات عالم الما بعديات ولاسيما فى بناء التحالفات الدولية من مثل التحالف الدولى ضد الإرهاب كما حدث فى الحرب ضد تنظيم القاعدة وحكومة طالبان السابقة»[٥] وغير خفى أن استفادة بعض الدول غير الإسلامية من أحداث ١١ سبتمبر وتداعياتها خاصة إسرائيل والهند وروسيا بدرجة أقل وسعيها لاستثمار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحدث وتداعياته سياسيًا فى قمع أو تصفية عناصر إسلامية مناوئة ـ فسره المسلمون على أنه حرب ضد الإسلام.

رابعًا – إذا كان الغرب يصدر نفسه باعتباره النموذج المتفرد للحرية وحقوق الإنسان، فى حين يقر الإسلام بأنه الرسالة الخاتمة وأن منظومته العقائدية والأخلاقية هى الأفضل عبر التاريخ فإن كلا المعنيين لا يترجم إلى أفعال، ويظل فى أغلب الأحيان مجرد كلام، فالمسلمون بما تعانيه مجتمعاتهم من تخلف واستبداد سياسى وعنف لا يستطيعون تقديم صورة الإسلام الصحيحة التى يتحدثون عنها للغرب بشكل خاص أو للآخر بشكل عام، ويرد الغرب تخلف المجتمعات والدول الإسلامية سياسيًا و اقتصاديًا وعلميًا إلى الإسلام.. فى حين ينظر المسلمون لهذا التخلف باعتباره صناعة غربية مباشرة وغير مباشرة، من ناحية أخرى يكرس الغرب للإنطباع السائد لدى غالبية المسلمين بأنه حضارة مادية استغلالية بدعمه الدكتاتوريات الحاكمة، فى أماكن عديدة من العالم وليس فى أغلب الدول الإسلامية فقط «إن كثيرين – خصوصًا فى الغرب – يجب أن يسألوا أنفسهم أخيرًا لماذا يعجز بعض الزعماء الذين يتحدثون لغة الغرب ويقولون للغرب ما يحب أن يسمعه – عن أن يكونوا مسموعين فى أوطانهم وأن يحصلوا على ثقة مواطنيهم؟ إن قائمة مثل هؤلاء طويلة تبدأ بشانج كاى شك فى الصين، وسوهارتو فى أندونيسيا والشاه فى إيران وموبوتو فى زائير وماركوس فى الفلبين والسادات فى مصر – وربما آخرون غيرهم»[٦] ولعل ما تفسر به شرائح مختلفة من المسلمين هذه العلاقة الحميمة بين الغرب والأنظمة الدكتاتورية هو «التبعية» أو الموالاة من هؤلاء الحكام للغرب لحد اتهامهم بالخيانة والعمالة، وإذا كانت الحركات الإسلامية هى الأشد عنفًا فى هجومها على الغرب والأنظمة الإسلامية الموالية له فمن الملاحظ «أن الحركات الإسلامية بالنظر إلى طبيعة مشروعها العابر للدول والمجتمعات الإسلامية صاغت خطابها السياسى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حول طبيعة العلاقات بين هذه النظم والغرب على نحو عام وشامل وذلك دونما فحص لطبيعة علاقة كل نظام وصفوة حكم مع الغرب ونظمه السياسية ومؤسساته الإمبراطورية العابرة للقوميات ومن ثم فنحن إزاء خطاب يتسم بالعمومية وعدم التحديد»[٧] على أن هذا لا يعنى تطابق الصورة التى يطرحها الغرب عن نفسه مع الصورة الواقعية التى يراها المسلمون.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

● الفصل الأول

الآخر فى نظر المسلمين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يرى الإمام محمد عبده أن للإسلام ثمانية أصول متى التزم المسلمون بها كانوا فى حالة ازدهار وعلو وما تركوها كلها أو بعضًا منها لم يكونوا فى أحسن حال هذه الأصول هى:

١- النظر العقلى لتحصيل الإيمان.

٢- تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض

٣- البعد عن التكفير.

٤- الاعتبار بسنن الله فى خلقه.

٥- قلب السلطة الدينية بمعنى إلغاء الكهنوت والدولة الدينية.

٦- حماية الدعوة لمنع الفتنة.

٧- مودة المخالفين فى العقيدة.

٨- الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة.

ذلك هو الجوهر الحقيقى للإسلام فإذا حاولنا أن نترجم هذه الأصول إلى مبادئ فسوف نكتشف أن الإسلام يعنى: الإيمان الواعى، العقلانية، التسامح، البحث والتدبر والاستقصاء، العزة، التعددية، والوسطية فلا إفراط ولا تفريطا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وعدم الغلو، وكل هذه القيم لها علاقة مباشرة فى تحديد نظرة المسلم لنفسه ولمجتمعه وعقيدته وللآخر المختلف معه عقائديًا، وإذا كان غالبية المسلمين بما فيهم البسطاء قد استوعبوا هذه الأصول وطبقوها فى يسر وسهولة بغض النظر عن قدرة البسطاء اللفظية على التعبير عن هذه الأصوال إن هناك قطاعًا من المسلمين لم يستوعبها لإحجام منه وعدم قناعة أو لعدم فهم والمشكلة دائمًا أن الأعنف هو صاحب الصوت الأعلى وهو الذى ينال الشهرة سريعًا.

وككل مشاكل التى عانى منها الإسلام والمسلمون تبدأ مشكلة التعامل مع الآخر من الفتنة الكبرى والتى قسمت الأمة إلى ثلاث فرق: أهل السنة، الشيعة، والخوارج، وكان الخوارج هم الأعنف وهم الذين زرعوا فكرة تكفير الآخر.. فمن كان الآخر بالنسبة للخوارج؟ وماذا كانت تعنى كلمة الآخر؟ كان الآخر بالنسبة للخوارج هو من لا يكفر عليًا ومعاوية وعمرو بن العاص فمن لا يكفرهم فهو كافر، خطب أبو حمزة الشارى أحد الخوارج - على منبر مسجد المدينة المنورة فكان مما قال «يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم إلا مشركًا عابد وثن أو كافرًا من أهل الكتاب أو إمامًا جائرًا» خلط الخوارج بين السياسى والعقائدى، وكان الطابع السياسى هو الغالب على الخوارج فى بداية أمرهم ثم «مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهويته وأكبر من كان له أثر فى ذلك الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق وأهم ما قرره الخوارج فى ذلك أن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان وليس الإيمان الاعتقاد وحده فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر»[٨] لكن الملاحظ أنهم تسامحوا مع الآخر غير المسلم فيحكى أن «واصل بن عطاء رأس المعتزلة وقع فى أيديهم فادعى أنه مشرك مستجير ورأى أن هذا ينجيه أكثر مما تنجيه دعواه أنه مسلم مخالف لهم وكذلك كان»[٩].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذا الموقف المتطرف من الخوارج تبنته فيما بعد بعض جماعات الإسلام السياسى التى كفرت المجتمع المسلم، واستحلت ماله ودمه واعتبرته الآخر المعادى مع فارق جوهرى بين الخوارج وهذه الجماعات، هو أن الأخيرة كفرت المجتمع الإسلامى بالكامل بمن فيه من مسلمين وغير مسلمين.

ورغم هذا فإننا يجب أن نفرق هنا بين موقف الإسلام من الآخر وعقيدة هذا الآخر وبين موقف المسلمين من الآخر، فالإسلام يفرق بين الآخر وديانته على النحو التالى:

أولاً - يتميز موقف الإسلام من العقائد بالثبات فهناك عقائد يعتبرها الإسلام رسالات سماوية - اليهودية والنصرانية - جاء الإسلام ليكملها وليس ليهدمها يقول الرسول ﷺ مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء. ويقول تعالى ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ (المائدة: ٤٨).

ونلاحظ فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم إشادة بالشرائع السماوية السابقة على الإسلام وكتبها ورسلها، بل إن القرآن الكريم يدعو لتفعيل هذه الشرائع ووضعها موضع التنفيذ ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ**

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٦- ٤٧)، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٦٦)، ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران: ٤٥- ٥١).

إن الغاية القصوى التى يرجوها الإسلام من الآخر هى اعتناق الإسلام والسير بما جاء فيه لكن هذا لا يعنى أن الإسلام يرفض رفضًا تامًا المواقف والدرجات التى يتخذها الآخر ويكون فيها موضوعيًا فالموضوعية - إعلاء الحق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

- بداية الطريق لمعرفة الحق وأتباعه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥)، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨)، بل إن القرآن الكريم يشيد بموقف مجموعة من الآخر عرفوا الحق فأعلنوه واتبعوه ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٩)، ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٠) ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٦٢)، ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٢- ٨٣).

هذه المجموعات من الآخر يشيد الإسلام بموقفها رغم أنها مجموعات ليست مسلمة أى لم تعتنق الإسلام وتؤمن بالرسالة المحمدية لكنها مسلمة بالمعنى الأوسع للإسلام (ابتغاء وجه الله الحق فى كل قول أو عمل يقول به الإنسان دون النظر إلى المكاسب الشخصية).

وهناك عقائد يعتبرها الإسلام كفرًا وشركًا بالله وهى العقائد غير السماوية، وإن كانت هناك ملل لم يحسم أمرها كالصابئة والسامرة وإن اعتبرهم بعض

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الفقهاء المسلمين أصحاب شرائع سماوية دون أن يكون لهم كتاب سماوى ذلك أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (المائدة: ٦٩).

«وقد اختلفت أنظار المسلمين إلى الكتب السماوية السابقة والتى يتداولها أهل الكتاب الآن، فهناك من يرى أن التوراة كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة، وهى ليست التوراة التى أنزلها الله على موسى، وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض، وذهبت طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام إلى أن التبديل وقع فى التأويل لا فى التنزيل، وهذا مذهب البخارى قال فى صحيحه (يحرفون الكلم عن مواضعه) يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى ولكنهم يتلونه على غير تأويله وهذا هو ما اختاره الرازى فى تفسيره، ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها ولا يعلم عدد نسخها إلا الله، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير فى جميع تلك النسخ بحيث لا يبقى فى الأرض نسخة إلا مبدلة مغيرة والتغير على منهاج واحد، وهذا ما يحيله العقل ويشهد ببطلانه.. قالوا وقد بين الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام محتجًا على اليهود بها ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (آل عمران: ٩٣).. وذهبت طائفة ثالثة إلى أنه زيدت فيها وغُيرت ألفاظ يسيرة ولكن أكثرها باقٍ على ما أنزل عليه»[١٠]، نفس الكلام ينطبق على الإنجيل، ويشدد الإسلام على تجاهل التوراة والإنجيل المتداولين حاليًا للبشارة بالنبى الخاتم محمد ﷺ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ثانيًا - موقف الإسلام من الآخر المختلف فى العقيدة موقف يقر التغير فالسلم لمن سالم والعداء لمن عادى والقتال لمن قاتل.. إلخ، وهو موقف يتفق ووسطية الإسلام ومنطق الحياة، أما الهجوم العنيف الذى شنه القرآن الكريم على هذا الآخر فيجب النظر إليه تفصيلاً لا إجمالاً فالقرآن الكريم حين ينتقد بنى إسرائيل فى بعض المواضع ينتقدهم لعدم التزامهم بدينهم ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (الجمعة: ٥)، أو قوله على الله ما لا يجوز فى عقيدة التوحيد كقولهم يد الله مغلولة أو أن الله فقير وهم - أى اليهود - أغنياء أو لما ارتكبوه من منكرات ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ**﴾ (المائدة: ٧٨- ٨٠) «لكن النقد الذى يوجه القرآن الكريم لا يوجهه لكل اليهود ولكن للفئات الضالة التى اكتسبت عبر التاريخ صفات الجماعة الوظيفية وازدواجية الأخلاق هى إحدى سمات الجماعة الوظيفية»[١١] فالتعاليم التلمودية لا تعتبر الزنا بامرأة من الأغيار حرامًا فالحرام هو الزانى بيهودية، نفس الكلام يقال عن الربا، تجارة الرقيق الأبيض، تجارة السلاح.. إلى آخر المهن والأدوار التى تقوم بها الجماعة الوظيفية والتى تلقى نقدًا من الجميع وليس من الإسلام فقط.

أما النقد الذى وجهه القرآن الكريم لطوائف مختلفة من المسيحيين فيأتى فى إطار تأكيد الإسلام على معنى الوحدانية لله، وهى نقطة الخلاف الرئيسية بين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الإسلام والغالبية العظمى من الطوائف المسيحية المنتشرة فى العالم الآن، يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٢- ٧٥).

والإسلام لا يتحدث عن المسيحية الحقة وكأنها مجرد افتراض غير موجود أو كان يجب أن تكون، فالمسيحية التى يعترف بها الإسلام هى التى جسدها بولس السمساطى «الذى ينسب إلى مدينة سمساط والذى اعتلى عرش أسقفية انطاكية بين عامى ٢٦٠- ٢٦٨ وجهر بأن المسيح مجرد بشر عادى وأنه مخلوق شأن سائر الخلائق وأنكر ألوهيته» (١٢) وكانت محصلة آرائه «إنكار الثالوث الأقدس بقوله يوجد إله واحد تحسبه الكتب المقدسة بالأب وأن حكمته وكلمته ليست أقنوما بل إنها فى العقل الإلهى بمقام الفهم فى العقل الإنسانى»[١٣] كما أن المسيحية التى يعترف بها الإسلام قريبة من التعاليم التى دعا إليها «بيرلس» أسقف بصره والذى قال بأن المسيح لم يكن له وجود قبل ولادته من مريم.. إلى آخر الدعوات المسيحية التى انتشرت فى القرنين الثالث والرابع الميلادى والتى اعتبرتها الكنيسة مجرد هرطقة، إذ المسيحية التى يعترف بها الإسلام هى «المسيحية قبل أن تخرج من عباءة اليهودية وقبل أن يعقد لها القديس بولس القواعد الأربعة التى تقوم عليها»[١٤].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهنا لابد وأن نلاحظ أن نقد القرآن لليهود انصب على سلوكهم بشكل خاص وعلى بعض ما يقولونه مما يعد مخالفًا لتنزيه الله، أما نقد القرآن للنصارى فهو فى أغلبه نقد للعقائد التى يرى الإسلام أنها مناقضة للتوحيد، والإسلام يفرق بين الاختلاف العقائدى - فكل إنسان يؤمن بما يقتنع به - والاختلاف فى المعاملات فالحفاظ على سلامة المجتمع والدولة الإسلاميين هما الفيصل ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (الأنفال: ٦١)، ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (البقرة: ١٩٠).

هذا عن موقف الإسلام من الآخر وديانته، أما موقف المسلمين من الآخر فهو موقف إنسانى بحت يتأثر بحالة التقدم أو التخلف التى يعيشها المسلمون، وبدرجة عداء هذا الآخر أو صداقته أو حياده، ويمكن القول إن المسلمين ليس لديهم ثابت فى علاقتهم مع الآخر إلا ما يحدده الإسلام، لكن فهم المسلمين للإسلام يختلف من عصر إلى عصر، فتصور كثير من المسلمين للإسلام فى العصر العباسى» يختلف عن تصور المسلمين له فى العصور الأولى، فحياة العربى الساذجة البسيطة السهلة تعقدت، والديانات المختلفة تسربت والأعاجم الذين كانوا وثنيين أو مانويين أو نحوهم دخلوا فى الإسلام ولم تنق رءوسهم من كل ما علق بها من الديانات القديمة، وقد عاشوا فى المدنيات المركبة المعقدة، فنظروا إلى الإسلام بعيونهم، لا بالعين العربية الأولى، وحق ما يقال: إن الأمم وإن اتحدت دينًا فكل أمة يختلف نظرها فى تفاصيل دينها عن الأمم الأخرى، وهى تنظر إلى الدين من خلال تاريخها ونظمها الاجتماعية من خلال أديانها المتعاقبة، ومن خلال لغاتها وتقاليدها، ومن خلال ثقافتها وتربيتها»[١٥] ولو طبقنا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذا على تفسير المسلمين للقرآن الكريم «فيظهر أن تفسير القرآن كان فى كل عصر من العصور متأثرًا بالحركة العلمية فيه، وصورة منعكسة لما فى العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية من ابن عباس إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده، حتى نستطيع إذا جمعت التفاسير التى ألفت فى عصر من العصور أن تتبين فيها مقدار الحركة العلمية، وأى الآراء كان سائدًا شائعًا وأيها غير ذلك»[١٦].

لكن اختلافات المسلمين فى فهمهم للإسلام لن ولم تعنِب الضرورة أن روح التعصب ضد الآخر هى السائدة عند المسلمين، فهذا الاختلاف وذلك النزوح الجماعى من ديانات مختلفة إلى الإسلام والعيش بين ومع أبناء ديانات وملل مختلفة كان يعنى قبول المسلمين لمبدأ التعددية، وتفريقهم بين الآخر الداخلى (أهل الذمة) والآخر الخارجى الذى غالبًا ما كان معاديًا (دار الحرب)، بالطبع لم يخلُ الأمر من اضطهاد أو تمييز فى بعض الحالات لأسباب سياسية أو أمنية أو اقتصادية، لكنها لا تقارن بأى حال من الأحوال مع وضع الآخر فى أية حضارة أخرى.

غير أن قبول المسلمين بالآخر شهد تغيرًا مع الاحتلال الأوروبى للعالم الإسلامى منذ القرن الثامن عشر حيث «تكاتف المستعمرون الإسبان والبرتغاليون والهولنديون على نزع الطبيعة المتسامحة للإسلام الآسيوى، بما جاءوا به من حملات تبشيرية متعصبة، جاءت بالمسيحية فى خدمة الاستعمار، ثم وضعت المسيحية والإسلام فى خندقين متحاربين، وهو ما زرع بذور النزاعات المزمنة فى إندونيسيا والفلبين على وجه الخصوص»[١٧] بل وفى غيرها من المناطق والدول.

كما يعد عام ١٩٦٧ منعطفًا مهمًّا فى علاقة المسلمين بالآخر فقد تسببت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

النكسة فى عدد من النتائج التى شوهت العلاقة بين المسلمين والآخر ومنها:

١ - أن أنهيار الحلم القومى المبنى على أسس علمانية كان معناه البحث عن حلم ومشروع آخر مبنى على أساس دينى، فأفكار سيد قطب المتشددة لقيت القبول والانتشار بعد عام واحد من إعدامه «وكان لهذا علاقة بحرب الأيام الستة العربية الإسرائيلية فى يونيو ١٩٦٧، فالهزيمة المذلة الساحقة التى ألحقها الإسرائيليون بمصر مع تدمير سلاحها الجوى والاستيلاء على شبه جزيرة سيناء كان بمثابة ضربة شديدة لاشتراكية عبدالناصر العربية شبه العلمانية، مما خلق بيئة تميل إلى قبول وجهة نظر الإخوان المسلمين القائلة بأن المعتقدات الإسلامية التراثية قد أهملت أو كبتت بمعرفة الحكم الناصرى، وساد اعتقاد عام بين جماهير الناس بأن العرب قد هزموا لأنهم ابتعدوا عن الطريق القويم وعن تنفيذ تعاليم الله»[١٨].

٢ - فسر الدعم الغربى لإسرائيل والذى كان سببًا مباشرًا فى النكسة على أنه تكتل مسيحى يهودى ضد الإسلام والمسلمين، وزاد من هذا الإحساس قيام المتطرفين اليهود بإحراق المسجد الأقصى فى يوليو ١٩٦٩ مع استمرار الدعم الغربى - خاصة الأمريكى- لإسرائيل، وإذا كان الخطاب الإعلامى الإسلامى فى الستينيات والسبعينيات قد اعتبر النكسة حلقة ضمن حلقات المواجهة الحضارية بين العرب والغرب، فإن هذا الخطاب فى الثمانينيات والتسعينيات ومع علو صوت المسيحية الصهيونية اعتبر النكسة حلقة من حلقات صراع دينى بين الإسلام من جهة واليهودية والمسيحية من جهة أخرى، وازدادت هذه القناعة بالتحالف الذى تم بين الموارنة فى لبنان والإسرائيليين والذى كانت مذبحة صبرا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وشاتيلا إحدى نتائجه، فترى الجماعة الإسلامية المصرية مثلاً «أن مصطلح الصراع العربى الإسرائيلى قد أثبت فشله فى استعادة الأرض وحفظ المقدسات طوال أربعين سنة، وأن النصر على اليهود لن يتحقق إلا بعد أن يتغير مفهوم الصراع، فنتعامل معه ونعد له العدة على أساس أنه صراع إسلامى - يهودى»[١٩].

٣- كانت النكسة من أهم العوامل التى دفعت عددًا غير قليل من المصريين للهجرة، وكان منهم عدد كبير من الأقباط، مثلوا فيما بعد ما يعرف بأقباط المهجر، والذين مارس البعض منهم ضغطًا على الحكومات المصرية فيما يتعلق بقضايا حقوق الإنسان، وذهب هذا البعض لحد اتهام الحكومات باضطهاد الأقباط فى مصر وخنقهم لمصلحة الأغلبية المسلمة، بل وهدم الكنائس وتعليق المسيحيين على الصلبان.. إلخ وهو ما اعتبره المسلمون نوعًا من الابتزاز يتم بتحريض من أقباط الداخل، وتحالف غير مقدس بين هذه الفئة من أقباط المهجر والقوى العالمية، يتم بمباركة من أقباط الداخل، كان هذا يعنى ببساطة بالنسبة للمسلمين عدم القدرة على التمييز بين الآخر الداخلى الذى تسامحوا معه لقرون طويلة، والآخر الخارجى والذى غالبًا ما كان معاديًا للإسلام والمسلمين و«تحول أقباط المهجر إلى أسطورة شريرة من خلال تقديمها ككتلة متجانسة اجتماعيًا وثقافيًا ومن زاوية جنسياتهم الجديدة وبين أجيالهم المختلفة وانتماءاتهم المذهبية»[٢٠] وقد أدى كل ذلك إلى نمو التيارات الدينية - الإسلامية وغير الإسلامية.

إن رجل الشارع العادى فى العالم الإسلامى (المسلم، وغير المسلم فى أحيان كثيرة) ينظر إلى الغرب باعتباره الآخر المختلف والمتفوق حضاريًا أو الذى يمارس

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

القهر الحضارى عليهم، وإذا كانت الولايات المتحدة هى النموذج الغربى القاهر حضاريًا فقد تم اختزالها فى صور نمطية، «والصورة الذائعة لدينا عنها هى أنها بلاد شاسعة، بكر مليئة بالخيرات، يقطنها (كاوبوى) بلا أخلاق، لا يكف عن إطلاق الرصاص فى كل الاتجاهات، وهى صورة سينمائية شاعت فى الأفلام الأمريكية ذاتها طوال الثلاثينيات والأربعينيات وظلت عالقة فى الأذهان العربية حتى ولو توقف إنتاجها فى أمريكا ذاتها وانتقل منها إلى إيطاليا، وهى صورة لا يلبث أن تعززها الأحاديث التى تشير إلى الوفرة الأمريكية والمقامرة والعنف من أجل الحصول على المال سواء كان ذلك من خلال تجارة العبيد أو الرأسمالية الشرهة المتوحشة أو من يسمون البارونات اللصوص، للدلالة على شخصيات مثل روكفلر وفورد وفاندر بيلت وديلون وراند فالرأسمالية الأمريكية تظهر وكأنها راكمت ثرواتها من أرض الهنود الحمر التى صادرتها أو سرقتها، ومن جهد العبيد الذين جلبتهم وأذاقتهم المر لكى يكونوا لها ثروة لا تستحقها، ولا شك أن هذه الصورة بها جزء من الحقيقة»[٢١].

أما جماعات الإسلام السياسى - مع التحفظ على المصطلح - قد نظرت للغرب باعتباره الآخر الخارجى المعادى والذى يهدف للقضاء على الإسلام والمسلمين ويتحالف فى ذلك أو يتواطأ مع الآخر الهندوسى أو البوذى أو الصينى.. إلخ.

فأدبيات جماعة الإخوان المسلمين تمتلئ بالحضور التحفيزى الهجائى للغرب «حيث يظهر هذا الكيان الغربى الهائم الجاثم على العالم كله بكلكله، أسطوريًا وغامضًا ودهريًا مهووسًا باللذات والحواس، والعدوانية والبربرية. وتبدو الحياة الاجتماعية الغربية ذات أسس مادية بحتة، وأن هذه الأسس تهدم ما جاءت به

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأديان السماوية وأن الإلحاد والإباحية والتهافت على اللذة والأثرة والأنانية والاستغلال المقنن فى المعاملات الربوية، كلها مظاهر مادية أنتجت فى المجتمع الأوروبى فساد النفوس وضعف الأخلاق والتراخى فى محاربة الجرائم»[٢٢].

ولا يختلف موقف الإخوان المسلمين من الآخر الخارجى (الغرب) عن موقف أغلب جماعات الإسلام السياسى، بل إن هذا الموقف ازداد تشددًا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وبعد أن صنفت الولايات المتحدة غالبية الجماعات الإسلامية باعتبارها جماعات إرهابية وما تلى ذلك من حرب فى أفغانستان واحتلال للعراق ومحاولة تغيير المناهج التعليمية.. إلخ.

وماذا عن موقف المسلمين من الآخر الداخلى الآن والذى ظل يعيش داخل المجتمع الإسلامى فى وئام منذ الفتح الإسلامى؟ لقد تعرض هذا الآخر لأعمال عنف واضطهاد أو تمييز قليلة على مدى التاريخ الإسلامى، لكن الجرعة ازدادت بشكل ملحوظ منذ السبعينيات وحتى التسعينيات من القرن العشرين، «وقد أرجعها المحللون الغربيون إلى غياب الديمقراطية كنظام وثقافة فى هذه المجتمعات - الإسلامية - إلا أن هذا ليس العامل الوحيد، فتعرض المسلمين لأعمال العنف المنظم وشبه المنظم فى شتى أرجاء العالم، يعد عاملاً من عوامل توالد العنف المضاد، كما أن أساليب إدارة العلاقات الدولية فى الواقع المعاصر خاصة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية دون مراعاة لمصالح الدول الأخرى خاصة الإسلامية، والتشدد المبالغ مع الدول الإسلامية كما هو الحال بالنسبة للعراق وإيران، والتأييد شبه المطلق للدول المعادية لدول إسلامية كإسرائيل على سبيل المثال، كل هذه الأمور والتى برزت فى حالات عديدة على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

مستوى العالم من فلسطين إلى تيمور الشرقية هيأت مناخًا للعنف السياسى فى الدول الإسلامية»[٢٣].

وإذا عدنا إلى عقد السبعينيات من القرن العشرين سنكتشف أن هناك عددًا من الأحداث التى أسهمت فى نمو حركات الإسلام السياسى ومنها حركات غير متسامحة مع المسلمين وغير المسلمين، من هذه الأحداث استعانة الرئيس السادات بالتيار الدينى للقضاء على الماركسيين والناصريين فى الوقت نفسه الذى دخل فيه السادات فى نزاع مع رأس الكنيسة القبطية - البابا شنودة الثالث، وما واكب ذلك من فتنة طائفية فى مصر، اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، وهى الحرب التى أعادت لأذهان المسلمين خاطر التوجس من الآخر الداخلى، فقد لعب الموارنة دورًا لا ينسى أثناء الحروب الصليبية ثم عادوا لإشعال الحرب بين اللبنانيين واللاجئين الفلسطينيين فى لبنان، وسرعان ما تحولت إلى حرب بين المسلمين والمسيحيين تلقى فيها الجانب المسيحى دعمًا غربيًا ثم إسرائيليًا، فى هذا العقد أيضًا وفى توقيتين متقاربين اندلعت الثورة فى إيران وغزا السوفيت أفغانستان، فطرحت وسائل الإعلام العربية الصديقة للغرب الغزو باعتباره هجومًا من القوى الملحدة ضد الإسلام وتعالت دعوات إعلان الجهاد، فى الوقت نفسه الذى قرر فيه الخومينى إجراء استفتاء حول مسألة: هل ينبغى أن تصبح إيران جمهورية إسلامية؟ «وأشارت التقديرات الرسمية إلى أن نسبة من ذهبوا للإدلاء بأصواتهم وصلت إلى ٨٩٪ وهى نسبة عالية للغاية لم تتحقق من قبل، وأن نسبة من صوتوا لصالح إقامة حكومة إسلامية وصلت إلى ٩٨,٢٪ وهى تعكس أصوات ١٠٢٥١٠٠٠ من الناخبين الذين قالوا نعم، فأعلن الخومينى أن يوم أول إبريل هو اليوم الأول لحكومة الله»[٢٤]، كان نجاح الثورة الإيرانية عنصرًا تحفيزيًا لجماعات الإسلام السياسى والتى رأت إمكانية تكرار التجربة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مع ما يتطلبه ذلك من مواجهات مع أنظمة الحكم أو الآخر الداخلى والخارجى الذى لا يسره أو يرضيه قيام دولة إسلامية، فقد كانت الثورة الإيرانية «نموذجًا مبهرًا أو مثلاً أعلى للعمل الثورى للجماعتين، الجهاد والجماعة الإسلامية - بل وغيرهما - وهم يؤكدون على مؤازرتهم لهذه الثورة وتمجيدها، ولكن مع التأكيد دائمًا على اختلافهم مع مذهب الثورة واعتقاداتها الشيعية»[٢٥]، لكن الاختلاف بين الواقع الإيرانى وغيره فى أى من دول العالم الإسلامى كان شديد العمق، وهو ما لم يستوعبه كثير من قادة جماعات الإسلام السياسى، فلم يكن أى من هؤلاء القادة يمتلك الثقل الدينى أو الحنكة السياسية التى للإمام الخومينى، وربما لم يدر بخلد واحد من هؤلاء الطبيعة الخاصة جدًا لارتباط الشيعة بأئمتهم وتمويل الجماهير للثورة من خلال «الأخماس» وهى أمور لا يوجد لها مثيل بين أهل السنة، وتأكد هذا عندما بدأ الصدام بين هذه الجماعات وأنظمة الحكم، إذ شعرت هذه الجماعات بخيانة الجماهير لها وعانت من تمويل أنشطتها، فلجأ بعضها للسطو على محلات الذهب والمجوهرات التى يمتلك أغلبها فى مصر - مسيحيون، فى حين سعى فريق آخر لتحقيق انتصارات إعلامية تعوض خسائره العسكرية، فلم يجد خيرًا من الاعتداء على الكنائس أو السائحين لتحقيق هذه الانتصارات الإعلامية والتى ظن أنها ستحرج أنظمة الحكم أمام الرأى العام العالمى، وستضطرها للدخول معه فى مفاوضات لا يخرج منها مهزومًا.

ونعود لنؤكد على أن جماعات الإسلام السياسى فى العديد من الدول الإسلامية لا تمثل غالبية المسلمين، وفى أحيان كثيرة لا تحظى بثقل جماهيرى، أو لا تحظى أعمالها العنيفة بأى تأييد جماهيرى، فقد «رأى قادة منظمة الجهاد أن عملية اغتيال السادات هى حافز للعمل على تحويل كراهية المسلمين المصريين لحكم السادات القمعى الفاسد إلى ثورة ضد نظام الحكم القائم،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والعمل على قيام منظمة الجهاد بمحاولة عسكرية تهدف إلى تفجير ثورة إسلامية شاملة، وقد عبر المصريون العاديون عن موافقتهم على اغتيال السادات بأن أحجموا عن المشاركة فى الحداد العام على موت الرئيس ولكنهم لم يفعلوا شيئًا بخلاف ذلك، وقد أدى هذا الموقف إلى شعور قادة منظمة الجهاد بالإحباط الشديد»[٢٦].

وإذا جاز أن نصف موقف المسلمين من الآخر الداخلى بأنه موقف متسامح مادام هذا الآخر لا يقيم علاقات مباشرة مع الآخر الخارجى (تلقى منح أو دعم سياسى أو تدخل خارجى فى شئون الدولة بسببه.. إلخ) فإن «عملية تحديد مواقف الجماعات السياسية الإسلامية من إشكالية العلاقة مع غير الدينى (الآخر) فى إطار صياغتهم النظرية للنسق الإسلامى الكلى، أمرًا من الصعوبة بمكان فى ظل ندرة مادة التحليل البحثى، ومن ثم فإن تحديد ما إذا كان هناك نسق أو نموذج محدد تطرحه هذه الجماعات - باستثناء الإخوان المسلمين - أمر يكتنفه قدر من الغموض النظرى لدى الجماعات الأخرى التى ليست لها جذور جماهيرية أو أصولية، وهو الأمر الذى سوف يؤثر سلبًا فى تحديد ما إذا كان هناك نموذج محدد لهذه العلاقة - بخلاف النموذج التاريخى - فى ظل أى تغيير نظامى فى المجتمع»[٢٧].

إن ما يهمنا هنا هو معرفة موقف جماعات الإسلام السياسى من الآخر الداخلى وهل تعترف هذه الجماعات بحقوق المواطنة الكاملة للآخر، والحقيقة التى لا يستطيع أحد أن ينكرها هى ذلك التصور الساذج لأغلب هذه الجماعات عن الحكم والسياسة وشكل وجوهر الدولة، فكثير منها توقف تفكيره عند الشكل البسيط للدولة الإسلامية فى عهد النبوة والراشدين، دون تفكير فيما فرضته مستجدات العصر، هذا التصور لا نجده عند جماعة مثل الإخوان المسلمين، وهى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جماعة اكتسبت خبرات سياسية غير قليلة، وإذا قفزنا على تاريخ الإخوان لنصل للحظة الراهنة ولنتعرف على موقفهم من الآخر الداخلى وحقوقه، فإن رؤية الآباء المؤسسين لجماعة الإخوان المسلمين لحقوق الآخر الداخلى تقوم على «أن نسق الأحوال الشخصية خاضع لشرائعهم - شرائع الآخر - وأن نسق المعاملات مشترك قومى وتاريخى بين المسلمين والأقباط (وغيرهم) وأنه لا يوجد خلاف كبير بين هذا المشترك وبين الأنساق القانونية المطبقة فى العالم الحاضر، ونستطيع أن نجد تطويرًا لهذا الاتجاه لدى بعض المنظرين المحدثين للإخوان المسلمين، فيدعو «سعيد حوى» غير المسلمين فى كل قطر من أقطار الأمة الإسلامية إلى ميثاق عمل يعترفون فيه بأن السلطة للإسلام والمسلمين، وهو يرى أن هذا عقد المسلمين معهم منذ قرون، ثم بعد ذلك فلهم حقهم فى وزارات الدولة بنسبة عددهم، ولهم حقهم فى مجالسها النيابية بنسبة عددهم، ولهم حقهم فى إنشاء مدارسهم الخاصة، وهم يشتركون فى المدارس العامة، ولهم حقهم فى محاكمهم أن تكون على مقتضى شرعهم مع حقهم فى الاحتكام إلى المحاكم العامة، وحقهم فى الضمان الاجتماعى محفوظ، وفى تصريف شئونهم الدينية أيضًا، أما الجزية فهم بالخيار بين أن يدفعوها ويعفوا من الخدمة الإجبارية، أو يشاركوا فى هذه الخدمة»[٢٨].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المسلمون والإسلام
فى
نظر الآخر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إذا كان الإسلام يفرق بين العقيدة ومن يعتنقها فإن نظرة الآخر لا تفرق بين الإسلام والمسلمين، فكل ديانة تعتبر أنها الحق، بل ومنها ما يعتبر نفسه الديانة الخاتم وما جاء بعدها مجرد ضلال، فاليهود لهم مفهوم خاص عن الله (يهوه)، فهو الإله الحق لكنه إلههم هم وحدهم، إله بنى إسرائيل (وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا وتدعو اسمه إسحق، وأقيم عهدى معه عهدًا أبديًا لنسله من بعده) «سفر التكوين، إصحاح ١٧. الآية ١٨- ٢٠» ومن لا ينتسب إلى بنى إسرائيل فهو من الأغيار، ذلك لأن بنى إسرائيل باركهم الرب (فليعطك الله من ندى السماء، ومن رسم الأرض، وكثرة حنطه وخمر. ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل. كن سيدًا لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين. ومباركوك مباركين) «سفر التكوين، الإصحاح: ٢٧، الآيات ٢٨- ٢٩».

أما المسيحية فلم تقم على أساس عنصرى كاليهودية؛ لكنها تعتبر نفسها الديانة الخاتم، ومن لا يؤمن بها فهو كافر؛ هذا الحكم ينطبق على الجميع، مع استثناء بسيط لليهود وذلك للارتباط التاريخى المعروف بين السيد المسيح واليهود.

وإذا كان الإسلام قد قال كلمته وحدد موقفه من المسيحية منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرناً فإن الكنيسة الكاثوليكية لم تعلن موقفها من الإسلام إلا فى عام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

١٩٦٤ بل إن شئنا الدقة لقلنا إنها أعلنت رأيها فى المسلمين وليس فى الإسلام فقد جاء فى قرارات مجمع الفاتيكان «أن الكنيسة تنظر أيضًا بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد الحى القيوم الرحيم، أنهم يعظمون المسيح كنبى وإن كانوا لا يعترفون به كإله، يحترمون أمه البتول وأحيانًا يذكرونها بكل تقوى ثم إنهم يرجون اليوم الآخر يوم يجزى الله جميع الناس بعد البعث وهم بالتالى يقدرون الحياة الأخلاقية ويعبدون الله خاصة بالصلاة والزكاة والصوم» قبل هذا القرار كانت الكلمة الشائعة لوصف المسلمين هى «الكفرة» أو الهراطقة أو أعداء الله فقد اعتبر الصليبيون النورمان فى جنوب إيطاليا «اليهود والهراطقة والمسلمين جميعًا أعداء الله ونظروا إليهم بقدر متساوٍ من الكراهية الشديدة»[٢٩] بل إن الصليبيين اعتبروا المسلمين وثنيين وبمثل هذه الصفات حشد البابا أربان الثانى جيوش الصليبيين لتحرير بيت المقدس من المسلمين الكفرة الهراطقة الوثنيين وأعداء الله.

أما موقف الكنيسة الأرثوذكسية والبروتستانتية من الإسلام فمازال يدور فى فلك اعتبار الإسلام مجرد هرطقة، مع ملاحظة تأثير العالم الجغرافى وطريقة التكوين، فبحكم القرب الجغرافى بين الأرثوذكسية والعالم الإسلامى، ومعيشة أغلب الأرثوذكس داخل العالم الإسلامى، أصبحت العلاقة أكثر ودًا وأقل عداء بين المسلمين والأرثوذكس - باستثناء حالات نادرة - أما البروتستانتية الأبعد جغرافيًا عن العالم الإسلامى والتى خرجت من عباءة الكاثوليكية بدموية شديدة ثم تحالفت مع اليهودية فقد اتخذت موقفًا عدائيًا ضد الإسلام، ووصف أكثر من مستشرق «مارتن لوثر» مؤسس البروتستانتية بأنه من المتعصبين ضد الإسلام، وبأن كتاباته كانت أقرب إلى الدعاية الصليبية منها إلى الحقائق.

ورغم أن المسيحية متمثلة فى الأناجيل الأربعة المعترف بها لم تذكر شيئًا عن الإسلام لأن الإسلام ظهر بعد كتابة هذه الأناجيل بقرون، إلا أن آباء الكنيسة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

اعتبروا المسيحية هى الدين الخاتم، ونفوا بالتالى أن يكون الإسلام دينًا سماويًا، كما نفوا أن يكون السيد المسيح قد بشر برسول الإسلام محمد ﷺ وقد كان لانكماش الدول المسيحية خاصة الدولة الرومانية وتراجع انتشار المسيحية فى العالم منذ القرن السابع وحتى القرن السادس عشر الميلادى أمام المد الإسلامى كدين وحضارة ودولة، كان لهذا الانكماش دور مهم فى تكوين نفسية مسيحية معادية للإسلام والمسلمين، كانت الدولة الرومانية تجسيدًا للمسيحية كأمم وحضارة، وعندما انهارت الدولة وتقلصت أُصيب المسيحيون خاصة الغربيين بحالة من الحزن والحنق والدهشة، ولأنهم غير مقتنعين بالإسلام فقد بحثوا عن تفسير منطقى يبرر من وجهة نظرهم هذا التمدد الإسلامى والانكماس المسيحى، وكان المبرر هو شراسة المسلمين ودمويتهم ووحشيتهم وعدم وجود رادع أخلاقى أو إنسانى لديهم حتى إن «الكاردينال بيساريون» كتب إلى دوق البندقية يصف له سقوط القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين بقوله: «إن مدينة كانت مزدهرة، فخامة الشرق ومجده، ملاذ كل الأشياء الطيبة قد تم الاستيلاء عليها ونهبها تمامًا وإفسادها على يد أكثر البرابرة لا إنسانية على يد أكثر الوحوش البرية وحشة»(٣٠).

وقد لعبت الحروب الصليبية دورًا لا يمكن تجاهله فى تشويه صورة الإسلام فقد «استمر تيار الدعاية يتدفق ضد المسلمين بالأكاذيب إلى جميع أنحاء أوروبا، التى أمدت الحروب الصليبية بالمال والعتاد قرونًا عديدة، ولم تكن الأنباء التى يحملها العائدون من المعركة قريبة من الصدق، ومن أجل ذلك فقد امتلأت عقلية السواد الأعظم من أبناء أوروبا بكثير من المعلومات المكذوبة عن الإسلام والمسلمين، ولم تتمكن حركة تثقيف الشعوب فى العصر الحديث من إزالة هذه الأفكار بعد، ويكفى للدلالة على ذلك أن نرجع إلى الأدب الشعبى فى أوروبا من إيطاليا إلى إنجلترا لنجد عددًا لا يحصى من الأحكام غير الصحيحة على عقيدة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المسلمين وعاداتهم بصفة عامة، وعلى محمد نبى المسلمين ﷺ بصفة خاصة»[٣١].

ورغم أن الحال انقلب تمامًا منذ القرن الثامن عشر حيث بدأ العالم الإسلامى فى الانكماش السياسى والعسكرى والجغرافى وعاد العالم المسيحى للتمدد بالاستعمار والتبشير والتوطين فى العالم الجديد إلا أن النظرة المسيحية الغربية للإسلام والمسلمين لم تتغير، والملاحظ أن العقل الغربى قد وقع فى تناقض غريب فى هجومه على الإسلام؛ ففى المرحلة التى تمددت فيها الدولة الإسلامية أرجع الغربيون ذلك إلى دموية المسلمين وروح العداء التى يبثها الإسلام وحين انكمشت هذه الدولة وانتقل المسلمون من طور التقدم إلى طور التخلف أرجع الغربيون ذلك إلى روح الخمول والتواكل التى يبثها الإسلام فى معتنقيه فهو يقف - أى الإسلام - بتعاليمه حجر عثرة أمام التقدم العلمى فكيف يجمع الإسلام النقيضين!!، إن المستشرق الأمريكى الشهير «أرفينج» يفسر التقدم والتخلف الذى أصاب المسلمين بسبب واحد وهو الجبرية فيذهب إلى أن محمد ﷺ أقر مذهب الجبرية فكان ذلك إلهامًا معجزًا لحدوثه فى أنسب أوقاته فقد أقنع محمد ﷺ أصحابه بأن كل ما يقومون به من أفعال سبق وأن أقره الله عليهم، وأصدر محمد ﷺ هذا القانون لأصحابه ليقنعهم بأن «لامفر للإنسان من أن يتوفى فى ساعة أجله فى فراشه كان أو فى ساحة الوغى، أية عقيدة يمكن أن يصورها صاحبها أدق من هذا عن يقين بالفىء لمن يبقى والجنة لمن يموت، ولقد جعلت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يغلبه غالب، لكنها احتوت كذلك السم الذى يقضى على سلطانه فمنذ اللحظة التى كف فيها خلفاء النبى على أن يكونوا غزاة فاتحين، ومنذ أغمدوا سيوفهم بصفة نهائية بدأت العقيدة الجبرية تعمل عملها الهدام، فقد أرهف السلم أعصاب المسلمين كما أرهفها المتاع المادى الذى أباحه القرآن»[٣٢].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بالتأكيد يخلط «أرفينج» بين فكرة الجبرية التى يرفضها الإسلام وبين الإيمان بالقضاء والقدر، بل ويتجاهل تماما فكرة الحساب التى يشدد عليها الإسلام ويتناسى العوامل المختلفة المؤثرة فى نمو وصعود وهبوط الأمم والحضارات وقد كتب «أرفينج» هذا الكلام قبل قرن تقريبًا، وقبل أن يصرخ العالم الغربى من صعود تيار الإسلام السياسى الذى تؤمن جماعاته بالقضاء والقدر والحساب والمقاومة والاستشهاد والجهاد مع اختلاف معانيه ومفاهيمه فهل كانت الجبرية أيضًا هى السبب فى هذا البعث الإسلامى المتشدد؟

إذا كان موقف الإسلام يفرق بين الآخر - أهل الكتاب - وديانته فيمكننا أن نصف موقف الإسلام من الرسالات السماوية السابقة بأنه موقف ثابت مبنى على تعليمات إلهية وهو موقف إيجابى، أما موقف الإسلام من الآخر - أهل الكتاب وغيرهم - فهو موقف متغير، السلم لمن سالم والعداء لمن عادى بغض النظر عما يؤمن به هذا الآخر.

أما موقف الآخر - أهل الكتاب - من الإسلام فهو موقف ثابت أيضًا ويتسم بالسلبية، وهو موقف ثابت بنى آراء آباء الكنيسة ورجال الدين فى الحالة المسيحية وبنى على ما جاء فى التوراة المتداولة حاليًا، إضافة لآراء رجال الدين اليهودى، وهى فى كلتا الحالتين اليهودية والمسيحية تنكر الإسلام كدين أو كرسالة سماوية أما موقف هذا الآخر من المسلمين فهو موقف شبه ثابت فإذا كان الإسلام هرطقة ودينًا وثنيًا فلابد وأن يكون المسلمون هراطقة وكفرة ووثنيين وأعداء الله، هذا النظرة صدرت فى العصور الوسطى عن خطاب دينى مسيحى له توجه سياسى فقد ورث المستشرقون هذه النظرة وحافظوا عليها، واستطاعت الثقافة الغربية عن طريق الاستشراق «أن تتدبر الشرق بل حتى أن تنتجه سياسيًا واجتماعيًا وعسكريًا وعقائديًا وعلميًا فى مرحلة ما بعد عصر التنوير.. إن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الشرق بسبب الاستشراق لم يكن - وليس - موضوعًا «حرًا» للفعل أو الفكر»[٣٣].

إن الصور النمطية الرديئة التى أنتجها العقل الغربى عن الإسلام والمسلمين فى العصور الوسطى كانت هى النواة التى تمركزت حولها عملية الاستشراق ورغم أن الاستشراق فى ظاهره عملية علمية لدراسة الشرق وديانـاته ومكوناته ومجتمعاته وأخلاقياته.. إلخ إلا أن الحقيقة المخزية هى أن هناك عددًا محدودًا من المفردات والصور التى فرضت نفسها على المستشرقين، والتى كرست لها عملية الاستشراق حتى أن مخالفة أحد المستشرقين لهذه الصور والمفردات كان شبه مستحيل «لقد كان أحد الضوابط المقيدة التى أثرت على المفكرين المسيحيين الذين حاولوا فهم الإسلام ينبع من عملية قياسية فمادام المسيح هو أساس العقيدة المسيحية فقد افترض - بطريقة خاطئة تمامًا - أن محمد كان للإسلام ما كان المسيح للمسيحية ومن ثم إطلاق التسمية التماحكية - المحمدية - على الإسلام والنعت الآلى المنتحل على محمد، ومن هذا التصور وكثير غيره تشكلت دائرة مغلقة لم يكسرها حتى مرة واحدة التخريج التخيلى، فقد كان التصور المسيحى للإسلام متكاملاً ومكتفيًا بذاته أصبح الإسلام صورة، غير أنها فيما يبدو لى تنطوى على دلالات مهمة للاستشراق بشكل عام، لم تكن وظيفتها أن تمثل الإسلام فى ذاته بقدر ما كانت تمثل الإسلام للمسيحية القروسطية»[٣٤] كان الغرب ومايزال يلخص الإسلام فى عدة صور مشوهة لا يقبل سواها حتى وإن أكد المسلمون قولاً أو فعلاً عكس هذه الصور.

وتمثلت هذه الصور فى كون الإسلام نسخة مشوهة أو صورة معدولة ضالة للمسيحية «لقد كدست فوق محمد فى العصور الوسطى حزمة من الخصائص التى تطابقت مع شخصية أنبياء الروح الحرة - فى القرن الثانى عشر- الذين ظهروا فى أوروبا وادعوا أنهم صادقون وجمعوا وراءهم أتباعًا وبطريقة مشابهة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فما دام محمد قد اعتبر ناشرًا لوحى زائف فقد أصبح هو، كذلك تجسيدًا للشبق والفسق والشذوذ الجنسى وسلسلة كاملة من الخيانات المتنوعة التى اشتقت جميعًا بصورة منطقية من انتحالاته المذهبية»[٣٥].

ومادام الإسلام نسخة مشوهة للمسيحية فالمسلمون يعبدون ثالوثًا يمثل محمد أحد أركانه بل إن محمدًا كان قسيسًا نشر هرطقته عندما وصل لقناعة باستحالة جلوسه على كرسى البابوية ومادام محمد هكذا فالإسلام هرطقة آرية من الدرجة الثانية، فى هذه الدائرة المغلقة دار الاستشراق والمستشرقون، ولم تستطع الغالبية العظمى من المستشرقين طرح وجهات نظر مختلفة عن الإسلام حتى أن «أوكلى» عندما قال إن المسيحيين الأوروبيين يدينون للمسلمين بأول ما عرفوه عن الفلسفة كان رأيه صدمة مؤلمة للجمهور الأوروبى وهو ما دفع «أوكلى» لأن يتبرأ من التأثير المعدى للإسلام، وخلافًا لزميله وليم وستن وهو خليفة نيوتن فى جامعة كمبردج فقد أوضح دائمًا أن الإسلام كان هرطقة مستنكرة وعلى الطرف الآخر فإن حماسة «وستن» للإسلام أدت إلى طرده من جامعة كمبردج عام ١٧٠٩»[٣٦] كان الاستشراق عملية علمية - مع التحفظ على الوصف - بدأتها أوروبا لغرض معرفى غير برىء من أجل الحاجة إلى معلومات جغرافية وتاريخية، إثنية ودينية عن العرب والمسلمين تمهيدًا لاستعمار بلادهم، ولقد أفاد المستشرقون من الكتابات اليونانية والرومانية والبيزنطية التى كانت تنظر للشرق نظرة دونية، يتجلى ذلك فيما صنف هيرودوت واسترابون، وديوكاسيوس وبلينى ويوسبيوس وغيرهم، لقد كتب هؤلاء معارفهم عن الشرق فى مناخ تشبع بالعداء والصراع التقليدى بين الشرق والغرب، لقد نظر هؤلاء إلى الشرق باعتباره موطن المتبربرين، وحتى مصر الفرعونية وبلاد الشرق الأدنى التى شهدت حضارة مزدهرة نقل عنها اليونان لم تسلم من تلك النزعة، ولم تكن بلاد العرب فى نظرهم إلا صحراء قاحلة يسكنها أجلاف البدو»[٣٧].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كانت هذه الكتابات إذًا هى المرجعية الثقافية لما كتبه المستشرقون، مضافًا إليها موقف الكنيسة الغربية من الإسلام كدين وموقف أوروبا العصور الوسطى من الإسلام كقوة سياسية وعسكرية، ثم أعيد بعث هذا المزيج الفكرى الغريب على يد الرأسمالية الاستعمارية الغربية المتطلعة للغزو والاستعمار «لذلك تأسست حركة الاستشراق فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا، حيث جرى إعداد باحثين يجيدون اللغة العربية بلهجاتها المتنوعة، ويحيطون بمعلومات أولية عن الإسلام ويتنكرون فى لباس عربى تحت أسماء عربية، ثم جاسوا خلال العالم ينقبون ويبحثون عن كنوز تراثه، وقد أسفرت جهودهم عن كشف الكثير من المظان التراثية التى انكبوا على دراستها، تلك الدراسات التى توخت هدفين هما:

١ - تقديم أبحاث علمية دقيقة وصحيحة عن العالم الإسلامى ليفيد منها الساسة الأوروبيون فى مشروعاتهم الاستعمارية.

٢- تقديم التراث العربى الإسلامى بنظرة شوهاء تكرس العرقية والطائفية والإقليمية بين الشعوب العربية والإسلامية، ولا غرو فقد كان معظم هؤلاء المستشرقين من أمثال ليوتى، ولورانس، وتيراس وغيرهم، من رجال الإدارة فى المستعمرات»[٣٨]، لذلك وصف البعض الدراسات الاستشراقية الغربية بأنها تلونت بصبغة مسيحية ثأرية لم تتجاهل الضغط الإسلامى على أوروبا منذ القرن السابع وحتى القرن الخامس عشر.

وكان من المنطقى أن تنتقل هذه النظرة الغربية إلى قرون تالية «فقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (مودة) تقديم القرآن (الكريم) للقارئ الأوروبى باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية بالإضافة إلى قليل من الزيادات المحدودة، ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة، والواقع أن هذه النظرة تعد بقية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من بقايا الدعاية المسيحية التى سادت فترة الحروب الصليبية عندما كان على أوروبا التى كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام - أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام»(٣٩) إن «الغرب ذاته فى ظل تجربته الوحشية معنا كمحتل صنع عبر جهازه الاستشراقى والمعرفى بعضًا من هواجسه ومتخيلاته، صورًا نمطية عنا كشرق، أو كإسلام، أى ينطوى جهازه المعرفى وإنتاجه على بعض الصور النمطية عنا، ويعيد إنتاجها»(٤٠).

وانتقلت هذه الصور الدفاعية المشوهة إلى مختلف الفنون والآداب، وعندما ظهر فى الغرب فن جماهيرى جذاب هو فن السينما طرح صانعو هذا الفن صورًا نمطية مشوهة عن الإسلام والعرب، حتى قبل ظهور البترول وجماعات الإسلام السياسى «فطوال القرن العشرين والسينما الأمريكية تسجل صورة الشخصية العربية بملامح تتغير لتزداد سوءًا، وبالنسبة للأمريكيين ظل العرب يمثلون خلاصة الآخر أى الشخص الذى يختلف جذريًا عنا والذى يجسد المحظورات المحرمة والملعونة فى مجتمعنا، إنه الإنسان الذى تبعثه السينما حيًا على الشاشة بملامح تتشكل من وحى خيالنا نحن الجماعى، فالعربى كما نراه يرتكب أعمالاً مرعبة ويتلقى جزاءه المرعب المناسب عليه»(٤١) إن الصورة النمطية للعربى ظهرت مع بدايات السينما وذلك من خلال فيلم «رقصة المحجبات السبعة» والذى أنتجه استديوهات توماس أديسون عام ١٨٩٣ ثم توالت الأفلام ففى العشرينيات بلغ عدد الأفلام التى تدور حول موضوعات عربية ٨٧ فيلمًا وظهر العربى المسلم بالضرورة فى هذه الأفلام إما كمهرج أو إنسان شبق يختطف النساء خاصة الأوروبيات كما فى فيلم ابن الشيخ للنجم «رودلف فالنتينو».

أما فى الستينيات فظهرت صورة سلبية جديدة للعربى الغادر المخرب الذى يفجر القنابل فى الطائرات وداخل المؤسسات ويقود عمليات الدعارة والتمرد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وتهريب المخدرات وفى نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات تبدو ملامح الإنسان العربى أكثر خطورة بكثير، «ففى فيلم (الأحد الأسود) ١٩٧٧ يصبح إرهابيًا لا يعمل وحده وإنما ضمن منظمات إرهابية عاتية تضم نساء لا تقل وحشية عن الرجال وفى فيلم (اشانتى) ١٩٧٩ الذى يشارك فى بطولته الممثل العربى عمر الشريف يظهر الممثل بيتز استينوف كتاجر رقيق عربى وشهوانى وكسول يقوم باختطاف زوجة طبيب يهودى - مايكل كين - ويساعده فى عمله أحد المشايخ الأثرياء»[٤٢] وإذا كان الصراع العربى الإسرائيلى قد أسهم فى الترويج لهذه الصور النمطية عن العرب والمسلمين فالملاحظ أن هذه الصور ظهرت قبل ظهور هذا الصراع - ١٨٩٣- وهو ما يعنى أن نظرة صناع السينما الغربيين خاصة الأمريكيين نبعت من اعتبار العربى والمسلم هو الآخر الذى يجب أن يقف بالضرورة على النقيض من الأنا، ولأن الأنا تحب دائمًا أن تبدو شجاعة، متسامحة، أخلاقية، متفوقة، عادلة... إلى آخر الصفات الحميدة فلابد إذًا أن يتصف الآخر بكل الصفات النقيضة الخسيسة غير الإنسانية وأن يكون بالضرورة بعيدًا عن الإيمان.

ويحصر د. بهجت قرنى أستاذ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية فى القاهرة الأنماط الأمريكية الذائعة عن العرب والمسلمين فى خمسة أنماط كلها تبدأ بحرف B، «النمط الأول هو البدوى Bedouin وهو نمط ليس بالضرورة سلبيًا فى الواقع لأنه يعرف عنه الكرم فى العادة ويحاول مساعدة الآخرين ويحاول العيش فى بيئة بالغة القسوة، ومع ذلك فإن هذا النمط لا يصور هكذا وإنما فى العادة يظهر غادرًا منحلاً متكالبًا على النساء، ولديه ميل مستمر للخطف والصراع والقبلية والغزو وانتهاك حرمات الآخرين، كذلك الحال مع النمط الثانى وهو الراقصة الشرقية Belly Dancer، وهى بدورها نوع من الفن الشعبى المتوارث عبر العصور ومع ذلك فإنه يؤخذ كتعبير عن الانحلال والإغراء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والعهر والجريمة، أما النمط الثالث فهو رجل البازار Bazaar Man، وهو رجل فى العادة يوجد فى كل المجتمعات، وفى العادة يحافظ على الحرف القديمة والفن القديم والتقليدى ويبقى منها أثرًا للإنسانية، إلا أنه ما أن يصل إلى الإعلام الغربى حتى يصبح مثلاً للمساومة الممجوجة والسعى الدائم لسرقة وخداع الآخرين، والنمط الرابع هو البليونير Billionaire وهو نمط جديد نسبيًا أتى إلى الإعلام الغربى بعد الثورة النفطية ويصور دائمًا الأغنياء العرب الذين حصلوا على ثروة لا يستحقونها، وراحوا ينفقونها ببذخ وسفه على النساء والقمار، والنمط الخامس هو الإرهابى Bomber وعادة ما يضاف له صفة العربى أو المسلم، وهو ما لا نجد له شبهًا عند التعامل مع الإرهابيين الآخرين فى العالم، فلم يحدث أن وصف الإرهابيين فى جماعة بادرماينهوف بالألمان أو جماعة الألوية الحمراء بالكاثوليك، وبالتالى فإن صفة الإرهابى تتعدى صفتها الإجرامية الاستثنائية وتصبح صفة لاصقة بشعب ودين، والنمط السادس الذى أضفناه هو المتخلف Backward وعبر عنه بيرلسكونى رئيس الوزراء الإيطالى وكذلك أشكروفت المدعى العام الأمريكى، وكلاهما حاول التمييز ما بين أديان متقدمة وأديان متخلفة من حيث بناؤها وتركيبها وما تطلبه من أتباعها»[٤٣].

إن مثل هذه الصور النمطية التى تطرح عن المسلمين والعرب ليست فقط من صنع العقل الغربى، فيجب أن نعترف بأن سلوك بعض العرب والمسلمين يتوافق تمامًا وما تطرحه هذه الصور، غير أن المشكلة التى وقع فيها العقل الغربى هنا تتجسد فى نقطتين: الأولى هى تعميم هذه الصور النمطية على الكل أو الغالبية العظمى من العرب والمسلمين فبدلاً من أن يقال بعض العرب دمويون أو إرهابيون وهى سمات يمكن تعميمها على أفراد من كل الأجناس والديانات، كرس لاعتبار كل أو أغلب العرب والمسلمين دمويين أو إرهابيين. النقطة الثانية أن العقل الغربى رد مظاهر العنف التى يمارسها بعض العرب أو المسلمون إلى الإسلام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وليس إلى ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية تصنع من أى إنسان فى أى مكان إنسانًا عنيفًا أو دمويًا أو إرهابيًا، هذا التحليل الساذج المسيس هو الذى طرحته وسائل الإعلام الغربية خاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وهو الذى أكده ودعمه العديد من المفكرين الغربيين، وهو تحليل يخرج بقضية العنف من كونها ظاهرة اجتماعية إلى التعامل معها باعتبارها قضية عقائدية، وهنا مكمن الخطورة حيث إن إصلاح هذا الخلل يقتضى من الغرب بالضرورة التدخل فى مفاهيم وقيم الإسلام «فالتفسير الغربى يرد جذور العنف إلى الخصائص البنيوية للثقافة الإسلامية قديمة وحديثًا ثم يضيف إليها خصائص البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الراهنة فى العالم الإسلامى والتى تتمثل فيما يسمونه سياسات الدولة الفاشلة وإخفاقات التنمية مشفوعة بمستويات عالية من البطالة والفقر اللذين يغذيهما معدلات مرتفعة من الزيادة السكانية، فنحن أمام عالم مدفوع ذاتيًا بالرغبة فى العنف ومحاط - موضوعيًا - بركام من الإحباطات والإخفاقات التى لا تترك له خيارًا إلا الاندفاع وراء الانتقام والثأر»(٤٤).

إن العقل الغربى الآن وفقًا لمثل هذه التحليلات يرتد ذاتيًا وبمساعدة جماعات الإسلام العسكرى إلى عقلية القرون الوسطى والتى كانت تفترض فى الآخر أنه شرير ثم تعاقبه لأنه شرير، بغض النظر عما إذا كان هذا الشر حقيقة أم مجرد وهم صنعته الأنا تجاه الآخر.

لقد وضع المسلمون الفاتحون السياسة فى خدمة الدين - تهيئة الأجواء للدعوة - أما المستعمر الغربى فسخر الدين لخدمة السياسة - الحملات التبشيرية كممهد للاستعمار ومكرس له «وهنا تتأكد المسئولية الاستعمارية فى جانبها الدينى المتعصب، ليس باعتبارها ميراثًا تاريخيًا انتهى وإن بقيت آثاره

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تفعل فعلها ولكن - أيضًا - باعتباره عملاً مازالت تباشره هذه المراكز الاستعمارية فإنه من وجهة نظر الغرب يدخل تحت مظلة حقوق الإنسان ويتم دعمه وحمايته حتى يصل إلى الانفصال تحت مسمى الاستقلال عن الدولة الإندونيسية، والسلوك ذاته حين يلجأ إليه المسلمون فى جنوب الفلبين فإنه من وجهة النظر الغربية ليس شيئًا من حقوق الإنسان وإنما هو عنف لابد أن يدان ولابد أن تتحول الفلبيين إلى مراكز لمحاربة العنف الإسلامى فى جنوب شرق آسيا»(٤٥).

وإذا كنا نرفض مقارنة عقيدة أو دين أو أيديولوچية بمجموعة بشرية فإن وضع الإسلام فى مقابل الغرب لا يعنى التراجع عن هذا، ذلك أن الغرب ليس معنى مجردًا والعناوين التى تذكر الإسلام والغرب تختزل فى كلمة الغرب المسيحية البروتستانتية واليهودية، ورغم أن الكثيرين خاصة فى الغرب ينفون وقوف الغرب كحضارة أو دول أو أديان فى مواجهة الإسلام فإن الاختلافات بين الرؤى الرسمية الغربية التى اتصفت بالبرجماتية التى ترفض وجود علاقة بين السياسات العدائية للعرب والمسلمين وبين الموقف المعادى من الإسلام، وبين الرؤى غير الرسمية القائلة أو الرافضة لوجود تهديد إسلامى للغرب، هذه الاختلافات ليست جديدة ولكنها من صميم الفكر الغربى المعاصر تجاه عالم الإسلام والمسلمين بل تمثل استمرارية وتجديدًا للفكر الاستشراقى، ومن ثم فهى تأخذ فى اعتبارها وبعمق عامل البعد الحضارى الثقافى وتتأثر به، فهى لا تعتبر العالم الإسلامى مصدر تهديد لاعتبارات سياسية أو اقتصادية فقط، ولكن لاعتبارات قيمية وثقافية أيضًا، هذا فضلاً عن المخاوف من تزايد الوجود الإسلامى فى الغرب»(٤٦).

والغرب ليس إلا بشرًا يحملون عقائد أو أفكارًا ويسعون للحياة وفقًا لتصوراتهم ومخزونهم الثقافى وبالطريقة التى تناسبهم والتى يرون أنها الأصوب،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ووفقًا لهذا تتحدد السياسات الغربية تجاه الإسلام والمسلمين وبغض النظر عما هو صواب أو خطأ فى هذه السياسات فإن هذه السياسات يصنعها بشر، نخب حاكمة، جماعات ضغط، توجهات جماهيرية.. إلخ، ومن هذا المنطلق يصبح الحديث عن اليمين الدينى فى الغرب حديثًا يتسق وموضوعنا، وذلك للدور المتعاظم الذى يلعبه اليمين الدينى فى رسم وتحديد سياسات الغرب تجاه الإسلام والمسلمين والذى بلغ من القوة حدًا لا يمكن إنكاره مع تولى جورج بوش الابن رئاسة الولايات المتحدة، فبعد عام واحد من رئاسة بوش علق «رالف ريد» المدير السابق للائتلاف المسيحى والمستشار السياسى للحزب الجمهورى فى أطلانطا بقوله: إن اليمين المسيحى لم يعد بحاجة لأية منظمات لأنه أصبح فى أعلى دوائر السلطة. ويمثل هذا التيار فى إدارة بوش الابن كل من: جون اشكروفت وزير العدل، كارل روف مستشار الرئيس، كاى كول جيمس مدير إدارة الاستخدام فى الحكومة الفيدرالية، دون ايبرلى مدير إدارة دعم المؤسسات الدينية فى البيت الأبيض، ويدهورن مساعد وزير الصحة، وإذا كانت الأجندة الأخلاقية لليمين الدينى فى الغرب تتوافق وتعاليم الإسلام (محاربة العلاقات الجنسية غير الشرعية والعلاقات المثلية والإجهاض، الدعوة للاحتشام فى عروض السينما والتليفزيون.. إلخ) فإن الأجندة السياسية والعقائدية لهذا التيار هى التى تمثل تعديًا على الآخر وتهديدًا له فمنظمة «شالسيدون» مثلاً ترفض مبدأ التعددية بل تصف التعددية بأنها «كلمة قذرة بدعوى أنها تحمى الهراطقة بتفسيرات متعددة للكتاب المقدس كما تهاجم المنظمة مبدأ الحرية الدينية ومبدأ التسامح الدينى لأنهما يعطيان الفرصة للفرد لارتكاب أخطاء لاهوتية، ويقول رشدون - رئيس المنظمة وقائدها - إنه باسم التسامح الدينى قد يطلب من المرء المؤمن أن ينخرط فى القبول العام بالملحدين والمنحرفين وأتباع الأديان الأخرى.. وتدافع المنظمة عن تطبيق عقوبتى الإعدام والرجم فى المخالفات الدينية مثل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ممارسة الجنس خارج المؤسسة الزوجية والمثلية الجنسية والهرطقة واتباع مذاهب أو أديان كاذبة»[٤٧] أما الأجندة السياسية لهذا اليمين الدينى المتطرف فتنطلق من تفسيرات للكتاب المقدس ترمى لأهداف تقسم الناس على أساس عقائدى وتعاملهم على هذا الأساس.

أما أبرز بنود الأجندة السياسية لتيار المسيحية الصهيونية فهو الدعم المطلق لإسرائيل ومنع انسحابها من أراضى الفلسطينيين؛ لأن قيام دولة إسرائيل هو أولى بشائر عودة المسيح والتى ستكلل - العودة - بمعركة هرمجدون والتى سيخوضها اليهود والمسيحيون ضد الروس والعرب الكفرة، وتعتمد الأصول الفكرية لليمين الصهيونى على ركيزتين هما: أرض الميعاد، والشعب المختار، وعندما نترجم هاتين الركيزتين إلى أقوال وأفعال نجدهما تعنيان إعادة اليهود إلى أرض فلسطين بكل السبل والنظر للذات باعتبارها المجموعة الأسمى التى فضلها الرب وجعل باقى البشر خدمًا لها، ذلك أنها بما اختصها به الله لابد وأن تتمايز وتعلو على هذا الآخر الكافر الذى رفضه الرب؛ لأنه لا يستحق أن يكون من الشعب المختار، وإذا كان المسلمون جزءًا من هذا الآخر - الكافر - فإن الإسلام يصبح بالضرورة «دين عنف يريد أن يسيطر ثم يدمر إذا كانت هناك حاجة.. وهؤلاء الإرهابيون لا يحرفون الإسلام بل يطبقون ما فيه.. والإسلام خدعة هائلة والقرآن سرقة دقيقة من الشريعة اليهودية ومحمد كان قاتلا، والتفكير فى أن الإسلام دين سلام هو خيال ومحمد كان إرهابيًا.. إلخ»[٤٨].

على الجانب الآخر من الأطلسى فإن اليمين المتطرف فى أوروبا صاحب التوجهات العنصرية على أسس عرقية له موقف هو الآخر من الإسلام والمسلمين، فدعوة هذا التيار لإغلاق أوروبا الغربية فى وجه المهاجرين تتطرق فى كثير من الأحيان للمطالبة بطرد المهاجرين أو معاملتهم كمواطنين من الدرجة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الثانية والثالثة «والعرب فى الأغلب والمسلمون بشكل أكثر عمومية هم الذين تستهدفهم تلك الحركات فى المقام الأول فانتقد برونومجريه Bruno Megret فى فرنسا ما أسماه أسلمة فرنسا ووصف بيم فورتيون فى هولندا الإسلام بالثقافة المختلفة»[٤٩] فى حين ذهب «كينيث كريستنسن» قائد تنظيم شباب حزب الشعب الدنماركى إلى ضرورة شن حرب ثقافية ضد الإسلام.

هذه التيارات المتطرفة والتى تنفى الآخر - المسلم - وتراه نقيضًا لها تمامًا، وتتعامل مع الإسلام باعتباره دينًا وضعيًا ونسخة مشوهة للمسيحية، هذه التيارات رغم تعاظم قوتها لا تنفى إن هناك من قبل بفكرة التعددية وتعامل مع الآخر - المسلم- باعتباره مختلفًا وليس مضادًا أو نقيضًا بالضرورة بل وأعلن أن الطريقة السهلة هى النظر «إلى الإسلام والإحياء الإسلامى باعتباره تهديدًا - أى نضع تهديدًا إسلامياً عالميًا ذا طبيعة أحادية أى عدو تاريخى تتعارض ديانته وأولوياته بشكل قياسى مع ديانة الغرب وأولوياته، هذا الاتجاه يؤدى إلى تأييد النظم العلمانية بأى ثمن تقريبًا (بغض النظر عن قمعية هذه النظم) بدلاً من المخاطرة بحكومة إسلامية ذات توجه إسلامى تصعد إلى سدة السلطة، أما الطريق الأكثر صعوبة فهو التحرك إلى ما وراء الأنماط السهلة والصور الجاهزة والإجابات الجاهزة، رؤية الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية من منظور إمبراطورية الشر كانت لها تكاليفها، كذلك أيضًا فإن اتجاه الحكومات ووسائل الإعلام لأن تساوى بين الإسلام والأصولية الإسلامية وبين الراديكالية والإرهاب ونزعة معاداة الغرب يعيق فهمنا ويحكم استجاباتنا على نحو خطير»[٥٠].

إن كثيرًا من وسائل الإعلام أو المفكرين الغربيين الذين يوصفون بالموضوعية وتحرى الدقة وقبول التعددية يخلطون بين الحركات السياسية العنيفة والتى توصف بأنها حركات إسلامية وبين الإسلام، وإذا كان هناك من يرد هذا الخلط

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إلى جهل بالإسلام أو بعد عن ديار المسلمين، فقد يكون الأمر كذلك بالنسبة للبعض أما البعض الآخر فإنه يمارس الخلط عن عمد بما لديه من تصورات استشراقية عن الإسلامية وبما يمتلك من عقلية قروسطية متعصبة ترفض كل ما يقوله المسلمون عن أنفسهم وعن الإسلام.

وإذا كان كثير من الكُتَّاب المسلمين قد كتبوا عن السيد المسيح والسيدة مريم، نبى الله موسى، يحيى، زكريا ـ عليهم جميعًا السلام ـ بشكل يتفق وما يأمر به الإسلام من الاحترام والتقدير وما أثبته التاريخ من حسن السلوك والورع فإن البعض من الآخر، لم يجد غضاضة فى السير على نفس الدرب، كان من هؤلاء د. نظمى لوقا الذى ألف عدة كتب عن الإسلام لم يبخس فيها الإسلام حقه، أيضًا كان من هؤلاء مونتجمرى وات، وكارليل، توماس آرنولد وغيرهم.. هؤلاء يحتكمون فى تقييمهم للإسلام والرسول ﷺ والمسلمين إلى التاريخ ليقول كلمته، إن كان الإسلام ديانة اخترعها محمد، وإن كان محمد مهرطقًا، وإن كان المسلمون وثنيين يؤمنون بثالوث ممسوخ.. أم العكس؟ ولعل التباين الواضح بين موقف الفريق الأخير وموقف المستشرقين واليمين الدينى - من الإسلام - يوضح ما يلى:

١ - أن المحدد للرؤية والحكم على الإسلام هو المنظور الذى يرى منه هذا الفريق أو ذاك أو المنهج الذى يسعى الآخر لرؤية الإسلام من خلاله حيث تتعدد المناهج ما بين علمى، دينى، سياسى.. إلخ.

٢- يرى الذين ينظرون للإسلام من خلال منظور دينى أن الإسلام مجرد هرطقة أو هو فى أحسن الأحوال اقتباسات من العهد القديم تم توفيقها؛ لتلائم جزيرة العرب فى القرن السابع الميلادى.

٣- يمثل الإسلام خطرًا اقتصاديًا وسياسيًا وسكانيًا وربما عسكريًا من وجهة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

نظر الذين ينظرون إليه من منظور سياسى، وإذا كان الخطر العسكرى هو السمة البارزة فى العصور الوسطى فقد ظهر الخطر الاقتصادى مع اكتشاف البترول، وظهر الخطر السكانى مع تزايد هجرة المسلمين للغرب فى القرن العشرين، وظهر الخطر السياسى العسكرى فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين مع تحالف كثير من الدول الإسلامية مع الاتحاد السوفيتى، ثم عاود الظهور بطريقة أخرى مع اندلاع الثورة الإسلامية فى إيران ونجاحها فى إقصاء نظام الشاه الموالى تمامًا للغرب، ثم مع ظهور تيار الإسلام السياسى الرافض للغرب وانتهاء بأحداث الحادى عشر من سبتمبر.

٤- يطرح الذين ينظرون للإسلام من خلال منظور علمى (دراسات تاريخية غير استشراقية، دراسات اجتماعية أو حضارية..) يطرحون فكرة إمكانية التعايش مع الإسلام، فهو كأيديولوجية وليس حتى كدين سماوى تتسم بالواقعية (الوسطية) كان له إسهامه فى بناء الحضارة الإنسانية، ويفرق هؤلاء بين الإسلام وسلوك المسلمين خاصة جماعات العنف السياسى ويردون هذا السلوك لأسباب اجتماعية وسياسية وليس لبنية الثقافة الإسلامية.

٥- فى أحيان كثيرة ينظر الغرب للإسلام من خلال منظورين هما الدينى والسياسى، كما يفعل اليمين الدينى وهو ما يعنى استغلال العقائدى أو الدينى لخدمة السياسة أو تبرير السياسة بمبررات دينية، وفى كلتا الحالتين يصبح الإسلام دينًا يحرض على العنف وانتهاك الآخر، ويصبح المسلمون هم الأغيار، الأعداء الكفرة الوثنيون الهراطقة الإرهابيون.. إلى آخرالصفات التى تبرر التعامل معهم بأى شكل ودرجة من أشكال ودرجات القوة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هل الصدام أمر حتمي؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

«المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام. فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته وهاجسه ضآلة قوته.. المشكلة المهمة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات المركزية الأمريكية ولا وزارة الدفاع، المشكلة هى الغرب: حضارة مختلفة شعبها مقتنع بعالمية ثقافته، ويعتقد أن قوته المتفوقة إذا كانت متدهورة، فإنها تفرض عليه التزامًا بنشر هذه الثقافة فى العالم. هذه هى المكونات الأساسية التى تغذى الصراع بين الإسلام والغرب»[٥١].

قد تبدو العبارة السابقة للكاتب السياسى الأمريكى صامويل هنتنجتون تحليلاً مكثفًا يفسر حالة الصدام بين الغرب والإسلام، حيث يعتز كل فريق بثقافته ويرى أنها الأفضل والطريق الصحيح؛ لأن يعيش البشر حياة مثالية تقترب من درجة الكمال.. هذا ما قد يبدو للوهلة الأولى وهو ما قد يتأكد فى أذهان المتطرفين من الفريقين عند قراءة كتاب هنتنجتون «صدام الحضارات» وتطبيق ما جاء فيه على ما يحدث الآن من صدام بين عدد من الدول الغربية وعدد من أنظمة الحكم فى دول إسلامية أو جماعات سياسية وعسكرية ترفع الراية الإسلامية، بل ويمكن لهؤلاء وأولئك اعتبار أحداث الحادى عشر من سبتمبر نقطة البداية الحقيقية للصدام، أو لحظة إعلان الحرب، وكان هنتنجتون تنبأ بما يحدث قبل حدوثه بأعوام قليلة.

لكن التدقيق فيما كتبه هنتنجتون يكشف أن نظرية صدام الحضارات ليست

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إلا «خريطة جديدة لإدارة الأزمات التى تنتج عن عوامل الصراع الحقيقى.. وجدول أعمال يغير من مواقع الأولويات للأوضاع الاقتصادية والسياسية الفعلية، وهو ما من شأنه أن يساهم مساهمة نشطة فى تزييف وعى المواطنين فى مختلف بلدان العالم، ويفضى ذلك جميعًا إلى صرف الانتباه عما يجرى فى الواقع العالمى بحيث يتم تحريك الأطراف المختلفة بكفاءة واقتدار لخدمة مصالح بعينها، بعيدة عن مصالح أوسع فئات الجماهير سواء فى الشرق أو الغرب»[٥٢] كما يقول د. صلاح قنصوة.

إن الحديث عن حتمية الصراع بين الإسلام والغرب يمثل لعبة فكرية يتم خلالها الترويج لافتراض وتفسير كل ما يحدث فى ضوء هذا الافتراض، حتى يتم إقناع العديد من الأطراف بأن ذلك الافتراض كان نبوءة صحيحة تمامًا، لكن ذلك الافتراض خلط بين عدد من الحقائق وتجاهل عدد آخر وقفز إلى النتيجة مباشرة، فإن كان افتراض صدام الحضارات قد أجاب على سؤال ماذا؟، فإنه تجاهل باقى الأسئلة: لماذا وكيف ومتى وأين؟ بل إن الإجابة عن ماذا تظل مجرد افتراض.

والمقارنة بين الإسلام والغرب أمر غير جائز، فلا تجوز المقارنة بين دين ومجموعة بشرية، وحتى وإن كان المقصود هو المقارنة بين الحضارة الإسلامية والغربية أو الثقافة الإسلامية والغربية، فإن ما بين الاثنتين من اختلافات لا يدعو إلى التصادم ولا يفرض حتمية لهذا التصادم.. ومع من سيصطدم الغرب، وما هى القوة التى تجسد الإسلام أو ستجسده والتى سيدخل الغرب فى صدام معها؟!!.

الولايات المتحدة الأمريكية هى التى تجسد الدولة المركزية للحضارة الغربية أما الحضارة الإسلامية فتفتقد الآن لدولة مركزية، وعكس ما استنتج هنتنجتون فإن غياب هذه الدولة ينفى إمكانية الصدام الحضارى، قد يؤدى غياب هذه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الدولة لاستمرار الصراعات الداخلية والخارجية، لكنها تظل صراعات محدودة لا تأخذ شكل الصدامات الحضارية الكبرى.

وقد تحدث هنتنجتون عن ست دول يتردد الحديث عن إمكانية أن تصبح أيٍ منها دولة المركز للحضارة الإسلامية، وهى: إندونيسيا، باكستان، إيران، السعودية، مصر، تركيا، لكن أيًا من هذه الدول لا تتوافر لها الآن المقومات الاقتصادية أو السكانية أو الجغرافية التى تمكنها من زعامة العالم الإسلامى، وإذا كان هنتنجتون يرشح تركيا لقيادة العالم الإسلامى مستقبلاً، بما لديها من التاريخ وعدد السكان والمستوى المتوسط من النمو الاقتصادى والتماسك الوطنى والتقاليد العسكرية لكى تكون دولة مركز[٥٣] وذلك فى حالة إعادة تعريف نفسها كدولة إسلامية لا علمانية، خاصة وأنها تنفرد بين الدول الإسلامية بصلاتها التاريخية الواسعة بمسلمى البلقان والشرق الأوسط وشمال إفريقيا وآسيا الوسطى»[٥٤] لكن الصلات التاريخية لتركيا بدول وشعوب الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والتى كانت خاضعة لها لقرون تعتبر نقطة ضعف لتركيا وليست نقطة قوة، فالحكم التركى العثمانى لهاتين المنطقتين لم يترك آثارًا حسنة فى نفوس الشعوب وهو ما ترجم فى الثورة العربية الكبرى التى قادها الشريف حسين فقد «أعلن الحسين قيام الثورة باسم العرب على الترك صباح يوم السبت ٩ شعبان سنة ٣٣٤هـ - ١٠ يونيو سنة ١٩١٦ - فى مكة، وأصدر الحسين بيانًا مطولاً دعا فيه العرب إلى شد أزر الثورة والانضواء تحت علمها، باعتبارها ثورة قومية، أعلنت لتحرير العرب وإحياء الدولة العربية، التى قضى عليها الترك»[٥٥]، ولم تكن هذه الثورة مجرد ثورة قومية تهدف لإنهاء الوجود التركى من الأراضى العربية، فقد كان من أهم أهدافها «إعلاء كلمة العرب فى إطار الخلافة الإسلامية.. وأحقيتهم بها، مما جعل شريف مكة هو المرشح قبل غيره لكى يقود تلك الثورة، معبرًا عن الأمانى القومية للعرب ومنطلقًا فى الوقت ذاته من مكانة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

دينية و روحية، فلقد ضج العرب لعدة قرون من سيطرة العناصر غير العربية على الخلافة الإسلامية واستئثارهم بها»(٥٦)، يضاف إلى ذلك البعد التاريخى للعلاقة بين تركيا وإيران وحالة العداء التى كانت بين الدولة الصفوية والعثمانية، وإذا كانت بعض أسباب هذا الصراع قد زالت بزوال الملكية من الدولتين وبعضها يمكن أن يزول فى ظل قيادة إسلامية موحدة فإن الاختلاف المذهبى بين إيران الشيعية وتركيا السنية مازال قائمًا.

معنى ذلك أن أيًا من الدول الإسلامية الست المرشحة لقيادة العالم الإسلامى لن تتمكن من أن تصبح دولة مركز للعالم الإسلامى فى الوقت الحالى أو المستقبل القريب، وإنها لن تمثل الثقل السياسى الذى لدولة المركز ما لم تتحالف جميعها سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا على أساس صحيح، وهو ما لن يحدث إلا إذا التزمت جميعها بالديمقراطية بشكل حقيقى وانضمت لهذه الدول الست دولة تمثل إفريقيا المسلمة جنوب الصحراء.

وباستثناء إيران فإن باقى هذه الدول الآن تمتلك علاقات مع الغرب تتراوح بين الجيدة، الممتازة، الاستراتيجية، فمن الذى يمكن أن يصطدم مع الغرب الآن؟ إنها الجماعات والتيارات المعروفة بجماعات الإسلام السياسى وهى نوعين: الأول: الانعزالى المستغرق فى التراث والصدامى فى الوقت نفسه، وهذا التيار يعادى الجميع - الغرب والشرق ومجتمعاته الإسلامية، وتصطدم هذه الجماعات بأنظمة الحكم فى دولها قبل أن تصطدم بالغرب. وغالبًا ما تتم تصفيتها سريعًا.

الثانى: لا يرى استحالة التعاون مع الغرب اختلافه معه، وإن كان يصر على تغيير بعض الدول الغربية لسياساتها غير العادلة، ويؤمن هذا التيار بأن التصدى للغرب لا يعنى بالضرورة المواجهة العسكرية مع هذه الدول الغربية، بل إنه يمكن غزو هذه الدول من الداخل بنشر الإسلام فيها، كما أن التصدى للغرب بشكل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

خاص والآخر بشكل عام يستلزم إصلاح المجتمعات الإسلامية لتصبح أكثر قوة وتقدمًا، وهو ما لن يتحقق ما لم تأخذ هذه المجتمعات بأسباب التقدم العلمى.

ورغم أن هذه المجتمعات أو تلك تتحدث باسم الإسلام إلا أن الإسلام لا يتجسد فى قوة سياسية أو عسكرية واحدة «وهكذا فإن الإسلام اليوم يبقى دينًا وليس حضارة ذات دولة مركزية تقودها فى مواجهة الحضارات الأخرى؛ والحضارات تقوم وتزدهر ثم تهزم وتأفل، لكن الدين يبقى جزءًا جوهريًا من النسيج الروحى المكون للبشر ولا يمكن لأحد انتزاعه، وبهذا الفهم يمكننا أن نؤكد أنه لن تحدث أبدًا حرب (تقليدية أو نووية) بين الحضارتين الإسلامية والغربية وفقًا للرؤية الهنتنجتونية لصراع الحضارات، والاحتمال الوحيد الوارد – وهو ما جرى بالضبط فى أفغانستان – هو حدوث مواجهات محددة غير متكافئة بين دول غربية ذات إمكانيات مادية هائلة ضد جماعات إسلامية فقيرة ناقمة فى صورة أعمال عدوانية كردود فعل ضد القهر الذى تعانى منه تلك الجماعات، يواجهها عمليات انتقامية عسكرية مضادة تؤكد بطش القوى العسكرية وهيمنتها على العالم وحضاراته المتعددة»(٥٧).

ورغم أن خطاب أغلب جماعات الإسلام السياسى الناقد للغرب يتسم بالعنف ويركز فى هجومه على نقطتين أساسيتين هما الجانب الأخلاقى وسياسة الكيل بمكيالين التى تنتهجها أغلب دول العالم الغربى إلا أن المرجعية الدينية لهذه الجماعات لاتحمل أية إشارات للصدام بين الإسلام والغرب باستثناء ما جاء في سورة الإسراء عن نهاية اليهود ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**﴾ (الإسراء: ٧)، إضافة للحديث الشريف المعروف عن قتال المسلمين واليهود آخر الزمان وانتصار المسلمين، لكن اليهود ليسوا الغرب، إنهم من ساكنى الغرب كما أن منهم من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يسكن الشرق وإفريقيا، ولعل تفسير بعض جماعات الإسلام السياسى لهذا الحديث على أنه إشارة للصدام مع الغرب يعود لربط اليهود أنفسهم بالغرب بشكل عام وبالمسيحية الغربية بشكل خاص (البروتستانتية) ورغم أن حركة الإصلاح البروتستانتى أرادت فى بداياتها تحويل اليهود إلى البروتستانتية إلا أنها بعد أن يئست تبنت الدعوة لعودة اليهود إلى فلسطين، والملاحظ أن تعاطف البروتستانت مع اليهود خاصة فى الولايات المتحدة يعود لأسباب تاريخية «فالمهاجرون البروتستانت البيوريتانيون المؤمنون بإله إسرائيل اعتبروا أن المصير المبين الذى قدره لهم الرب هو استعمار أمريكا - إسرائيل الجديدة - ولأنهم يؤمنون بنهاية العالم مع المجىء الثانى للمسيح، فإنه لابد من جمع شتات اليهود فى فلسطين - إسرائيل القديمة - باعتبار ذلك الخطوة قبل الأخيرة للمجىء الثانى للمسيح، إن مقولة الشعب المختار - الجديد- فى أرض الميعاد الجديدة ستكون المبرر لحرب الإبادة ضد اليهود وتهجيرهم، وستصبح اللاهوت العلمانى الذى يلهب الثوار بالنار المقدسة للثورة على الإنجليز من أجل الاستقلال، فالشعب المختار الجديد- الأمريكى - فى إسرائيل الجديدة - أمريكا - لابد أن يقتلع نفسه من عبودية مصر - إنجلترا»[٥٨].

بهذا يتضح جانب مهم من جوانب الصدام بين الإسلام والغرب، هو أن الصدام سياسى الطابع تم تغليفه بغلاف دينى.

أما ما قاله هنتنجتون من تفرد الحضارة الغربية بسمات وخصائص وأصول هى:

١ - التراث الكلاسيكى من الإغريق والرومان.

٢ - المسيحية الغربية الكاثوليكية والبروتستانتية.

٣- اللغات الأوروبية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٤- الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية.

٥- حكم القانون .

٦- التعددية الاجتماعية والمجتمع المدنى.

٧- الهيئات التمثيلية.

٨- النزعة الفردية[٥٩].

وإن تفرد الغرب يأتى من اتحاد هذه السمات فى توليفة واحدة، فالحقيقة التى يتجاهلها هنتنجتون أن البشر لا يختلفون حول القيم إلا إذا كان منها ما هو غير سام وغير نبيل، ولكن يختلفون حول طرق ترجمة هذه القيم، وبعض السمات التى ذكرها هنتنجتون يمكن اعتبارها سمات محايدة لا تؤثر سلبًا أو إيجابًا فى فكرة الصراع الحضارى ، بل ولا تعد عنصر تميز أو نقصًا لهذه الحضارة أو تلك كاللغات الأوروبية، فلم يثبت أن لغة ما أفضل من أخرى، فاللغة وعاء للفكر وإذا ما كان الفكر فى حالة ازدهار ازدهرت اللغة والعكس صحيح، أيضًا لا يعتبر التراث الإغريقى الرومانى نقطة قوة للحضارة الأوروبية فالحضارة الإسلامية ورثت التراث الفارسى والعربى والتركى وجزء من التراث الهندى وتراث الملايو، وبدرجة أقل تراث الشعوب القديمة التى انتشر الإسلامى فى بلادها كالتراث الفرعونى والآشورى والفينيقى... إلخ بعد تصفيته من القيم التى قد تتعارض مع الإسلام، وما يجعل التراث الإغريقى والرومانى هو الأشهر هو إعادة إحياء هذا التراث حديثًا، مع ملاحظة دور الحضارة الإسلامية فى الحفاظ على التراث الإغريقى ونقله لأوروبا قبل عصر النهضة.

ونأتى للسمة الثالثة (المسيحية الكاثوليكية والبروتستانتية) لنضع فى مقابلها الإسلام، فمن ناحية التوحيد يظهر جليًا وضوح وبساطة معنى التوحيد فى الإسلام والتسامح الذى به، وحضه على العمل والعدل والمساواة... إلخ بشكل لا تشوبه شائبة، والأديان بشكل عام تدعو لكل ما هو حق وخير وجمال، والتفوق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والتميز الحضارى يعود لتفسير أبناء هذا الدين أو ذاك للدين فى ظل ظروف محددة داخلية وخارجية، فهل كانت البوذية والكنفوشيوسية سببًا فى التطور الاقتصادى الملحوظ الذى حققته الصين وتايلاند وكوريا الجنوبية وتايوان منذ ثمانينيات القرن العشرين وحتى الآن، ولماذا لم يظهر تأثيرها من قبل، وهل كان الإسلام سببًا فى تأخر المسلمين بعد أن كان سببًا فى تقدمهم، ولماذا وكيف حققت سنغافورة وماليزيا قفزة اقتصادية مؤخرًا وهى دول إسلامية، وبماذا يفسر تأخر دول غربية كاثوليكية فى أمريكا الجنوبية أو حتى فى أوروبا مثل البرتغال وإيرلندا الجنوبية؟

إن أربعًا من السمات التى يرى هنتنجتون أنها مميزة للغرب لا تتعارض والقيم التى يطلب بها الإسلام على النحو التالى:

- الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية فى مقابل نفى الإسلام للمؤسسة الكهنوتية بالكامل.
- حكم القانون ، فى مقابل وجود دستور دائم للمسلمين هو الشريعة وقوانين متغيرة تلبى الحاجة (الفقه) إضافة للقانون المدنى.
- التعددية الاجتماعية والمجتمع المدنى، فى مقابل قبول الآخر فى الإسلام ومبدأ (أنتم أعلم بشئون دنياكم) الذى أقره الرسول ﷺ.
- الهيئات التمثيلية. فى مقابل مبدأ الشورى وجماعة الحل والعقد.

وإذا كانت أنظمة الحكم فى أغلب الدول الإسلامية لا تطبق المبادئ التى أقرها الإسلام وتبتعد عن الأسس التى قامت عليها الحضارة الإسلامية فذلك لعيب فى هذه الأنظمة وليس لنقص فى الإسلام.

أما السمة الأخيرة والتى يتفرد بها الغرب كما يرى هنتنجتون ـ النزعة الفردية ـ فالملاحظ أن أغلب المسلمين كحكام أو محكومين يعلنونها ويسعون لتطبيقها دون أن يحقق لهم ذلك التقدم، وهى سمة بها من العمومية ما يتيح أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تكون نقطة قوة لأى مجتمع أو حضارة، وما يبيح ارتكاب الجرائم أيضًا.. فالإسلام يبيح حرية التملك للأفراد، ويؤكد على المسئولية الفردية، لكنه يحرم الاحتكار وإضرار الفرد للمجتمع، وينادى بالعدالة الاجتماعية، والفردية التى يقرها الإسلام لا تعنى أن يعيش الإنسان لنفسه فقط فعلى المسلم واجبات لابد وأن يؤديها حتى وإن لم ينص عليها القانون «ولعل من المهم النظر لمختلف الواجبات الدينية والسياسية حيث نجد فيها بعدًا اجتماعيًا أساسيًا، فهناك واجب دينى اجتماعى، كما أن هناك واجباً سياسيًا اجتماعيًا، فالبعد الاجتماعى فى الممارسة الدينية يمتد إلى مساحات معتبرة من الحياة الأسرية، وكذلك الحياة فى المشترك السكنى، وفى المقابل سنجد أن الجزء الأساسى من الواجبات السياسية يتعلق فى الحقيقة بالأوضاع والسياسات الاجتماعية والدينية، وعلاقتها بالقيم السائدة فى الحضارة، بحيث يصبح الواجب السياسى فى النهاية واجبًا اجتماعيًا يقوم به الفرد أو الجماعة من أجل تنظيم الحياة الاجتماعية وإحداث التوافق بين الحياة السياسية والحياة الاجتماعية»[٦٠] وربما يأخذنا ذلك للقول بأن النزعة التى كرس ويكرس لها الإسلام وهى النزعة الجماعية، لكن الحقيقة غير ذلك، فالنزعة التى كرس لها الإسلام أو نادى بها نزعة تتسق وفلسفة الإسلام الوسطية، فهى نزعة تميل للفردية بما يتيح للإنسان الحرية والطموح وتحول بينه وبين الطغيان، وتميل للجماعية بما يضمن السلام الاجتماعى ويقلص الفروق بين أبناء الأمة دون أن تخمد روح الطموح والتطلع، إنها نزعة وسطية تتلافى أخطاء النزعة الجماعية الشيوعية المكرسة لروح الخمول، كما تتلافى أخطاء النزعة الفردية الغربية المكرسة لروح الطغيان.

ومما سبق يتضح أن الصدام بين الغرب والإسلام ليس صدامًا حتميًا، وإن حدث واصطدمت قوة غربية بأخرى تنتمى للإسلام أو تدعى ذلك فهو صدام سياسى وليس حضارى أو حتى عقائدى، لكن المشكلة أن اهتمام وسائل الإعلام الغربية بالترويج لنظرية الصدام الحضارى حتى بات الأمر وكأنه توجه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

استراتيجى ـ وربما هو كذلك بالفعل ـ يساهم فيه وبقوة فئة من «الذين تخلوا عن ضمائرهم المهنية والاجتماعية، وضعوا أنفسهم فى خدمة السلطة المستبدة لتبرير جرائمها ضد الإنسانية أو ضد المجتمع» [٦١] وقام هؤلاء بدور المبشرين والمبررين، إذًا هناك غاية وراء الترويج المحموم لحتمية الصدام والصراع بين الحضارات، بعضها بدأ فى الظهور وظل البعض الآخر طى الكتمان، وكان أول هذه الأهداف التى وضحت هو التبرير والتمهيد لسياسة استخدام القوة «فليست المسألة مسألة صدام حضارى على وجه الخصوص وإنما هى مسألة عوارض تاريخية ذات مخاطر وجودية وصدام مصالح وغايات تبعث على الخوف وتتطلب الردع، تمكن مصلحتهم فى الغرب فى حماية وجوده وضمان مصالحه والحفاظ على هيمنته الكونية قبالة أى مصدر من مصادر الخطر الكامنة أو الصريحة، وغايات تحقيق السيطرة الكاملة على جميع (الأغيار) وفى عالم تسوده المنافسة والمنفعة وطلب الظفر تفعل هواجس الخوف وفقدان الثقة والحذر والريبة، والخطر دورًا حاسمًا، وبالطبع تتدخل عوامل أخرى لتعزيز الأزمة أو تسوغها أو ترفع من وتيرتها وتحرض عليها» [٦٢].

وتجلى هذا الهدف كأوضح ما يكون فى الحرب التى شنتها الولايات المتحدة الأمريكية ـ دولة المركز فى الحضارة الغربية ـ على أفغانستان والعراق، ولم يكن من قبيل الصدفة «أن يتصدر فرانسيس فوكوياما وصامويل هنتنجتون أسماء الأكاديميين البارزين وعددهم ٦٠ أكاديميًا قائمة الموقعين على الخطاب الذى وجهوه للشعب الأمريكى بصدد تبرير الحرب (العادلة) التى شنتها الولايات المتحدة على الإرهاب بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١». [٦٣]

ثانى هذه الأهداف المراد تحقيقها من نظرية صدام الحضارات هو ملء الفراغ الذى نشأ بسقوط الاتحاد السوفيتى، فقد وضع السقوط المفاجئ للكتلة الشيوعية ـ الغرب فى مأزق استراتيجى وفكرى، لم ينقذ الغرب منه سوى النظرية التلفيقية التى قدمها هنتنجتون، ورحب صانعو السياسات الغربية بهذا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

النموذج لأنه من جهة كان حلاً لمأزق فاجأهم قبل الاستعداد الجيد له، ثم لأنه من جهة أخرى سوف يحقق لهم هدفًا أو أهدافًا أخرى فى المستقبل.

واللافت للنظر أن الزج بالصين فى تحالف مفترض مع الإسلام ـ وفقًا لهذه النظرية ـ هو معالجة لخللين واضحين فى بناء هذا النموذج التلفيقى للصدام، الأول هو معادلة عدم التكافؤ المادى الواضح بين الحضارة الإسلامية والغرب، والثانى أن الحضارة الكنفوشيوسية الصينية ليس لها بناء عقائدى معادٍ للغرب، فكان لابد من اختلاق أو افتراض هذا التحالف لمعالجة هذا النقص والخلل.

وقد يكون من بين أهداف الترويج لنظرية صدام الحضارات إطلاق هذه النظرية كبالون اختبار وقياس لردود الفعل تجاهها داخل الغرب أو خارجه، ثم تأتى بعد ذلك مرحلة أخرى بعد أن تكون هذه النظرية أدت المطلوب وهذه المرحلة الجديدة هى مرحلة خلق الأزمة وفقًا لقواعد أعدت سلفًا حتى وإن لم يكن هناك منطق أو ضرورة لقيام هذه الأزمة، ثم وعن طريق الضغط والتسخين يتم دفع هذه الأزمة إلى حافلة الهاوية، وعندها يتم جنى الثمار، والمثال الواضح لهذا السيناريو الشبيه بسيناريوهات أفلام الخيال العلمى هو ما حدث فى العراق، فقد بدأ الأمر باتهام العراق بامتلاك أسلحة دمار شامل، وانتهى الأمر باحتلال العراق دون العثور على هذه الأسلحة.

ولعل الغاية الأخيرة للترويج لنظرية صدام الحضارات هى خلق حالة من البلبلة الفكرية فى المجتمعات الإسلامية والتأثير على دوائر صنع القرار فى هذه المجتمعات، لإضعاف أى مواقف عدائية أو رافضة لهيمنة الغرب، ولقطع الطريق أمام أى تحالفات محتملة بين الدول الإسلامية والصين.

ورغم أن عددًا من القادة الغربيين أعلنوا معارضتهم لنظرية صدام الحضارات، إلا أن لعبة السياسة تقتضى فى أحيان كثيرة أن تقول عكس ما تؤمن به وأن تفعل عكس ما تقول، وكما يقول «جون مير شيمر» المستشار بإدارة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان وإدارة جورج بوش الأب فإنه «بغض النظر عن المبادئ الأخلاقية للسياسة الأمريكية التى برع الأكاديميون فى صياغتها، فإن أعضاء النخب السياسية الذين يصوغون سياسات الأمن القومى لا يتحدثون وراء الأبواب المغلقة سوى عن القوة وليس عن المبادئ الأخلاقية، وذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تسلك فى مجال النظام الدولى إلا ما يمليه عليها المنطق الواقعى، وفى الجوهر فإن هناك فجوة عميقة تفصل بين الخطاب العلنى والسلوك الواقعى للسياسة الخارجية الأمريكية» (٦٤).

إن القول بأن نظرية صراع الحضارات نظرية تلفيقية يجب ألا يعنى الاكتفاء بفضح النظرية والمنظر ، بل البحث عن حل يمكننا من التصدى لمروجى هذه النظرية أو مواجهة آثارها إذا ما نجح هؤلاء فى تضليل الجمهور وإقناعه بالنظرية، والبحث عن هذا الحل يقتضى منا ألا يغيب عن نظرنا داعى المصلحة ـ مصلحتنا نحن ـ فيجب ألا تكون استجابتنا مجرد رد فعل فيحدث الصدام والعداء وهو ليس من مصلحتنا، ولكن يجب أن نعمل مع الآخرين ـ على الجانب الآخر ـ وهم فريق لا يستهان به، فإذا كان عدد الذين دعموا الحرب من الأكاديميين والمفكرين ٦٠ مفكرًا وأكاديمياً فإن هناك ١٢٠ مفكرًا وأكاديميًا وقعوا على خطاب يرفضون فيه الحرب التى شنتها الولايات المتحدة على (الإرهاب) وبدأتها بأفغانستان بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر» (٦٥) يجب أن نعمل مع هؤلاء وغيرهم كثيرين فى مجتمعاتنا الإسلامية وفى الغرب على السواء على خلق رأى عام قوى موحد يتبنى التفاهم والحوار والتفاعل بين الحضارات والثقافات منطقًا ونهجًا وأسلوبًا، وينبذون كل ما قد يؤدى للصراع والصدام فهو وبال على الجميع، بل إنه ليس من الحضارة فى شىء، بل إن تبنى السياسات التى تقوم على منطق الصراع والقوة هو الذى يفرغ الحضارة من مضمونها الإنسانى كما يقول أرنولد توينبى، ويجعلها أحادية مادية، مما يؤدى بها فى النهاية إلى التردى والأفول.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كما يجب التحرك من أجل بناء جسور الثقافة والحوار والتفاهم بهدف نزع فتيل الصدام بين الغرب والعالم الإسلامى ثم التحرك نحو إيجاد مساحات الاتفاق والمشاركة، بدءًا من المعاملات الإنسانية وحتى مستوى المصالح الموضوعية لكل طرف دون طغيان أو افتئات.

كما يجب على الغرب أن يتحرك بنفس القدر والاتجاه الذى يتحرك به العالم الإسلامى، وأن يزيل كل طرف المفاهيم المغلوطة والصور النمطية الجاهزة عن الطرف الآخر، فإذا كان الغرب يمتلك أعلى مستوى تقنى أنجزته البشرية فى تاريخها فإن «الحضارة الإسلامية العربية غير عاجزة عن التكيف مع العصر، فهى تملك خبرات وقيمًا رفيعة من التسامح والقدرة على التكامل والتعايش مع الآخرين، لقد منعت الحضارة العربية الإسلامية بالقول والفعل إهدار كرامة الإنسان والسيطرة عليه وأكدت مثلما أكدت حضارات أخرى أن كرامة الإنسان أسبق من كل انتماء وهوية حضارية، وحصانة أولية للإنسان ثابتة بوصفه إنسانًا كرمه خالقه وجعله خليفة له فى أرضه، إن الاختلاف والخلاف بين الحضارات لا ينبغى لهما أن يهدرا حق الشعوب فى التعامل أو فى الوجود»[٦٥].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

• مصادر الباب الثالث

١٠- د. هالة مصطفى. الإسلام والغرب من التعايش إلى التصادم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢ ص ١٢.

٢ - د.فؤاد زكريا. العرب والنموذج الأمريكى. مكتبة مصر ١٩٩١ ص ٢١.

٣- استراتيجية الاستعمار والتحرر. مصدر سابق. ص ٦٢.

٤- د. جمال حمدان. العالم الإسلامى المعاصر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ ص ١٨.

٥- نبيل عبد الفتاح. سياسات الأديان، الصراعات وضرورة الإصلاح. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣ ص ٩٥ -٩٦.

٦- محمد حسنين هيكل. خريف الغضب، قصة بداية ونهاية عصر أنور السادات.مركز الأهرام للترجمة والنشر (مصر) الطبعة الأولى فى مصر ١٩٨٨ ص ٢١.

٧- نبيل عبدالفتاح. عقل الأزمة، تأملات نقدية فى ثقافة العنف والغرائز والخيال المستور، دار سشات للدراسات والنشر والتوزيع (القاهرة) الطبعة الأولى ١٩٩٣ ص ١١٠.

٨- أحمد أمين. فجر الإسلام. الهيئة المصرية العامة للكتاب. طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ١٩٩٦ ص ٤١٧.

٩- المصد السابق ص ٤١٧.

١٠- أحمد أمين. ضحى الإسلام. الهيئة المصرية العامة للكتاب. طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ١٩٩٧. الجزء الأول ص ٣٤٦.

١١- د. عبدالوهاب المسيرى، اليد الخفية، دراسة فى الحركات اليهودية الهدامة والسرية، دار الشروق (مصر) طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ٢٠٠ ص ١٧٤.

١٢- د. رأفت عبدالحميد. الفكر المصرى فى العصر المسيحى. دار قباء طبعة خاصة لمكتبة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأسرة ٢٠٠٠ ص ٩٨،

١٣- القس منسى يوحنا. تاريخ الكنيسة القبطية. مكتبة المحبة (مصر) ١٩٨٣ ص ٩٥.

١٤- الفكر المصرى فى العصر المسيحى. مصر سابق ص ١٩١.

١٥- ضحى الإسلام. مصدر سابق. ص ٣٨٣.

١٦- فجر الإسلام. مصدر سابق ص ٣٢٧.

١٧- أنور الهوارى. العنف وجذور المحنة الإسلامية المعاصرة. مجلة السياسة الدولية العدد ١٥١ يناير ٢٠٠٣ ص ١٠٢.

١٨- دليب هيرو. الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٠٧ ترجمة عبدالحميد فهمى الجمال. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ ص ١٣٠.

١٩- د. هالة مصطفى. الإسلام السياسى فى مصر. من حركة الإصلاح إلى جماعات العنف مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٩٢ ص ١٨٠.

٢٠- سياسات الأديان. مصدر سابق ص ٣٢٢.

٢١- د. عبدالمنعم سعيد. العرب و ١١ سبتمبر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣ ص ١٢٢- ١٢٣.

٢٢- عقل الأزمة. مصدر سابق ص ١٠٤.

٢٣- د. محمد سعد أبو عامود. الظواهر السياسية فى الدول الإسلامية وأثرها على علاقاتها الدولية، مجلة السياسة الدولية العدد ١٥١ يناير ٢٠٠٣ ص ٨٧.

٢٤- الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث، مصدر سابق ص ٢٨٤.

٢٥- الإسلام السياسى فى مصر، مصدر سابق ص ١٨١.

٢٦- الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث، مصدر سابق ص ١٤٥.

٢٧- نبيل عبدالفتاح. المصحف والسيف، صراع الدين والدولة فى مصر. مكتبة مدبولى مصر ١٩٨٤ ص ١١٦.

٢٨- المصدر السابق. ص ١٣٢.

٢٩- جوناثان ديلى. سميث. الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية. ترجمة د. محمد فتحى الشاعر. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة الألف كتاب الثانية ١٩٩٩ ص ١٠٤.

٣٠- التهديد الإسلامى خرافة أم حقيقة . مصدر سابق ص ٦٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٣١- أودين أ. كالفبرلى. الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته. تحرير ت. كلويلرينج. ترجمة د. عبد الرحمن محمد أيوب. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القسم الأول. الفصل الخامس (الدين الإسلامى) ص ١٤٥.

٣٢- حياة محمد. مصدر سابق ص ٤٣٣.

٣٣- إدوارد سعيد. الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨١ ص ٣٩.

٣٤- المصدر السابق. ص ٩٠.

٣٥- المصدر السابق ص ٩١- ٩٢.

٣٦- المصدر السابق ص ١٠٣.

٣٧- د. محمود إسماعيل. الإسلام السياسى بين الأصوليين والعلمانيين، مؤسسة الشراع العربى. الكويت. الطبعة الأولى ١٩٩٣ ص ١٣١.

٣٨- المصدر السابق ص ١٣٣- ١٣٤.

٣٩- و. مونتجمرى وات. الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر. ترجمة د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١ص ٩٨.

٤٠- عقل الأزمة. مصدر سابق ص ٩٦.

٤١- لورانس ميشالك.. الصورة العربية فى السينما الأمريكية، الرجل همجى وحشى والمرأة سلعة. مجلة الفنون. الاتحاد العام لنقابات المهن التمثيلية والسينمائية والموسيقية، مصر. العدد ٤٣ يونيو ١٩٩١ ص ٣٨، ترجمة خيرية البشلاوى.

٤٢- المصدر السابق ص ٤١.

٤٣- العرب و١١ سبتمبر. مصر سابق ص ١٢٨- ١٣٠.

٤٤- العنف وجذور المحنة الإسلامية المعاصرة. مصدر سابق ص ١٠١.

٤٥- المصدر السابق ص ١٠٢.

٤٦- د. نادية مصطفى. حروب القرن الواحد والعشرين ووضع الأمة الإسلامية. رؤية أولية مجلة السياسة الدولية العدد ١٥١ يناير ٢٠٠٣ ص ٧٨.

٤٧- رضا هلال. الحرب الأمريكية العالمية، قيامة المحافظين الجدد واليمين الدينى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣ ص ١٣١.

٤٨- المصدر السابق ص ١٦٥ بتصرف.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٤٩- د. جون ماركو. اليمين المتطرف يغزو الديمقراطيات الأوروبية.، مجلة السياسة الدولية العدد ١٤٩ يوليو ٢٠٠٢ ص ١٩٤ - ١٩٥.

٥٠ - التهديد الإسلامى خرافة أم حقيقة. مصدر سابق ص ٢٩٤.

٥١- صامويل هنتنجتون. صدام الحضارات. إعادة صنع النظام العالمى، ترجمة طلعت الشايب، تقديم د. صلاح قنصوة. كتاب سطور. مصر ١٩٩٧ص ٣٥٢.

٥٢- المصدر السابق ص ٢٥.

٥٣- المصدر السابق ص ٢٩١.

٥٤- المصدر السابق ص ٢٩١.

٥٥- أمين سعيد. ثورات العرب فى القرن العشرين، دار الهلال، مصر ١٩٨٥ ص ٤٦.

٥٦- د. مصطفى الفقى. تجديد الفكر القومى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦ ص ٢٣.

٥٧- د. سليمان إبراهيم العسكرى. ماذا يتبقى من نظرية صراع الحضارات. كتاب العربى العدد ٤٩ (مجموعة مقالات تحت عنوان الإسلام والغرب) يوليو ٢٠٠٢ ص ١٠٩.

٥٨- الحرب الأمريكية العالمية. مصدر سابق ص ١٣٦- ١٣٧.

٥٩- صدام الحضارات. مصدر سابق ص ١١.

٦٠- د. رفيق حبيب. إحياء التقاليد العربية. فى فقه الحضارة العربية الإسلامية. دار الشروق. طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ٢٠٠٣ ص ١٢٢.

٦١- الحرب الكونية الثالثة - مصدر سابق ص ٢٠٩.

٦٢- د. فهمى جدعان. متى تحين لحظة الحوار؟. كتاب العربى عدد ٤٩. مصدر سابق ص ١٧١.

٦٣- الحرب الكونية الثالثة. مصدر سابق ص ٢٢١.

٦٤- المصدر السابق ص ٢٣٦.

٦٥- د. يوسف الحسن. حوار الحضارات لماذا؟. كتاب العربى عدد ٤٩. مصدر سابق ص ١٢٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الباب الرابع

آفاق المستقبل . . الحوار والتفاهم والتبادل الحضارى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

• تمهيد

على ماذا نتحاور ونتفاهم؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾صدق الله العظيم (الحجرات : ١٣).

إن الله القدير يخبرنا أنه وإن كان قد خلقنا من أب واحد وأم واحدة فإنه جلت حكمته قد جعل تفرقنا بعد ذلك إلى شعوب وأجناس وأعراق انتشرت فى شتى بقاع الأرض أمر تقتضيه عمارة الأرض وصلاحها.

هذا الاختلاف والتنوع ليس بغرض التقاطع والعداء ولكن لتحقيق التكامل والثراء، وقد فسر العلماء معنى كلمة لتعارفوا أى تتفاهموا وتتآلفوا، وجعل الله الأفضلية لمن يسعى جاهدًا لتحقيق هذا التفاهم والتآلف.

كما يقول عز من قائل ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾صدق الله العظيم (آل عمران : ٦٤).

وعلى ذلك يكون الاتفاق والتفاهم بيننا والآخر على الكلمة السواء فما الكلمة السواء؟

الكلمة السواء هى عبادة الله وحده وتنزيهه من كل نقص وشرك، والكلمة السواء هى قيم الحق والعدل والمساواة والحرية فلا يجوز أن يتجبر بعضنا على بعض أو أن يتمايز بعضنا على الآخرين باللون أو الجنس أو العرق حتى يوشك أن يكون هذا البعض أربابًا للآخرين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والكلمة السواء هى المشترك القيمى الإنسانى الذى تأصل فى عقل ووجدان البشر جميعاً عبر آلاف السنين هذا هو مجال التفاهم والاتفاق مع الآخر.

وإذا شئنا التوضيح أكثر من ذلك نقول إن ما أقرته المنظمات العالمية من مبادئ لحقوق الإنسان لا نجد أى حرج فى جعلها موضوعات للتفاهم والاتفاق مع الآخر بل، وكذلك بعض آليات تفعيل هذه المبادئ والحقوق التى لا تتصادم مع مبادئ ديننا وقيمنا الإسلامية.

أيضًا لا مانع فى التفاهم والاتفاق على دواعى الاقتصاد الحديث من فتح الأسواق وحرية تدفق السلع والمنتجات وشفافية المعاملات آخذين فى الاعتبار الظروف والأوضاع وفوارق التقدم والنمو.

كل ذلك مما يجوز ويمكن التفاهم والاتفاق حوله بعيدًا عن ثوابت العقيدة والقيم الخاصة بكل مجتمع والمميزة له.

«ذلك أنه من المتفق عليه أن أى مجتمع إنسانى له خصوصيته الثقافية بحكم تاريخه الاجتماعى الفريد والذى لا يمكن أن يتكرر، فهى أشبه بالبصمة المتفردة، كما أن أية منطقة حضارية لها خصوصيتها الثقافية المميزة مثل المنطقة العربية الإسلامية على سبيل المثال، وإن كانت هذه الخصوصية الثقافية لا تنفى فى الواقع القاسم المشترك مع باقى المجتمعات والمناطق الحضارية، بحكم أننا ننتمى جميعاً إلى الجنس البشرى» [1].

وقد لا نتعدى الحقيقة إذا ما قررنا أن الحوار والتفاهم مع الآخر مبدأ إسلامى راسخ بسند من القرآن الكريم والسنة المطهرة سار عليه النبى ﷺ واقتدى به صحابته الكرام رضوان الله عليهم ثم سار نهجًا للمسلمين بعد ذلك.

فنحن نقرأ فى العديد من سور القرآن الكريم آيات كثيرة تخبرنا أن الحوار بين النبى ﷺ والمسلمين وبين الآخر من أهل الكتاب أو المشركين ظل متصلا لينًا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وهينًا طورًا وشديدًا طورًا آخر لكنه أبدًا ظل متصلاً لم ينقطع، والآيات الدالة على ذلك كثيرة ومتنوعة غالبًا ما تبدأ بـ : قل يا أهل الكتاب، قل يا أيها الناس، يسألونك عن كذا وكذا، كما أن كتب الأحاديث الصحيحة التى وردت عن النبى ﷺ تخبرنا عن محاورات ومساجلات النبى ﷺ مع كفار مكة أو أهل الكتاب فى المدينة، وهى محاورات ومساجلات لا أول لها ولا آخر كما تحوى كتب السيرة الكثير من الحوارات والمعاهدات والمواثيق والاتفاقات التى أجراها وأبرمها ﷺ مع الآخر.

كان ﷺ يقارع الحجة بالحجة، ويواجه المنطق بالمنطق، ويحذره مولاه تعالى من الجمود أو التصلب فى الرأى ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِك** ﴾ (آل عمران: الآية ١٥٩)، وتروى كتب السيرة جانبًا مهمًا من أخلاقيات الإسلام فى الدعوة إلى الله بالحوار والجدال الحسن، سواء فى الفترة المكية أو المدنية، وخاصة فى عام الوفود، يروى أنه لما دخل عليه وفد نصارى نجران قال الرسول ﷺ للعاقب عبد المسيح والأيهم السيد وهما من رءوس الوفد:

ـ أسلما

ـ قد أسلمنا قبلك.

ـ كذبتما . منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولد وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير.

ـ إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه؟

وخاصموه جميعاً فى عيسى، فقال لهما النبى ﷺ:

ـ ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟

ـ بلى.

ـ ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى أتى عليه الفناء؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

- بلى .

- ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟

- بلى.

- فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟

- لا .

- فإن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث؟

- بلى .

- ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟

- بلى.

- فكيف يكون هذا كما زعمتم؟

- إن لم يكن عيسى ولد الله فمن يكون أبوه»[٢].

لقد عاد الحوار بين رسول الله ﷺ ووفد نصارى نجران إلى نقطة الصفر، إلى نقطة الخلاف، فماذا فعل الرسول الكريم، هل أمر بمحاربة هؤلاء الرجال الذين أصروا على معتقداتهم رغم أن الحجة أثبتت بطلانها؟ لا ولكنه ﷺ طلب منهم الاحتكام إلى الله، بالابتهال إليه تعالى ليجعل لعنته على الكاذبين ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ (آل عمران : ٦١)، ورفض هذا الوفد المباهلة واتفق مع رسول الله على الخضوع السياسى لدولته.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وظل هذا ديدنة لا يحيد عنه فى سماحة ويسر وترفع عن البذاءة والفحش حتى انتقل إلى جوار ربه.

وظل هذا شأن المسلمين مع الآخر بعد رحيل نبيهم ﷺ والمعاهدات والمكاتبات ووصايا الصحابة وخلفاء المسلمين خير شاهدٍ على ذلك.

والحوار ليس نبتًا غريبًا عن الثقافة الإسلامية، «فالأصل فى الحوار فى الثقافة العربية الإسلامية هو المراجعة فى الكلام، وهو التجاوب، بما يقتضى ذلك من رحابة الصدر، وسماحة النفس، ورجاحة العقل، وبما يتطلبه من ثقة ويقين وثبات، وبما يرمز إليه من القدرة على التكيف، والتجاوب، والتفاعل، والتعامل المتحضر الراقى مع الأفكار، والآراء جميعًا، وبهذا المعنى يتأكد لدينا بما لا يرقى إليه الشك أن الحوار أصل من الأصول الثابتة للحضارة العربية الإسلامية، ينبع من رسالة الإسلام وهديه، ومن طبيعة ثقافته وجوهر حضارته»[٣] التى قامت على العقل، ولا يمكن أن تقوم مرة ثانية إلا به، ولنتأمل ما قاله العلامة المسلم الكندى فى أهداف التواصل بين البشر (ينبغى لنا ألا نستحى من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، فإنه لا شىء أولى بطالب الحق من الحق) معنى هذا ببساطة أن الإنسان الباحث عن الحق لابد أن يدير حوارًا مع الجميع حتى يصل إلى مبتغاه.

ويرى كثير من العلماء والمؤرخين أن من أهم أسباب نشوء علم الكلام عند المسلمين الرغبة فى الحوار والجدال والتفاهم مع الآخر، بالإضافة إلى الرد على خصوم الإسلام ودحض طعونهم وافتراءاتهم على الإسلام بالحجة والدليل والبرهان، وظهرت فرق ومذاهب اعتمدت هذ النهج سبيلها فى الدعوة وتبليغ الرسالة مثل المعتزلة والأشاعرة وإخوان الصفا وغيرهم، ثم تابع هذا الأمر بعد ذلك كبار المفكرين الإسلاميين مثل الجاحظ وابن رشد وأبو حيان التوحيدى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والغزالى وابن حزم وغيرهم ممن فاضت كتاباتهم فكرًا وتواصلاً وتنويرًا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وقد كانت حركة المعتزلة أو «ثورة العقل» ، مهمة فرضت على مفكرى معتزلة بغداد التصدى للتحريفية بكل أشكالها من الزنادقة والثنوية، فيما كان نضالهم ضد الاتجاهات المخالفة يتصل بالحوار العقلى، والجدل المنطقى، فيما تصاعدت المعارضة بينهم وبين السلفية النقلية، لتنتهى بما يسمى بـ (المحنة) التى استهدفت بالدرجة الأولى (من رأى المعتزلة) ترشيد النزعات المتقيدة بالنص الحرفى، والعمل الدءوب على توطيد مهمة النقد الفلسفى، الذى كان مظهرًا آخر لمنطق حوار الحقيقة فى صيرورتها اللامتناهية» (٤).

وكم شهدت قصور الخلفاء والأمراء المسلمين فى الأندلس وبغداد وقاهرة المعز والعديد من حواضر الدولة الإسلامية من مناظرات ومساجلات تجمع العديد من العلماء والأدباء من مختلف العقائد والملل.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

● الفصل الأول

ضـــرورة الـحـــوار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

اليوم وقد أصبح العالم على ما هو عليه من تقارب المسافات وانهيار الحواجز والموانع بين الدول مع ثورة الاتصالات وما قدمته وسائل الإعلام الحديثة التى اقتحمت علينا سماواتنا بل وحياتنا، ما أحوجنا نحن والآخر إلى اعتماد لغة الحوار والتفاهم درءًا للعديد من المخاطر التى باتت تحدق بالجميع مثل التطرف والإرهاب، وحلاً للكثير من المشكلات التى يواجهها العالم الآن وتنذر بأوخم العواقب والضرر على الجميع دون تفرقة مثل الأوبئة (الإيدز ـ الأيبولا ـ سارس) والتى لم يشهدها العالم من قبل، كما أن الحوار والتفاهم مطلوبان وبشدة لوضع حلول ناجحة لكوارث كونية محتملة (ثقب الأوزون ـ الاحتباس الحرارى ـ تلوث البحار والمحيطات ـ التصحر ـ تفشى أسلحة الدمار الشامل).

بل إن البشر جميعاً مطالبون بإقامة حوار للتفكير فى المأزق الأخلاقى والروحى الذى تعيشه البشرية الآن «فحقيقة أن نمط المواجهات العسكرية الكبرى والتى شهدها القرن العشرون فى حربين عالميتين سوف يتراجع، غير أن اقتتال الدول بالسلاح حل محله صراعها فى ساحات الاقتصاد والتجارة والمال، حيث يتحول أصدقاء وحلفاء الأمس إلى خصوم وأعداء اليوم، وحيث تتحول أساليب التجسس بحثًا عن الأسرار العسكرية إلى التجسس على الأسرار الاقتصادية والمقومات التكنولوجية للتقدم الاقتصادى، ويحدث هذا على مستوى الدول مثلما يحدث داخل كل مجتمع وسط سيطرة يوتوبيا السوق بآلياته وقوانينه بما يتضمنها من إمكانية سحق الآخرين من أجل الكسب والتفوق والسيطرة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وسيتضاعف هذا الأثر فى المجتمعات ذات الهياكل الاقتصادية والاجتماعية الضعيفة حيث تضاؤل الفرص وحدة المنافسة حولها»[٥] لكن هذه الدول الفقيرة ليست فقط التى تعانى المشاكل فالدول الغنية أيضًا لديها مشاكلها. وامتداد أثر هذه المشاكل أو تلك أمر وارد وبشدة، فمشاكل الآخر لن يعانى هو وحده منها، بل ستصيب ذلك الذى يظن أنه بعيد عنها، فمن أهم مشاكل القرن الواحد والعشرين «الاختلالات السكانية المتنامية فى العالم، بين تراجع معدلات السكان فى الدول الغنية وبين انفجارها فى الدول الفقيرة بالشكل الذى يمكن أن يضاعف سكانها بل ربما يزيدها إلى ثلاثة أضعاف» [٦] ومع تزايد الهجرة من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية تأخذ المشكلة أبعادًا جديدة، وهو ما يحتم التحاور بين دول الشمال ودول الجنوب لحل هذه المشكلة.

كما أن العديد من الظواهر السلبية التى أفرزتها المدنية الحديثة مثل الجريمة المنظمة وغسيل الأموال وانتشار الأنواع الحديثة من المخدرات، هذه الظواهر الشديدة السوء والتى أصبحت تنتشر وتتفشى بين الدول والمجتمعات مثل الأوبئة أصبح القضاء عليها مرهونًا بالتعاون والتفاهم بين الجميع.

إن الاستطراد فى الأسباب والدوافع التى تحثنا والآخر على الحوار والتفاهم يدفعنا إلى القول بأنه لابديل لنا جميعاً عن هذا السبيل، فهو ضرورة وحتمية لا ترفاً أو اختيارًا يملك هذا الطرف أو الآخر الآخذ به أو نبذه.

فالأخطار محيطة بالجميع وليس فى وسع طرف بمفرده مهما بلغ من القوة أو الثراء أو العلم أن يتجنب ويدرأ عن نفسه هذه المخاطر.

كما أن هناك عاملاً آخر على نفس الدرجة من الأهمية يحبذ ويدفع إلى هذا التفاهم والتعاون والحوار هو عامل الاقتصاد والتجارة، فوسائل التجارة الحديثة والتخصص وسهولة انتقال السلع بين الأسواق المختلفة جعلت كل الأقطار بحاجة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إلى بعضها البعض وتعتمد على بعضها البعض.

بل لقد أصبحت السلعة الواحدة أحيانًا يتم إنتاجها فى عدة أقطار ويتم تسويقها بعد ذلك فى عدة أقطار أخرى، والغالبية العظمى من الموارد الطبيعية تستخرج من دول وأقطار وتصدر إلى دول وأقطار أخرى لتصنيعها واستغلالها.

ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إنه لا يوجد قطر واحد فى العالم تخلو أسواقه من العديد والعديد من السلع والمنتجات المادية أو الثقافية من مختلف أقطار العالم الأخرى، وأصبح من سمات هذا العصر تجمع الدول والأقطار فى تكتلات ومنظمات على أساس جغرافى أو نوعى أو لغوى لا على أساس عقائدى لتعظيم الفائدة وتكامل المصالح والأمثلة كثيرة: السوق الأوروبية ـ منظمة الأوبك ـ منظمة الآسيان ـ منظمة الكومنولث ـ الفرانكفون.

يجب أن يكون الحوار مع الآخر عقلانيًا يتوخى الموضوعية ويراعى مقتضى الحال (حالنا وحال الآخر) ومتفهمًا كل منا ظروف الآخر، ولكى يحقق هذا الحوار التفاهم المنشود يجب أن يحقق لا كل مطالب ورغبات ومصالح كل طرف، بل يحقق القدر الكافى من هذه الرغبات والمصالح دون افتئات أو تعسف أو جور وأن يراعى كل طرف ثوابت ومنطلقات الطرف الآخر الفكرية والشرعية، كما يجب مراعاة الاختلاف والتمايز فى العادات والثقافات التى جعلها الله سبحانه وتعالى طبيعة فى البشر ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾ (الروم: الآية: ٢٢)، ﴿**ولو شاء ربك لجعلكم أمة واحدة**﴾. كما يجب ألا يعوق أو يمنع الحوار والتفاهم مع الآخر أى محاذير أو هواجس أو تطرف فى أى من الجانبين فلا يعقل أن يقود خطانا دعاة الجمود أو التطرف، أو تمنعنا من النهوض واللحاق بما فاتنا من التقدم والتطور والنمو دعاوى الانكفاء والتثبت أو الخائفين من الذوبان والضياع أو أن تؤثر على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

توجهاتنا إلى المستقبل المنشود تجارب الماضى المريرة أو خوف من مجهول نتوجس منه.

ومع هذا فيجب أن ننطلق إلى هذا الحوار والتفاهم من قاعدة مرجعية ثابتة مفادها «أن الإسلام نظام متكامل يقوم على قاعدة أساسية ذات مصدر دينى هى قاعدة الإيمان بالنبى ﷺ الذى تلقى الوحى عن ربه، وأنه من الطبيعى أن ترتد أحكامه الجزئية وتفصيلات نظامه السياسى والاجتماعى إلى أصول التصور الكلى العام الذى جاء به الوحى.. عن الخالق سبحانه وتعالى. وعن الكون وعن الإنسان ووظيفته ومسئوليته .. وفى الوقت نفسه لا يجوز للمسلم أن يغفل عن بعض الحقائق الكبرى الثابتة بالعقل والنقل جميعاً التى تجعل المسلمين جزءًا من التاريخ العام للإنسانية، وتجعل سلوكهم كله جزءًا من تيار السلوك الإنسانى تحكمه ذات السنن والضوابط التى تحكم الناس فى سيرتهم عبر التاريخ»(٧).

والمسلم الذى يدير حوارًا مع الآخر يجب أن يضع أمام عينيه أن فلسفة الحوار فى الحضارة الإسلامية تقوم على «ثلاث قواعد هى : أولاً : الإيمان بالله ورسوله وكتابه ، والتقوى لله، والتواضع مع الله، والثقة فى نصره، والاعتزاز بالحق، والتشبث به، بما يعنى الثبات فى مواقف الحق، وعدم الركون إلى الباطل أو الانهزام أمام سطوته، وهو ما يقوى فى النفس إرادة البقاء الحر الكريم .. ثانياً: التأدب بأخلاق الإسلام، والتأسى بسيرة النبى ﷺ وسيرة صحابته الكرام فى الحوار، ومخاطبة الناس من منطلق الإيمان بوحدة النوع الإنسانى.. ثالثاً : نشدان الحق والبحث عنه والسعى إلى الحقيقة والتماسها، والقصد إلى ما فيه الصالح العالم من شتى الطرق التى ليس فيها انحراف عن حجة الشرع، وبمختلف الوسائل التى تحقق مصالح العباد والبلاد»(٨).

ولكى يكون الحوار مثمرًا يجب أن يحدد كل طرف بوضوح ودقة ما يريده من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الآخر، وأن يلتزم بالقواعد التالية التى تثمر حوارًا ناجحًا:

١- التسامح الفكرى.

٢- النظر إلى القول لا إلى قائله.

٣- الاعتراف بالخطأ.

٤- الترحيب بنقد الآخر.

٥- النقد الذاتى.

٦- طلب النصح والتقويم من الآخرين.

٧- التنازل عن بعض الآراء الجزئية لجمع الكلمة، خاصة فى الحوار الداخلى، وعلى ألا تشمل هذه التنازلات ما يتعارض مع المبادئ والأسس الرئيسية للعقيدة.

٨- الرغبة فى الاستفادة مما عند الآخر» (٩).

فمن يقوم بالحوار؟ اضطلع بذلك الأمر فى صدر الإسلام صحابة رسول الله ﷺ والتابعون كما اضطلع به جند المسلمين الذين قاموا بفتح الأمصار، كما قام به العلماء والمفكرون المسلمون فى مناطق التماس الحضارى مع الآخر على مدى اتساع الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، كما قام بهذا الأمر التجار المسلمون الذين انتشروا فى ربوع الأرض، وكان لهم الفضل الكبير فى دخول الإسلام إلى مناطق لم يطأها جندى مسلم واحد مثل أندونيسيا وماليزيا والفلبين.

فمن يضطلع بذلك الآن؟

الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ومن الواجب أن يعى المسلمون هذه الحقيقة وأن للإسلام رسالة عالمية موجهة للبشرية جمعاء.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وعلى ذلك فإن عالمية الدعوة الإسلامية تتطلب دعاة هداة يمدون جسور التواصل مع الآخر، ويعرضون ما فى الإسلام من سماحة ومساواة وعدل، ويقبلون بما عند الآخر من الطيب الصالح دون غضاضة أو تمايز أوقطع صلات،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فكيف ينهض بهذه الدعوة ويقوم بها من كان يرفض الحوار مع الآخر أو أن يمد إليه يد التفاهم والتواصل والتبادل المعرفى.

إن على من ينهض بهذه الرسالة السامية أن يقوم بها متأسيًا بصاحبها ﷺ فى سماحته وحكمته ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (النحل: ١٢٥).

بل إن الله تعالى يأمر الأمة كلها بحسن الدعوة ويربط خيرية الأمة بالأمر بالمعروف والتنفير من المنكر ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وأن يكون ذلك باللين والرفق واليسر ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وعلى ذلك فيجب ألا يكون الحوار قاصرًا على النخب، أو من خلال المؤتمرات أو الندوات فقط، بل أن تشارك فيه شرائح عديدة من المجتمع كل على قدر طاقته، وكل بقدر استطاعته ويتم ذلك متى نشأ فى المجتمع الإسلامى ما يمكن أن نسميه (ثقافة الحوار والتفاهم) وأن تسرى بين المجتمعات الإسلامية نهجًا وأسلوبًا.

والمسلمون يجب أن يعترفوا بأن مجتمعاتهم تفتقد الآن ثقافة الحوار والتفاهم، وليس ذلك لعيب فى دينهم، ولكن لخلل فى أنظمة الحكم التى ربت الشعوب على أحادية الرأى لقرون طويلة، منذ أن «انقسمت الأمبراطورية على نفسها واستبد الملوك بأممها المختلفة، وأصبح شأن العلماء فى تلك العهود المهلهلة أن يجددوا ما يؤيد سلطان الملوك، فإذا خرج أحدهم على هذا اللون من التفكير، أو أراد محاربة المظالم التى تقع فى ظل هذا السلطان، اتهم بالكفر والزندقة، وحلت به نقمة الحاكم، من ذلك العصر بدأ الجمود يقيد الأذهان، وبدأت الحرية العقلية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تزول من العالم الإسلامى، وارتد الناس إلى جاهلية لا تقرها مبادئ الإسلام السليمة[١٠] فغابت ثقافة الحوار ليحل محلها فقه المطاردة والتكفير «لأن الرأى عندما ينغمس فى رذائل السياسة تتوه الحقيقة بل تذبح ذبحًا فداء المطامع والأهواء، إذ تصبح مطاردة العقل وأصحابه واجبًا مقدسًا أيًا كانت الوسائل المستخدمة فى هذه المطاردة موافقة لصحيح الشرع أو مخالفة له»[١١] .

ولعل من البديهى أن نقول إن ثقافة الحوار تستلزم أن يقيم المسلمون حوارًا فيما بينهم قبل أن يديروا حوارًا مع الآخر.

فإذا كانت عبارة (المسلمين والآخر تشير) إلى المختلف عقائديًا مع المسلمين. فإن فكر الخوارج ومن على شاكلتهم من جماعات التكفير قد صنع من المسلم المخالف فى الرأى ـ آخرًا ، وظل هذا الآخر المسلم فى موقف لا يحسد عليه، وهو موقف يسوء كلما بعدت الشقة بين الحفظ وبين الفهم، وكلما انفصل التدين عن الوعى، وكلما تصدر لحماية الحق أقوام لم ينالوا قسطًا وافيًا من التربية الإسلامية الصحيحة»[١٢]، بل إن وضع هذا الآخر المسلم كان فى أوقات غير قليلة «أكثر دقة وحرجًا من غيره؛ لأن مظلة حماية غير المسلم يظل الالتباس فيها محددًا، خصوصًا إذا كان من أهل الذمة، الذين تشدد النصوص الشرعية على البر بهم وتوفير الحماية والأمن لهم» (١٣) وهذه النظرة المتعصبة ليست حكرًا على المسلمين أو إفرازًا إسلاميًا بحتًا، فباسم الله سالت دماء الآلاف من الكاثوليك والبروتستانت فى العصور الحديثة، ومازالت تسيل فى نقاط التماس فى أيرلندا وغيرها، لذلك تبدو الحاجة ماسة للحوار الداخلى، حوار الذات، فمن غير المعقول أن يذهب هذا الفريق أو ذاك إلى الحوار مع الطرف الآخر وهو يحمل أجندة شديدة التنوع، بل ربما يصل تنوعها لحد الاختلاف والتناقض.

والحوار يختلف اختلافًا تامًا عن عملية التأثير والتأثر الحضارى والثقافى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كما أشار الرئيس الإيرانى محمد خاتمى فى خطابه أمام منظمة اليونسكو فى أكتوبر ١٩٩٩ «فالتأثير والتأثر فى مجال الحضارة والثقافة، وكذلك التبادل الثقافى والعلمى، يمكن أن يقوم على عوامل مختلفة منها الحرب، كأن يهيمن شكل واحد من أشكال الحضارة والثقافة على منافسيه وغرمائه من الأشكال الأخرى، وأن تتم هذه الهيمنة أحيانًا بالقهر والغلبة الواضحة والفاضحة، وأن تتم الهيمنة ـ كما هو الحال فى زماننا ـ بواسطة الاتصالات التكنولوچية، بينما يجرى الحوار ويتحقق فى مقام وموقع نفسى وفلسفى وأخلاقى خاص، وعليه فإنه لا يمكن الدفاع عن الحوار استنادًا إلى أى نوع من النظرة الكونية والاتكاء على أى نظام أخلاقى وسياسى ودينى وفلسفى أيٍّ كان، فمن أجل تحقيق الحوار نحن بحاجة إلى أحكام عامة وشاملة ومبدئية وأصولية والتى من دونها لا يمكن للحوار أن يتم بالمعنى الدقيق للكلمة» (١٤).

فغاية كل دين هو السمو بالنفس الإنسانية إلى الله تعالى بالتعبد، وبمكارم الأخلاق فى التعامل مع الآخرين ونبذ التقاطع والخصام والعداء ـ أى أن الإيمان لا يستلزم البغض والكره والعداء مع الآخر.

«فجانب العبادة مجاله ومرجعه إلى الإيمان وهو ليس مما يحسم بالعقل الموضوعى الذى عرفنا أن «الأرض المشتركة بين كافة البشر مهما تباينت عقائدهم الإيمانية».

أما جانب الأخلاق فموضوع دراسة عقلية لتحديد ينابيعها فى هذه الديانة أو تلك» (٥). وبذلك يتبين لنا أن السلوك المثالى فى أية عقيدة يبعد عن التعصب والتطرف ضد الآخرين، فلا يسبق إلى ذهن أحد من الفريقين سوء الظن المبنى على الجهل، فمكارم الأخلاق التى عليها المؤمنون فى كل دين يجب أن تشع أنوار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المعرفة الموضوعية لا أن تصبح وكرًا لخفافيش سوء الظن التى لا تعيش إلا فى ظلمات الجهل وسوء النية. إن الإيمان فى أسمى معانيه أن أرغب من كل قلبى فى يهتدى الآخر إلى ما اهتديت إليه من نور وحق وخير.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عقبات على طريق الحوار والتفاهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحوار هو تبادل الآراء والمفاهيم والخبرات والمشاعر .. إلخ بين فردين أو أكثر، ربما يأخذ شكلاً لفظيًا بالكلام، وربما يأخذ أشكالاً أخرى فنية أو غير فنية، فمتى يتم الحوار وبين من؟

إنه يتم عندما يشعر طرف بأنه بحاجة لمعرفة شيء عن الآخر، أو لتعريف هذا الآخر وإخباره بشيء عن الأنا، وبالتالى فإن الحوار يتوقف أو ينعدم عندما يرفض طرف الطرف الآخر؛ لأنه لا يشعر بحاجة إليه أو بأن الآخر بحاجة إليه، إن الحوار شكل من أشكال التواصل البشرى، يخضع لنزعات البشر ونزواتهم وتصوراتهم وقدراتهم العقلية لذلك فإنه «يفترض استعدادًا مبدئيًا ومعلنًا من كل طرف لقبول حجة الطرف الآخر إن أصابت موقع الحقيقة وكبد الصواب، والحوار يفترض قبول كل طرف لتعديل مواقفه التى كان عليها قبل بدء الحوار، إلى مواقف أخرى جديدة يثبت الحوار صدقها.. وغاية الحوار هى بناء موقف جديد أكثر تقدمًا ونضجًا وعقلانية من الموقف الفكرى السابق على الحوار» (١٦) وما يعيق كل ذلك هو اكتفاء أحد الطرفين المتحاورين أو الذين من المفترض أن يتحاوروا ـ اكتفاءه بما عنده، أو استعلاءه على الطرف الآخر، ونفيه ورفضه، أو عجز طرف عن فهم لغة الحوار وعدم امتلاكه لمقومات ثقافة الحوار.

وإذا كانت المجتمعات الإسلامية تعانى من غياب ثقافة الحوار فهذا لا يعنى بالضرورة أن المسلمين فى حالة عداء مع الآخر الداخلى ولكن يعنى أن حرية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحوار والرغبة فيه غائبة ـ بدرجات متفاوتة من مجتمع لآخر ـ فقد تغيب بين الابن والأب أو الزوج والزوجة ، أو الرئيس والمرءوس ... إلخ، وهى حالة توجد بين المسلمين بعضهم البعض وبين غير المسلمين بعضهم البعض وبين هؤلاء وأولئك، وبين الجميع وأنظمة الحكم، إنها حالة ثقافية لها أسباب تربوية سياسية لا أسباب عقائدية.

على الجانب الآخر تعانى العديد من المجتمعات خاصة الغربية من غياب ثقافة قبول الآخر، وذلك لأسباب منها ما هو تاريخى أو سياسى أو دينى، فالأنا فى هذه المجتمعات هى الإنسان الأبيض، المسيحى ، الكاثوليكى أو البروتستانت وربما اليهودى الذى له أصول أوروبية، وطوال تاريخها وحتى القرن التاسع عشر لم تعرف أوروبا أجناسًا غير بيضاء ، وإن عرفتهم فكعبيد، ولم تعترف بغير المسيحية الكاثوليكية ثم البروتستانتية مع حالات استبعاد متتالية لليهود، وفى الولايات المتحدة وحتى الخمسينيات ظل هناك جيتو للزنوج، وكان دائمًا «جيتو فقر وبطالة ومرض وعنف فى انفصال عن مجتمع الوفرة الأمريكى الأبيض، فاحتمالات وفاة الأطفال السود ضعفها عند الأطفال البيض، والسود يعيشون أقل من العمر المتوقع للبيض، ولديهم ثلث فرص البيض فى العيش فوق مستوى الفقر، ونصف فرص البيض فى التخرج فى المدارس العليا، والمتخرجون السود يحصلون على أجور أقل من أجور نظرائهم البيض»[١٧] وحتى الآن مازال هناك نوع من التمييز بين الأمريكى الأبيض وغيره فى بعض الولايات، خاصة تجاه الهيسابيين ذوى الأصول اللاتينية، وللحد الذى تنتفى معه فكرة الانصهار الثقافى «ومقابل وصف بوتقة الانصهار تستخدم الكاتبة الأمريكية سوزان راموس وصف (سلطانية ـ صحن السلاطة) للتعبير عن التعددية الأثنية والثقافية فى أمريكا، غير أن تعبير سلطانية السلاطة Salad Bowl لا يقنع كثيرين مثل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

توماس ديوى، عمدة نيويورك الأسبق، الذى قال إن أمريكا تحولت من بوتقة انصهار إلى بوتقة غليان Boling Pot» [١٨]، ليس لأننا سنشهد صدامًا داميًا بين الأعراق والأجناس والملل ولكن لأن هناك عوامل كثيرة تكرس لعدم قبول الآخر، وعدم قبول الآخر يعنى ببساطة العنصرية بما تبثه من كراهية وحنق واستعلاء ونزوع للتمايز.

ورغم أن قبول الآخر أمر يمكن للعقل أن يحسمه فلا فضل لأحد فى اختيار اسمه أو لونه أو حتى دينه، وهو أمر يقترب من الفطرة الإنسانية المتسامحة إلا أن نظرية قبول الآخر «لا تمارس فى الحياة بسبب أن المجتمع الإنسانى له انتماءات تتراكم لكل فرد فى ـ محيطه ـ بسبل شتى، وتؤدى هذه الانتماءات فى ظروف معينة لأن تكون مصدرًا لكراهية الآخر أو رفضه بدلاً من قبوله ، وقد تمتد الكراهية إلى الرفض ومحاولة النفى، وهنا يكون المناخ النفسى الجماعى مواتيًا لحرب أهلية» [١٩] إذا كان الآخر داخلى ، أو لحروب بين دول وحضارات ومجتمعات إذا كان الآخر خارجى.

ولعل أول الأسباب التى تعيق الحوار مع الآخر أو قبوله أو الاعتراف به هو التطرف، والكلمة ـ التطرف ـ تشير إلى تلك النقطة البعيدة ـ الطرف ـ والتى يقبع فيها ذلك الفريق الرافض للاقتراب من الوسط أو الوسطية ، والتطرف فى أبسط أشكاله هو الغلو والزيادة فى الشىء دون حاجة أو ضرورة وهو الابتعاد عن القصد والعدل.

والتطرف ظاهرة فكرية موجودة فى جميع العقائد والديانات، وللتطرف سمات محددة توجد متى وجد وتتحقق كلها أو بعضها حسب درجة التطرف. ومن هذه السمات على سبيل المثال لا الإجمال الرفض والتثبت والبعد عن المنطق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وعدم الرغبة فى الحوار والاشتداد فى الخصام واللدد وقد يبلغ التطرف أقصاه إلى التعصب والاعتداء.

لكن هناك خلطًا يتم عن جهل أو عن تعمد بين التدين والتعصب، لذلك يجب التوضيح والتفريق، فالتعصب مصدره تعصب فهو متعصب، وأصل المادة يدور حول الشد والشدة، والمتعصب «إنسان لا يرى إلا ذاته» ولا يسمع إلا قول نفسه، ولا يؤمن بأحد غيره، أو غير فرقته وجماعته التى ينتمى إليها، فمنها يبدأ وإليها ينتهى، فهو مغلق الذهن والنفس عن الغير، وكل الناس غير ما عدا إياه وفرقته التى منحها عقله وشعوره، فهى التى تفكر له ، وتحدد له من يحب ومن يكره ، وعمن يرضى وعمن يسخط، دون أن يعطى لنفسه حق التأمل فى هذه المقولات أو الامتحان لها أو مناقشتها، فهذا كفر أو سبيل إلى الكفر المؤدى إلى البوار»[٢٠]، أما التدين فى مفهوم الإسلام فهو تأدية العبادات على خير وجه، توحيد الله قولاً وفعلاً، معاملة الناس بالحسنى، التفكير فى ملكوت السموات والأرض وفى النفس، الترفع عن الصغائر، مقابلة السيئة بالحسنة .

والمتطرف وبال على دعوته فهو أسوأ مثال لما يدعو إليه بل هو أدعى إلى التنفير من دعوته ورسالته ، وأحرى بالآخر أن يرفضه ويرفض ما يدعو إليه وإن كان فيه الخير العميم.

والقرآن الكريم وهو دستور المسلمين يدعو إلى الاعتدال والوسطية وعدم الغلو والتطرف.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة : ١٤٣).

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ (النساء : ١٧١).

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بل إن الإسلام يأمر أتباعه بالاعتدال والعدل حتى مع المتعصبين والمتطرفين ومن يهاجمونهم.

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة : ٨) فليس من شروط العقيدة الصحيحة سوء معاملة الآخرين أو تجريح عقائدهم. حتى وإن فعلوا ذلك، يقول تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام : ١٠٨).

ويأخذ التطرف على الجانب الإسلامى ثلاثة أشكال ينضوى تحت ألويتها شرائح شتى فى المجتمعات الإسلامية، وتتفاوت قوة وضعفًا وتأثيرًا من مجتمع إلى آخر تبعًا لتماسك نسيج كل مجتمع ودرجة الوعى والحراك فيه.

الشكل الأول أو التيار الأول من التطرف : وهو أشدها أثرًا وأكثرها خطرًا وإن كان أقل عددًا هو الذى يقوم أفراده برفض الآخر كلية ومقاطعته وعدم قبول أى نوع من الحوار أو التفاهم معه.

وليس الآخر فى نظر هذا الفريق هو من يخالفهم فى العقيدة فقط ولكن الآخر عندهم هو كل من يخالفهم فى الرأى حتى وإن اشترك معهم فى العقيدة والمذهب.

وتأتى خطورة هذا الفريق وشدة أثره أنه قد يجنح نحو العداء والعنف متى توفرت له الأسباب وسمحت له الظروف، مما يشيع جوًا من التوتر والاحتقان والقلق فى المجتمع، ويعكس انطباعًا خاطئًا وفهمًا مغلوطًا عند الآخر عن المجتمعات الإسلامية ينفى عنها روح التسامح والرحمة والعدل.

ولهذا النوع من التطرف أسباب عديدة أفاض فى دراستها وتتبعها واستقصائها العديد من علماء النفس والاجتماع وكبار المفكرين، وأجمع أغلبهم على أربعة من هذه الأسباب وهى دون ترتيب:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

(١) أسباب فكرية.

(٢) أسباب اجتماعية .

(٣) أسباب سياسية .

(٤) أسباب ظرفية أو خارجية إن جاز التعبير.

وغالبية هذا الفريق الساحقة من الشباب الذى يعانى من ضيق الحال أو البطالة وتستفزه العديد من مظاهر الفساد والبذخ والسفه فى المجتمع، فيقبل على الدين ملاذًا وسلوى، وهنا يتلقفه نفر من أشباه العلماء يجمعون بين عدم الفهم الصحيح لمقاصد الشريعة الحقيقية وفساد الاستدلال ويجتزءون من آيات القرآن ما يروجون به لآرائهم الشاذة دون اعتبار لسياق هذه النصوص، أو أسباب نزولها أو حتى فهمها الصحيح، ويأخذون من الأحاديث النبوية النذر اليسير من الغريب والضعيف يطوعونها لمراميهم وأهدافهم، وتتشكل وتتكون هذه الجماعات التى تدين لهذا النفر من أشباه العلماء أو كما يطلقون على أنفسهم الأمراء وتدين كل جماعة لأميرها بالسمع والطاعة المطلقين كما ترى كل جماعة أنها وحدها على الحق وما عداها على الباطل.

ويمكن إجمال أفكار هذا الفريق فى ست أفكار لا يوحى مظهر بعضها بمخبره، فكم من كلمة حق يراد بها باطل ، وهذه الأفكار هى :

١- فكرة الحاكمية لله .

٢- فكرة تكفير المسلم.

٣- فكرة الهجرة .

٤- فكرة دار السلام ودار الحرب.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٥- فكرة مجاهدة المسلمين (الذين لا يتفقون معه فى الرأى).

٦- فكرة الاستحلال.

ويلاحظ أن « أكثر أفكار هؤلاء المتطرفين أو كلها أفكار قديمة ترجع أكثر ما ترجع إلى الخوارج الذين بدأ ظهورهم فى عهد الإمام على كرم اللّه وجهه، وأن هذه الأفكار ليست مستقاة من أوضح النصوص الدينية، ولا من أصرحها أو أقواها وإنما هى مستقاة من أكثر الأفكار تشددًا وتعنتًا؛ لأنها مستوحاة من أفكار الخوارج. وأن هذه الأفكار قوبلت بأشد الإنكار، بل بأشد الحرب من الدولة الإسلامية. وكان من أوائل من شنوا الحرب على أصحابها الإمام على، وأن هذه الأفكار لم تكد تجد من يعتنقها وإنما وجدت من يعارضها ويقف من سبيلها ولم تكد تكسب أنصارًا لها على مر العصور وأن هذه الأفكار جاءت قديمًا وحديثًا رد فعل للحياة من حولها ، وليس لرد الفعل أن يدوم إلا إذا بقى سببه، فإذا زال زيلت أو انزاحت معه» (٢١).

ومما يساعد على نمو مثل هذه الأفكار المتطرفة فى العالم الإسلامى ضيق مساحات الحرية فى التعبير عن الرأى وعدم قبول تعدد الأفكار واختلافها كما يسود الكثير من مظاهر الاستبداد والقمع مما يجعل الصدام بين هذا الفريق المتطرف والمجتمع والسلطة أمر حتميا.

أما آخر الأسباب التى تدفع إلى هذا التطرف فهو ما يلاقيه العديد من المسلمين من عنف وتنكيل وظلم فى بقاع شتى من العالم وعلى وجه الخصوص ما يحدث فى فلسطين على مرأى ومسمع من العالم.

هذا النوع من التطرف لا تكون مواجهته الصحيحة بالإجراءات الأمنية وحدها ولكن بالقضاء على أسبابه أو ما أمكن منها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الشكل الثانى من أشكال التطرف على الجانب الإسلامى يتمثل فى رفض الحوار مع الآخر ليس من منطلق الكراهية أو العداء، ولكن من منطلق الخوف على الذات والهوية من الاندحار والذوبان، هذا الفريق يعيش منكفأً على الذات يجتر أمجاد الماضى، ويحيا فيه لا ترى عيناه فى مجتمعه خاصة الماضى إلا الخير والصواب ولا يرى على الجانب الآخر إلا الشر المستطير، يجل ويقدس التراث غثه وثمينه ويرى فيه الحلول لكل مشكلاتنا.

ومن المؤلم أن هذا الفصيل يضم شرائح عديدة فى المجتمعات الإسلامية سواء من العامة أو المتعلمين، كما يضم الشباب والكهول على السواء، يخشون الحوار والتواصل والتفاهم مع الآخر خوفًا وهلعًا كأن الآخر شيطان مريد وكأننا أغرار عديمى الرأى والإرادة.

الشكل الثالث من أشكال التطرف على الجانب الإسلامى هو على النقيض من الطرفين الأولين :

هذا الفريق يرحب بالحوار والتفاهم والتواصل مع الآخر بل يريد أن يكون نسخة من الآخر، من الآخر الغربى على وجه الخصوص والتحديد إنهم المستغربون أو المتغربون.

يتألف هذا الفريق من شراذم من الشباب المحبط ممن يرون الفارق الشاسع بين حال أمتهم ومجتمعاتهم والسائد فيهما من علل وأوجاع بات اليأس من إصلاحها أقرب إلى الرجاء، وبين حال مجتمعات الآخرى وما تنعم به من الرفاهية والتمدن وما يسرى فى أجوائها من نسائم الحرية والتفتح.

وينتمى لهذا الفريق أيضًا بعض المفكرين العلمانيين أو إن شئنا الدقة اللادينيين أو الملحدين والماديين، هذا النفر من المفكرين ألف واعتاد العيش بمنطق وأسلوب الغرب يعيشون معنا وبيننا وقلوبهم وعقولهم هناك.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هذا الفصيل لا يرى من سبيل لإصلاح حال أمتنا ومجتمعاتنا الإسلامية إلا بهدم كل شيء وإعادة البناء من جديد على أسس غربية، فالتحديث فى مفهومهم والتطور والرقى لا يكون إلا بالتخلى عن خصوصيتنا الثقافية وهويتنا الإسلامية المميزة نموذجهم المفضل للاحتذاء هو النموذج التركى، هؤلاء وأحزابهم أثرهم أشد وطأة على الحوار والتفاهم مع الآخر؛ لأنهم يتخذون من مبدأ الحوار والتواصل وسيلة لدفعنا لأبعد مما نريد والقبول بم لا نرضى ولا نستطيع، بل إن هذا الفريق يمثل سببًا من أسباب التطرف الدينى، فهذا التفريط والانبهار بالغرب يؤدى تلقائيًا للتشدد.

أما التطرف على الجانب الآخر فله ثلاثة أوجه يمكن رصدها والتعرف على السمات المميزة لكل وجه منها من حيث الشكل والأسلوب وأيضًا من حيث المنطلق الفكرى وأثر كل منها على الحوار والتفاهم معنا هى :

١- تطرف عنصرى

هذا الشكل من التطرف نتاج ثقافة عنصرية ومفهوم استعلائى عرقى وجنسى مبنى على فكرة تفوق وتفرد الجنس الأبيض بخصائص ومميزات اختص بها الخالق هذا الجنس فقط دون سائر الأجناس والأعراق.

ويأتى متطابقًا مع هذا النمط من التفكير مقولة إن الحضارة الغربية هى الحضارة المركزية المتفردة بين سائر الحضارات الأخرى، وإرجاع عوامل تفوقها وازدهارها لخصائص وصفات يملكها الرجل الأبيض فهى حضارة نقية لم تشوبها شوائب من الحضارات الأخرى.

فالأجناس والأعراق الأخرى ليست مهيأة بحكم نشأة وطبيعة تكوين أفرادها إلى النبوغ والرقى الحضارى ولكن إلى قدر يسير منها، فالحضارة الغربية ترى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أنها هى الأصل الأول لكل النتاج الثقافى الحديث والمعاصر (المركزية الأوروبية)، وهو رأى عنصرى غير صحيح.

فالغرب يرى أن الحضارة اليونانية «نشأت مكتملة بذاتها ولم تتأثر بأية حضارات أخرى سابقة، هذا التأكيد تكذبه الوقائع التاريخية التى كشف عنها بجلاء وعمق نادر المؤلف الأمريكى مارتن برنال فى كتابه الشهير أثينا السوداء فى الأصول المصرية والإفريقية للحضارة اليونانية، والذى مثل صفعة قوية لهذا المنحنى الأيديولوچى المتهافت فى سرد المسيرة الثقافية للإنسانية.. ولقد أثبت برنال وفق تحليل دقيق للمعتقدات الدينية والأدب والأساطير وطرز العمارة أن اليونانيين الأوائل اقتبسوا كثيرًا من تراث الحضارة الفرعونية القديمة بالإضافة إلى تراث الحضارات التى ازدهرت فى المشرق. ويمكن من ناحية أخرى ـ إذا أردنا تحليل شجرة الأنساب الفكرية للحضارة الغربية الحديثة ـ أن نؤكد أنها نهلت بعمق من الحضارة الإسلامية وخصوصًا فى مرحلة ازدهارها»[٢٢].

لقد أدى اعتناق الإنسان الغربى لمثل تلك المفاهيم والأفكار إلى عداء وكراهية الآخر من باقى الأجناس والأعراق ولا يخطئ الناظر رؤية هذه الجماعات العنصرية وتواجدها الملموس فى دول الغرب بالجملة.

هذه الجماعات تقف موقف العداء وتنحو نحو العنف مع الأجانب والمهاجرين وتدعو إلى طردهم والتخلص منهم ولا تتسامح فى وجودهم حتى وإن كان لضرورة ومصلحة.

٢- تطرف فكرى

وهذا الشكل الثانى من أشكال التطرف عند الآخر نتاج الأسباب الآتية أو بعضها على الأقل:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

(أ) جهل معرفى بالحقائق الصحيحة للثقافة الإسلامية ومكونها الأساسى والرئيسى وهو الدين الإسلامى.

(ب) وقوع هذا الفريق من المتطرفين أسرى استقاء معارفهم عن الدين الإسلامى والثقافة الإسلامية من الإعلام الغربى والإعلام الصهيونى المضلل والمغرض، والذى يقوم عن سوء قصد ونية بتشويه كل ما هو إسلامى وإلصاق التهم والنقائص جزافًا بالمسلمين.

(جـ) كما يصب فى هذا الرافد وقوع العديد من التصرفات والحوادث والتى قام بها نفر من المسلمين.. نكب الإسلام بانتسابهم إليه.

هؤلاء يفسدون وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، ويعكسون انطباعًا سيئًا مغلوطًا عن الإسلام والمسلمين هذه العوامل الثلاثة السابقة تشكل عند قطاع عريض من الآخر فهمًا انطباعًيا مشوهًا عن المسلمين وأنهم أعداء للحضارة والمدنية، ميالون للعنف بطبعهم ونشأتهم، وأن المجتمعات الإسلامية هى مجتمعات القهر والجهل والتعصب وأن الدين الإسلامى هو الباعث والمحرض على هذا النمط من السلوك، والتوجه. وكأن لسان حال هذا الفريق من المتطرفين على الجانب الآخر يقول : لماذا وكيف يكون الحوار مع هؤلاء؟!

٣- الوجه الثالث للتطرف عن الآخر هو الذى أفرزته الظروف والأوضاع الأمنية التى أبانت عن قوة وتفوق الآخر فى مقابل ما تعانيه المجتمعات الإسلامية من عجز ووهن بل وتنافر.

هذه الظروف والأوضاع جعلت قطاعًا ليس بالهين عن الآخر (خاصة تحالف اليمين المسيحى والصهيونى وفصل من المنظرين والمفكرين المتعصبين) يراها فرصة سانحة قد لا تتكرر لفرض وتكريس حلول لمشاكل قائمة وفقًا لمصالحهم ومراميهم.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هذا الفريق والذى يعتنق مبدأ الانتهازية السياسية يقبل على الحوار بل ويطلبه، ولكنه يهدف من ورائه إلى إملاء وتقرير صيغ ومفاهيم وضعت وصكت عندهم، قد يكون لنا الحق من وجهة نظرهم فى مناقشتها أو حتى التأفف منها ولكن ليس لنا الحق فى رفضها حتى وإن تعارضت مع قيمنا ومصالحنا.

والنموذج الواضح والدال على هذا التصور القصرى لمفهوم الحوار هو ما آل إليه الأمر فى مجلس الأمن والذى من المفترض أنه يمثل ضمير العالم حيث يتم التقدم بمشروعات القرارات، ويجرى النقاش والتداول عليها وفى النهاية لا يتم إقرار إلا ما تراه وتوافق عليه دول بعينها.

وفى خضم بحثنا عن طريق أو طرق الحوار الصحيحة والمنشودة لتحقيق التفاهم والتواصل مع الآخر يعترضنا سؤال. ماذا عن وسائل الإعلام المختلفة من مسموعة ومرئية ومكتوبة والتى بلغت من كثرتها وتنوعها حد العجز عن حصرها ناهيك عن تتبعها ومنها الكثير الموجه للآخر على كلا الجانبين. أليس كل هذا الزخم الإعلامى المتنوع يعد من أدوات الحوار بين المسلمين والآخر؟

ويأتى الرد آسفًا لا. بل نقول إن كل ما سلف ذكره من وسائل الإعلام المتنوعة يعد من معوقات الحوار ومسببات تعثره.

فدوافع وأهداف هذه الوسائل فى غالبيتها أبعد ما تكون عن فكر الحوار والتفاهم وأقرب ما تكون لفكر التهجم والتشويه أو التسلط.

فمحطات الإذاعة أو قنوات التليفزيون إما أنها مملوكة لدول وحكومات، أو ملكية خاصة تهدف للربح، والنوع الأول يخدم الوضع السياسى القائم، بشكل مباشر فج أحيانًا وبشكل ذكى فى معظم الأحيان، لأنه يتسرب إلى وجدان بسطاء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الناس والذين ليس لديهم من متعة إلا الإذاعة والتليفزيون، حتى صار لصناعة وجدان البشر خبراء ومتخصصون مثلما يحدث فى صناعة الأفكار» [٢٣].

وتلجأ أغلب الحكومات فى دول العالم الثالث إلى «ممالاة الأغلبية العرقية أو الدينية فتقهر الأقليات على أنواعها» [٢٤] وتستخدم فى ذلك وسائل الإعلام بدرجات وأشكال مختلفة.

أما القنوات والمحطات الخاصة والتى ينتشر أغلبها فى الغرب فهدفها هو إرضاء الجمهور بغض النظر عن الحقيقة، والتى يمكن أن تغضب الجمهور فى بعض الأحيان أو تصدمه فى أحيان أخرى، خاصة مع وجود صور نمطية عن الآخر فى ذهن الجمهور، وفى هذه الفئة من وسائل الإعلام تدخل القنوات الدينية التى تقدم ما يرضى جمهورها وبشكل شيفونى، يبتعد عن الموضوعية، والغالبية العظمى من جمهور هذه القنوات غالبًا ما تكون من المتطرفين والمتعصبين، يضاف لذلك أن أغلب هذه القنوات والمحطات تلعب دورًا تبشيريًا وهو ما يعنى أنها حددت أهدافها مسبقًا بما يغلق باب الحوار مع الآخر، وحتى وإن تم هذا الحوار ـ عبر الهاتف مثلاً ـ فإنما يصبح هجومًا من قبل الآخر على المحطة أو القناة وما تقدمه، ومحاولة من جانب الفريق الأخير لإقناع هذا الآخر بأنه على باطل ويجب أن يؤمن.

ويمكن أن نستثنى وسيلة واحدة من كل هذه الوسائل الإعلامية ألا وهى الإنترنت فهى وإن كانت أحدث هذه الوسائل إلا أنها أقامت حوارًا بناء بين بعض الأفراد وعلى كلا الجانبين وأتاحت إمكانية الحصول على المعلومات الصحيحة من مصادر موثوق بأمانتها وتجردها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

«وقد بلغ عدد المواقع التى تم إنشاؤها عبر الإنترنت وتتكلم عن الإسلام عشرة ملايين موقع حتى عام ٢٠٠٠» (٢٥).

هذه المواقع تجمع كل ألوان الطيف من مواد وموضوعات عن الإسلام والمسلمين.

فمن مواقع تدعو غير المسلمين إلى عقيدة الإسلام والتوحيد إلى مواقع تناقش وتجادل غير المسلمين فى عقائدهم.

ومواقع لغير المسلمين ترد وتسأل وتهاجم وتنتقد ، وأيضًا توجد مواقع أكاديمية رصينة لبعض الجامعات ومراكز الأبحاث والدراسات الإسلامية وغالبيتها أمريكية وأوروبية تعرض المفاهيم والمذاهب الإسلامية والعديد من الموضوعات عن الثقافة الإسلامية.

كما يوجد الكثير من المواقع تعرض القرآن الكريم وتفسيراته باللغة العربية وترجمات باللغات الأخرى .

كما لا يخلو الأمر من مواقع عديدة تهاجم الإسلام وتشوه تعاليمه وتحرف بعض آياته وكلماته لا سيما ما يتعلق منها باليهود وأباطيلهم.

لعل هذا الوسيط الإعلامى (الإنترنت) هو الوحيد الذى يعول عليه إذا أحسن استخدامه فى أن يكون من أدوات الحوار المنشود وجسرًا للتفاهم المأمول.

الآن وقد بينا ما يعترض هذا الحوار المنشود من أخطار تهدد مبدأ قيامه ومزالق وصعاب تكمن على طول دروبه ومسالكه وضباب كثيف يغلف ما نرجوه من نتائج وأهداف لهذا الحوار ألا يحق لسائل أن يسأل ولم إذًا يكون هذا العناء وتجشم هذه الأعباء وربما الكثير من الأخطار.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وردنا على ذلك :

١- إننا قلنا منذ البداية وعن يقين أنه أى الحوار خيار حتمى نتشبث به ونحن عالمون بأخطاره راضين بتداعياته آملين أن يوصلنا إلى ما نريد ونرجوا من تفاهم وتواصل مع الآخر وأن الخيار الآخر البديل عن الحوار هو المواجهة أو التقوقع وهو حوار له أخطار أفدح.

٢- إن الحوار أضحى الآن مطلبًا وتوجهًا عالميًا وأصبحت أصوات المنادين به أعلى وأوضح من أصوات المشاغبين عليه وأصبح ينادى به من على المنابر الدولية، وتعقد له الندوات والمؤتمرات فى كل مكان .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فى معانى الحضارة والثقافة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحضارة فى مفهومها العام هى نتاج كل الأعمال والجهود والنشاطات التى قام بها الإنسان أو يقوم بها للارتقاء بنفسه وتحسين ظروفه المعيشية فى بيئته على الأرض.. هذا المفهوم العام عن الحضارة وإن كان غير محدد إلا أنه يقرب معنى الحضارة نوعًا ما من الأذهان، أما المفاهيم والتعريفات الأكثر تحديدًا فقد تعددت واختلفت قديمًا وحديثًا ومن حيث المنظور الذى ننظر للحضارة من خلاله: اجتماعى، فلسفى، تاريخى ، سياسى ... إلخ مما لا مجال للخوض فيه وحسبنا هنا أن نورد بعض هذه المصطلحات على سبيل الاسترشاد وللتفريق بين معنى الحضارة والثقافة.

كان التعريف القديم للحضارة والثقافة يفرق بين الاثنين باعتبارهما شيئين مختلفين، ويركز على أن الحضارة تختص بكل الجوانب المادية فى المجتمع فى حين تختص الثقافة بباقى الجوانب المعنوية فيه.

أما حديثًا فإن مفهوم الحضارة يندرج تحت معانى عديدة منها : «أن الحضارة هى النظرة للمجتمع بكل مكوناته التى تكفل له البقاء، أو هى البناء الاجتماعى الحديث السائد فى الدول المتقدمة التى حققت مستوى مرتفعًا من التنمية التكنولوجية، مصحوبة بشبكة واسعة من المؤسسات المدنية والسياسية والاجتماعية والقانونية التى تمد المجتمع بمعدلات ثابتة من التنمية» [٢٦].

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والحضارة «ظاهرة إنسانية عامة فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يرتقى ويعمل على تحسين أحواله بنفسه بفضل ما أهداه له الله من عقل يمكنه من التفكير واختزان المعلومات والربط بينها والإفادة منها، فكل الأجناس متحضرة ، وما من شعب إلا وله مستواه الحضارى، والفرق فى المستويات فقط» (٢٧)، والحضارة والثقافة تتداخلان فى المفهوم والمعنى وحتى فى الاصطلاحات، تداخلاً يجعل من العسير الفصل بينهما، فنحن فى كلامنا عن الثقافة أو الحضارة نجد أنفسنا مدفوعين بالضرورة للكلام عن الاثنين معاً.

وإذا كانت الحضارة تبين ما وصل إليه مجتمع من المجتمعات من تقدم ورقى مقارنة بباقى المجتمعات الأخرى، فإن ثقافة هذا المجتمع هى التى تبين وتوضح الفوارق التى تميزه عن باقى المجتمعات ، كما أن كلاً من الحضارة والثقافة مرتبطان صعودًا وهبوطًا، فالتقدم الحضارى يتبعه فى العادة نمو وانتشار للثقافة، والتدهور الحضارى قد يعقبه هبوط وانحسار ثقافى.

وقد يكون الخلاف الواضح بين الحضارة والثقافة قابلة للانتشار بين المجتمعات، بينما الثقافة يكون انتقالها وانتشارها من الصعوبة بمكان، ومحكوم بظروف شديدة الندرة، فقديمًا كانت الحضارة والثقافة تخصان أمة واحدة أو مجتمعًا واحدًا، ولكن بعد موجات الغزو والفتوحات التى اجتاحت العالم على مدى عصوره المختلفة ظهرت الحضارة الواحدة ذات الثقافات المتعددة كالحضارة الرومانية والحضارة الإسلامية وأخيرًا الحضارة الغربية، ومن الأقوال المنتشرة حاليًا أن العالم دائمًا ما تسوده حضارة واحدة وعدد كبير من الثقافات وكأن هذه الحضارة الواحدة ثقافة امتلكت مقومات القوة التى جعلتها تبرز وتتفوق عما سواها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والثقافة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بذاتية الإنسان وهويته وقيمه المتوارثة والخاصة به دون غيره، فالإنسان يقبل عن طيب خاطر كل ما يجعل حياته هينة ميسورة، لذلك يقبل على استخدام وسائل الحضارة والمدنية الحديثة دونما تردد أو حرج، لكنه يأبى ويرفض بكل شدة أن يتخلى عما ورثه من عرف وعادات ولباس وقيم، ويرى المفكرون أن الحضارات تلاقحت وتفاعلت مع بعضها البعض على مدى التاريخ، كل حضارة تأخذ وتعطى لغيرها من الحضارات حتى وصل التبادل والتفاعل إلى الحضارة التى نعيش عصرها اليوم، وهى وإن كانت تسمى بالحضارة الغربية، إلا أنها نتاج مشاركة وتفاعل جميع الحضارات السابقة، ويغالى المفكرون فى تطبيق هذه القاعدة على جميع الحضارات، لا يستثنون إلا الحضارة المصرية القديمة فى عصورها الأولى وكذلك الحضارة الصينية القديمة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

● الفصل الرابع

تفرد الحضارة الإسلامية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تشترك الحضارة الإسلامية مع غيرها من الحضارات وتتشابه فى الكثير من عوامل النشأة والتطور ثم الهبوط والتدهور لكنها تكاد تنفرد عن باقى الحضارات بخصائص اختصت بها وحدها وامتازت بها.

أول هذه الخصائص وأهمها على الإطلاق هو الدين ، فقد كان الإسلام هو الجذوة التى ابتعثت هذه الحضارة ثم كان بعد ذلك هو الوعاء الحاضن لهذه الحضارة والسياج الخاص بها على اختلاف مراحل نموها وتطورها، حتى أنه يمكننا القول ونحن مطمئنون تمام الاطمئنان أنه لولا الدين الإسلامى لما وجدت الحضارة العربية الإسلامية، نعم كان من الممكن إذا واتت الظروف أن ينشأ فى الجزيرة العربية مهد الحضارة الإسلامية نوع من الحضارة الإقليمية البسيطة ثم لا تلبث أن تزوى كما زوت حضارات فى مثل ظروفها مثل حضارات اليمن وحضارات بين النهرين، ولكن أبدًا ما كان من الممكن أن تصل هذه الحضارة إلى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من مكانة وقوة فسادت أرجاء العالم لأكثر من خمسة قرون وصنفت ضمن أكبر الحضارات التى شهدها العالم على مدى تاريخه.

مَنَّ اللّٰه على هذه المنطقة من العالم بأن جعلها مهد رسالته الخاتمة، ولم تكن مهيأة بأى حال من الأحوال لقيام حضارة كبرى، كان العرب يعيشون فى بيئة قاحلة شحيحة الأمطار محرومة من الأنهار والأرض الخصبة، تلك البنية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تشترك الحضارة الإسلامية مع غيرها من الحضارات وتتشابه فى الكثير من عوامل النشأة والتطور ثم الهبوط والتدهور لكنها تكاد تنفرد عن باقى الحضارات بخصائص اختصت بها وحدها وامتازت بها.

أول هذه الخصائص وأهمها على الإطلاق هو الدين ، فقد كان الإسلام هو الجذوة التى ابتعثت هذه الحضارة ثم كان بعد ذلك هو الوعاء الحاضن لهذه الحضارة والسياج الخاص بها على اختلاف مراحل نموها وتطورها، حتى أنه يمكننا القول ونحن مطمئنون تمام الاطمئنان أنه لولا الدين الإسلامى لما وجدت الحضارة العربية الإسلامية، نعم كان من الممكن إذا واتت الظروف أن ينشأ فى الجزيرة العربية مهد الحضارة الإسلامية نوع من الحضارة الإقليمية البسيطة ثم لا تلبث أن تزوى كما زوت حضارات فى مثل ظروفها مثل حضارات اليمن وحضارات بين النهرين، ولكن أبدًا ما كان من الممكن أن تصل هذه الحضارة إلى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من مكانة وقوة فسادت أرجاء العالم لأكثر من خمسة قرون وصنفت ضمن أكبر الحضارات التى شهدها العالم على مدى تاريخه.

مَنَّ الله على هذه المنطقة من العالم بأن جعلها مهد رسالته الخاتمة، ولم تكن مهيأة بأى حال من الأحوال لقيام حضارة كبرى، كان العرب يعيشون فى بيئة قاحلة شحيحة الأمطار محرومة من الأنهار والأرض الخصبة، تلك البنية الأساسية لنشأة الحضارات وكانت بيئتهم الصحراوية الجافة والوعرة تمثل حاجزًا جغرافيًا بين أكبر حضارتين فى هذا الزمان، الحضارة الفارسية فى الشرق والحضارة الرومانية فى الشمال والغرب.

كان العرب يعيشون أشتاتًا ، قبائل متفرقة تحكمها العصبيات وتندلع بينها الحروب والمنازعات فيدوم بعضها لعشرات السنين، وحتى المدن الصغيرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المستقرة نوعًا ما مثل مكة ويثرب رغم قلتها كانت تفتقد إلى أى تنظيم إدارى مركزى، فكانت تتوزع فيها السيادة والنفوذ بحسب قوة العشائر والبطون، فى بيئة بهذه المواصفات جاء محمد ﷺ برسالته السماوية فكانت كأنها الصيحة التى أيقظت الجزيرة العربية وألفت بين قبائلها ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ (سورة الأنفال: ٦٣)، فصاروا بنعمة الله وهدى رسالته إخوانًا.

جاءت هذه الرسالة أول ما جاءت بـ (اقرأ) فى وقت كانت الأمية هى سمة الغالبية العظمى للعرب، كان من يعرفون القراءة والكتابة يعدون على الأصابع، لم يمر من عمر الزمان غير ثلاثة عقود إلا وكانت هذه الدولة الفتية التى وحدَّها الإسلام وجمع بين أشتاتها وشواردها، إلا وكانت تناجز أكبر قوتين فى هذا الزمان، بل وتنتصر عليهما المعركة تلو الأخرى، وما أن انقضى قرنان من الزمان إلا وكانت شمس هذه الحضارة تشرق على العالم كله وتتفوق عما عداها من الحضارات ثم تظل سائدة على مدى قرون طويلة من الزمان، نعم كان الدين الإسلامى وليس سواه هو الباعث والمنشئ لهذه الحضارة العظيمة.

لقد كانت تعاليم وأفكار الإسلام بجدتها وسموها ورقيها تفعل فعل السحر فى الفرد المسلم والمجتمع على السواء إذ جبت الأحقاد وألفت العصبيات وقوضت سنن الجاهلية وأقامت مكانها قواعد العدل والحرية والمساواة؛ جاء الإسلام ليسوى بين الناس جميعاً أبيضهم وأسودهم ويلغى التفاضل بينهم إلا بميزان التقوى، وأخرجهم من جهالة الأوثان والخرافات إلى نور الحق والمعرفة والخير، فكان المسلمون لا يجدون غضاضة فى أن يؤمروا عليهم بلال الحبشى والذى كان عبدًا فأعتقه الإسلام، أو صهيب الرومى أو سلمان الفارسى. بل لقد فاق الأمر ذلك حتى يقول الرسول الكريم حين تنازع المهاجرون والأنصار كل يريد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أن ينسب سلمان إليه (سلمان منا آل البيت) فأى فضل وأى تكريم، وأن يقول عمر بن الخطاب وهو من هو (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا) يقصد بلال، كانت هذه المساواة ومعها الحرية والعدل هى العوامل التى دفعت شعوب الأمم التى فتحها الإسلام لتقبل على هذا الدين أفواجًا، ثم تتفاعل هذه الشعوب مع الحضارة الجديدة تأخذ منها وتعطيها حتى بلغت من الرقى والتطور ما لم تبلغه حضارة قبلها.

إذًا كان الدين الإسلامى بتعاليمه وقيمه هو المكون الأول والرئيسى لهذه الحضارة، وعلى هدى هذه التعاليم شارك غير العرب أعظم مشاركة وساهموا بالنصيب الوافى فى تخصيب ونماء هذه الحضارة فكان منهم القواد مثل أبو مسلم الخراسانى وطارق بن زياد فاتح الأندلس، وكان منهم أعظم علماء الحديث كالبخارى والترمذى وابن ماجة بل إن أعظم علماء اللغة «سيبويه» من غير العرب، كان هذا هو ثانى عامل بعد الدين فى ثراء وغنى وازدهار الحضارة العربية، وكان ثالث هذه العوامل هى اشتراك غير العرب وغير المسلمين فى بناء هذه الحضارة وتشكيل هذه الثقافة ، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن مرحلة من مراحل بناء الحضارة الإسلامية وهى مرحلة نقل الموروث الحضارى والثقافى من الحضارات السابقة إلى العربية قد قامت على عاتق وجهد غير العرب وغير المسلمين من النصارى النسطوريين والذين لهم الفضل الأكبر فى ترجمة التراث الحضارى والثقافى للحضارات السابقة إلى العربية، حتى تمكن المسلمون والعرب من حفظة واستيعابه، ولنا أن نقرر فى هذا المجال أيضًا أنه لولا جو التسامح والحرية والتفتح لما استطاع هؤلاء العلماء غير المسلمين أن يقوموا بهذا الدور العظيم.

بعد مرحلة النقل والترجمة من الحضارات الأخرى راح العرب المسلمون جنبًا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إلى جنب مع شعوب الأمم التى دانت بالإسلام عقيدة وبالعربية لغة دون قهر أو إرغام ينشئون ويبدعون حضارتهم الخاصة والمتفردة فى شتى فروع العلم والمعرفة والفنون، والتى كانت المعين الذى أخذ عنه الغرب عوامل نهضتهم بعد ذلك، وإن حاولوا بعد ذلك طمس هذه الحقيقة بدافع التعصب والغرور. بل يرجع الفضل للعرب المسلمين فى إنشاء وإظهار علوم لم يعرفها العالم من قبلهم.

فيرجع الفضل إلى جابر بن حيان فى ظهور علم الكيمياء التجريبية بعد إن كانت قبل ذلك مفرق فى الشعوذة والسحر، كما أن علم التفاضل والتكامل نشأ على يد ثابت بن قره بالاشتراك مع العالم المسلم أبو الوفاء محمد البوزجاتى، أما علم الاجتماع الحديث فلا أحد يجادل فى أن صاحبه ومؤسسه من غير سبق هو ابن حلدون.

كما ساهم العلماء العرب والمسلمون بأوفى نصيب فى علوم الطب والصيدلة والفلك والهندسة والرياضة والجغرافيا والفلسفة، وأتوا بكل جديد ومستحدث وظلت كتبهم تدرس وتعد المصدر الرئيسى لهذه المعارف والعلوم فى جامعات ومعاهد الغرب حتى بعد تفكك الدولة الإسلامية وانحلالها.

«ففى مجال الطب توصل ابن النفيس للدورة الدموية فى الإنسان قبل أن يتكلم عنها هارفى الذى نسب إليه الغرب بعد ذلك الفضل فى اكتشافها، ونبغ أبو القاسم الزهراوى فى الجراحة وكان كتابه (التعريف لمن يعجز عن التأليف) مرجعًا يدرس فى كليات الطب الغربية على مدى قرون، كما كان كتاب (المنتخب فى أمراض العين) للعالم الطبيب عمار بن على أهم كتب طب العيون فى زمانه وإليه يرجع الفضل فى استخدام الإبرة المجوفة لإزالة ماء العين (الكتاركتا) وفى علم النبات أضاف العلماء العرب ألفى نبات لما كان يعرفه اليونان من قبل (٦٠٠ نبات فقط).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولم تعرف أوروبا أرسطو إلا عن طريق ابن رشد وفى علوم الطبيعة كان ابن الهيثم هو أول من اكتشف وتكلم عن قانون الضوء وألف فيه» [٢٨] وهناك الكثير والكثير مما يمكن الاستشهاد به على أن الحضارة الإسلامية العربية كان لها فضل السبق والابتكار فى كثير من العلوم والفنون وكان لها الفضل فى حفظ تراث الإنسانية لدى الحضارات السابقة من الضياع والاندثار.

أما الثقافة الإسلامية فلم تكن ثقافة جمود وانغلاق وإنما كانت ثقافة تفتح وتواصل مع الثقافات الأخرى وأخذت منها وتأثرت بها بما لم يكن متعارض مع قيمها وأصولها، بل إنها كانت «الثقافة الوحيدة التى أبرزت فلسفة النور فى العالم وفى القرآن سورة تسمى سورة (النور) والنور اسم من أسماء الله تعالى وقد تكررت كلمة النور فى القرآن ٤٩ مرة وجاءت كلمة النور والأنوار جزءًا من عناوين مئات الكتاب والمصنفات فى التراث، وإذا كانت مصادر المعرفة فى الفلسفات الغربية حتى الآن حبيسة الحس أو الفعل فإن النور فى الفلسفة الإسلامية مصدر من مصادر المعرفة ربما يفوق فى يقينته مصدر العقل ومصدر الحواس، ومفهوم النور فى الثقافة الإسلامية غاية فى الثراء والخصوبة والتنوع، فالله نور والقرآن نور والتوراة والإنجيل نور والنبى ﷺ نور والأنبياء نور والعلم نور والجهل ظلام والبصيرة نور، وعمى القلوب ظلام، والإيمان بالله نور ، والكفر به ظلام، وليس صحيحًا أن ثقافتنا تكرس الثبات والسكون وتنفى التطور والتجديد، بل إن التجديد أصل من أصول هذا الدين الذى نشأت حوله هذه الثقافة ، فالتعبير مبدأ قرآنى وهو شرط التطور للأفضل ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (الرعد :١١).

والتجديد فى الدين واستمراره وتواصله حقيقة قررها النبى ﷺ فى ألفاظ صريحة واستعمل فيها كلمة (التجديد) وذلك فى الحديث الشريف (إن الله يبعث

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هل الحضارة الغربية حضارة نقية؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحضارة الغربية حضارة نقية.. هذه المقولة انتشرت وذاعت بعد نهوض الحضارة الغربية وبسط سيادتها على الحضارات الأخرى فى العالم ومفادها أن الحضارة الغربية استقت عناصر نهضتها الحديثة وعوامل تفوقها من ينابيعها الأصيلة فقط، ولم تستعن أو تتأثر بأى من الحضارات الأخرى، وهى مقولة يشوبها التعصب والاستعلاء كما تتضمن الكثير من الأغاليط والتدليس.

وكان ظهور هذه المقولة مواكبًا لمقولة أخرى مفادها تفوق الجنس الأبيض وتميزه واختصاصه بمميزات التفوق عن باقى أجناس العالم، ولا ندهش حين نجد مثل هذه المقولات فى الكتب العلمية التى من المفترض أن تتصف بالحيدة وتوخى الحقيقة، أو لعل ما يلخص روح المركزية الغربية أفضل تمثيل ما جاء فى أحد القواميس عن خصائص الأوروبيين بأنهم شعوب الأرض الأكثر تهذبًا والأكثر تمدنًا والأحسن صنعًا يبزون جميع الشعوب بسائر العالم فى العلوم والفنون وفى التجارة وفى الملاحة وفى الحرب وفى الفضائل العسكرية والمدنية وأنهم أكثر بسالة، أكثر فطنة، أكثر كرمًا، أكثر نعومة، أكثر اجتماعية ، أكثر إنسانية، ترى هل هناك إعجاب متضخم بالذات يفوق هذا الشعور بهذه الروح المشبعة بالاستعلاء والتعصب، راحت الدوائر الثقافية والفكرية الأوروبية تستبعد كل تأثير أو فضل أى من الحضارات الأخرى، وتؤكد أن امتدادها الحضارى يرجع إلى الحضارة اليونانية والرومانية فقط، ويبدو أن هذه الأسطورة لم تكن وليدة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العصور الحديثة، فنجد أن نظرة اليونانيين إلى غيرهم من الشعوب كانت متوافقة مع هذا الفكر الاستعلائى، «كانوا يرون أن آلهتهم خصتهم من دون البشر بالتفوق فى ميدان الفهم والعلم والاختراع والابتكار وكل ما عداهم من البشر (بربارى) أى هجمى لا حضارة لهم أو على مستوى خفيض من الحضارة، حتى الفرس نظر إليهم اليونان على أنهم قوم غير متحضرين، ولم يعترفوا بالتحضر إلا للمصريين الذى سبقوهم من ميدان التحضر بمراحل، وكان اعتراف الإغريق للمصريين مشوبًا بالكراهية والحقد والحسد ويتجلى هذا فى كلام معظم كُتَّابهم عن مصر، سواء منهم الذين زاروها أم الذين لم يزوروها» [٣٠] ولكن جاء من العلماء والمفكرين المنصفين من ينقض هذه النظرية من جذورها ويبين زيفها وخطأها.

«وقد تكفل المؤرخ الأمريكى مارتن برنال فى كتابه الشهير (أثينا السوداء) بالتكذيب المنهجى لهذه الأسطورة الغربية حيث أثبت من خلال تحليل العقائد الدينية والأساطير والآداب والفنون التأثير العريق للحضارة المصرية القديمة على شكل ومحتوى الحضارة اليونانية، ولم يكن غريبًا أن تفرض الدوائر الفكرية الغربية مؤامرة صمت على الكتاب استمرت ثلاث سنوات إلى أن نجح بعض المثقفين الأمريكيين التقدميين فى فض الحصار عن الكتاب ومناقشته وإذاعة أفكاره» [٣١] ولم تكن هذه أول مرة يتم فيها تفنيد هذه الأسطورة التى حاولت بعض الدوائر الثقافية الغربية بإلحاح التأصيل لها.

«فإذا كان جمهور المؤرخين الغربيين يرون أن التراث العقلى اليونانى خلق عبقرى أصيل جاء على غير مثال سابق ويسمونه (المعجزة اليونانية) فإن جورج سارتون يسفه هذا الرأى وينبه إلى أن المعجزة اليونانية المزعومة لها أب وأم (شرعيان) أما أبوها فهو تراث مصر القديمة، وأما أمها فهى ذخيرة بلاد ما بين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

النهرين، ويزيد سارتون فيقيم فى بحوث أخرى تقابلاً بين ما سموه بالمعجزة اليونانية وما يسميه هو بالمعجزة العربية فى عصر الإسلام الذهبى» (٣٢).

من ذلك نتبين أن الحضارة الغربية فى مصدرها الأصلى وهو حضارة اليونان أخذت وتأثرت بحضارة مصر القديمة، وكذلك بحضارات بين النهرين فماذا عن تأثر هذه الحضارة (الغربية) خلال مراحل تطورها وصعودها.

كان المصدر الثانى الذى أخذت عنه الحضارة الغربية هو الحضارة الرومانية المسيحية والتى انتهت بزحف القبائل الجرمانية المتوحشة على روما واحتلالها فانطفأت بذلك شعلة الحضارة الرومانية وراحت الشعوب الأوروبية فى سبات عميق حتى جاءت الحضارة الإسلامية العربية فأحيت موات الحضارات السابقة ولحقت بتراث هذه الحضارات قبل أن يندثر إلى الأبد، وقامت بترجمته وحفظه ثم أنشأت حضارة بازغة سادت العالم كله طوال خمسة قرون أو يزيد، وطوال هذه الحقبة الطويلة من عمر الزمن كان الغرب يعيش عصرًا من الجهل والتخلف لم يخرج منه إلا عن طريق اتصاله بالحضارة الإسلامية المزدهرة والأخذ عنها والاستضاءة بنورها.

ومثلت كل من الأندلس وصقلية منطقتى التماس أو الاتصال الحضارى بين الحضارة الأوروبية الناشئة والحضارة الإسلامية المتقدمة والتى كانت توشك على الغروب حيث قامت حركة ترجمة ضخمة فى كل من صقلية والأندلس لكل علوم ومعارف العرب إلى أوروبا، وظلت هذه العلوم والمعارف هى المصدر الأساسى للتعليم والتنوير حتى بداية عصر النهضة فى أوروبا، وبزوغ حضارتها الجديدة فأنكر الغرب فضل الحضارة الإسلامية على حضارتهم وطمسوا كل ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد، ولكن الحقيقة أبدًا لا تموت فيقيض الله من يظهرها ويجليها حتى يستحيل على المنكرين إنكارها، فيأتى مفكرون منصفون غربيون يعترفون بفضل الحضارة الإسلامية العربية وسبقها وريادتها، ويؤكدون أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحضارة الغربية الحديثة ما كان لها أن تتقدم وتزدهر بغير اتصالها بالحضارة الإسلامية وتلقيها عنها.

«فيقول كوبلر يونج فى كتابه «أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب» يجب أن يذكر مسيحى أوروبا المعاصرة بالدين الثقافى العظيم الذى يدينون به الإسلام منذ أن كان أجدادهم فى العصور الوسطى يسافرون إلى حواضر الإسلام فى إسبانيا العربية خاصة ليتلقوا على أيدى معلميها من المسلمين الفنون والعلوم وفلسفة الحياة، وفى جملة ذلك التراث الكلاسيكى القديم الذى أحسن الإسلام رعايته وصانه من الضياع حتى استطاعت أوروبا أن تسترده وترعاه» (٣٣).

وكذلك «نشر الأب اليسوعى الإسبانى جوان أندريس بالإيطالية كتابًا جليلاً فى سبعة مجلدات تحت عنوان (أصول كل الآداب وتطورها وأصولها الراصنة ١٧٨٢) فى سبعة مجلدات ثم نشره فى روما منقحًا موسعًا بين سنتى ١٨٠٨ ، ١٨١٧ فى ثمانية مجلدات وفيه أكد أن النهضة التى كانت فى أوروبا فى كل ميادين العلوم والفنون والآداب والصناعات مردها إلى ما ورثته عن حضارة العرب وجاء هذا منه أشبه بإلهام عبقرى» (٣٤).

كما أن العلماء والمفكرين يضيفون مصدرًا آخر من مصادر نقل الحضارة الإسلامية العربية إلى الحضارة الأوروبية الغربية ألا وهو الحروب الصليبية التى استمرت من عام ١٠٩٧ وحتى عام ١٢٩١ بسقوط آخر معاقل الصليبيين فى أيدى المماليك . إذ «قصد الصليبيون الشرق بنية فتح بيت المقدس للعقيدة المسيحية وظلت الحرب نحو قرنين من الزمان، وظل الاحتكاك مستمرًا خلال ذلك بين الجانبين وأفاد الصليبيين الذين أدهشهم أن يجدوا أنفسهم أمام حضارة أسمى بكثير من حضارتهم، وبرغم الحرب المثارة حاول الأذكياء منهم اصطناع بعض مظاهر وآثار هذه الحضارة، وعن طريق العلماء الحقيقيين الذين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

استقر بهم المقام فى الأقاليم التى احتلها المسيحيون تعرف هؤلاء على حضارة العرب وتأثر بذلك العديد منهم وعلى رأسهم (أديلار أوف باث) والذى كان من بين المترجمين المعروفين» (٣٥).

ومجال الاستشهاد يضيق عن ذكر شهادات المفكرين والعلماء والمنصفين الغربيين لما للحضارة الإسلامية من فضل ومساهمة فى بناء وازدهار الحضارة الأوروبية الغربية ونعود فنقول إن المطلوب الآن ليس إثبات أفضلية حضارة على حضارة أو امتياز ثقافة على ثقافات أخرى فالحضارة نتاج جهد إنسانى مشترك شارك فيه جميع الأجناس والأعراق كل حسب ما يسرته الظروف وتطلبه واقع الحال، وأن الثقافة أو الثقافات هى موروث تراث عالمى تغنى بعضها بعضًا بالتفاعل والتواصل والحوار والعودة إلى روح السماحة والفهم والموضوعية والذى كان سائدًا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والذى شهد ردة شديدة فى هذا الشأن بعد ذلك ما زالت حتى اليوم ، فقد «قدر للتعصب الدينى والتحزب الجنسى أن تخف حدته منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وأن يعالج موضوع الحضارات الكبرى والثقافات العالمية فى كثير من الحالات ـ بموضوعية ـ وأمانة علمية وعندئذٍ كشف الباحثون فى مؤتمراتهم العالمية وندواتهم الثقافية وبحوثهم العلمية عن نصوص ووثائق رفعت الحواجز التى كانت تقوم بين الحضارات بعضها البعض، وأثبتت أن الثقافة الإنسانية متنوعة الينابيع متعددة المصبات، وأن الثقافات الكبرى تتفاعل بعضها مع بعض وخلال الأخذ والعطاء يزداد مضمونها خصوبة وثراء وليست حضارة اليوم فى أعلى مستوياتها إلا حصيلة جهد سبقت إليها حضارات عالمية، تركت بصماتها على تاريخ البشرية وتقدمها وهذا خير تمهيدًا للوحدة الإنسانية التى تنتفى معها الأحقاد وتتلاشى الأطماع وتتحقق الدعوة إلى السلام» (٣٦).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حتمية التبادل الحضارى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إذا كنا نعيش جميعًا الآن تحت ظل وعلى ثمار الحضارة التى تسود العالم والتى تعرف مجازًا بالحضارة الغربية فما الموقف الذى يجب أن يتخذه المسلمون من الغرب ومن حضارة الغرب؟

وبدون مكابرة أو لجاج يجب أن نعترف أن هذه الحضارة هى القائدة والمتقدمة والسائدة فى العالم كله، هل نأخذ موقف الانعزال والمقاطعة ونقبل بالتخلف والتدهور الذى تحياه مجتمعاتنا الإسلامية؟ فنعود قرونًا للوراء أم نأخذ بمنطق التبادل والتفاعل الحضارى بما يعود على الجميع بالخير والمنفعة؟

بادئ ذى بدء فإن قواعد الشرع والدين لا تمنعنا أو تنهانا عن ذلك بل تكاد أن تحثنا وتدفعنا، فهذه القواعد لا تقيد حركة المسلم أو تقعد به عن التقدم والتطور وتحقيق المنفعة له ولمجتمعه وللعالم أجمع. «إن الموقف الذى يمليه الإسلام على حملة أمانة الدعوة الإسلامية من حضارة الغرب من منظور مبادئ الإسلام هو موقف التكميل لا الهدم والتسديد لا النبذ والتعاون على ما فيه صالح البشرية فى إطار القيم الإنسانية المشتركة» (٣٧).

فالرسول الكريم ﷺ ما جاء بالدعوة من عند ربه إلا ليتم ما بدأه من سبقوه من الرسل الكرام ويكمل ويجمل ما أرسوه من قواعد وبناء (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وكذلك يدلنا حديثه عن أنه اللبنة التى وضعها الله تعالى ليكمل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بها شريعته ويتم بها فضله ونوره على عباده، وما قرره كتاب الله فى علاقة المؤمنين بغيرهم من أهل الديانات الأخرى أنه لا يسوغ جعل اختلاف الشرائع سببًا فى معاداة المخالفين لشرعنا وإنما الذى يسوغ شرعًا هو استباق الخيرات لقوله تعالى ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ (المائدة : ٤٨)،

«إن القرآن ليس مبتكرًا فى كل ما جاء به من أحكام بل كثيرًا ما جاء مهذبًا لطرق التعامل الذى تقتضيه طبيعة الاجتماع أو منتقيًا لأكمل ما كان موجودًا منها فى تحقيق الغرض المقصود منه، فما كان الإسلام إلا دينًا يراد به تدبير مصالح العباد وتحقيق العدل والخير والمساواة ولم يأت ليهدر كل ما كان عليه الناس ليؤسس على أنقاضه بناءً جديدًا لا صلة له بفطرة البشر وما تقتضيه سنن الاجتماع، وإنما كان ينظر إلى الأشياء من جهة ما فيها من مصالح ومضار فما كان صالحًا أبقاه وأقره وجعله من شريعته، وما كان منها ضارًا مفسدًا للحال أو للاجتماع أو الأسس نهى عنه وحرمه» (٣٨).

فالحضارة التى نعيشها الآن وإن كانت تنسب إلى الغرب إلا أنها كما قلنا تراث إنسانى مشترك يجب أن نأخذ منها ونشارك فيها مع الآخرين بقدر حاجتنا واستطاعتنا دون هواجس أو عقد «نحن لا ننكر أبدًا أن حضارة الغرب فيها الكثير والكثير جدًا مما يشاد به ويستحق الإعجاب. ويبعث على الانبهار وأنها أفادت الإنسان والإنسانية على المستوى التقنى والفنى والعلمى، بل والإنسانى أيضاً، وإن تجربة الإمام محمد عبده وتلاميذه (مثلاً) مع الحضارة الغربية درجت فى اتجاه صحيح فلم تقدم على إلغاء التراث وشطبه بجرة قلم ولم تتعامل مع حضارة الغرب من فراغ، بل بدأ الإمام من التراث أولاً وأسند

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ظهره إليه وهو يقلب عقله وبصره فى منجزات الغرب العلمية والسياسية، وكان برنامجه أشبه بتركيبة جمعت بين المفاهيم الحضارية الغربية ذات المنزع الإنسانى والأخلاقى والمفاهيم السياسية الشرعية المرنة فى تراث الإسلام، نصوصًا وقواطع وفهوماً أيضاً وفى هذه التركيبة تمت الموائمة بين يسر الإسلام وسماحته ووسطية حضارته وبين حضارة الغرب فى جانبها الإنسانى الأخلاقى، وقد انطلق الإمام محمد عبده وتلاميذه المخلصون من مسلمة بسيطة هى شرعية أن يأخذ الإسلام من الغرب ما ليس عنده مادام لا يصطدم ومبادئه وقواطع نصوصه، فمثلاً يستند الإمام فى جواز تطبيق صور الحكم العادلة عند أهل الكتاب على قاعدة تراثية عبر عنها (ابن القيم) بقوله (إن إمارات العدل إذا ظهرت بأية طريقة، كان ذاك شرع الله ودينه) [٣٩].

إذًا وتأسيسًا على ما سبق فحال المسلمين اليوم لن ينصلح إلا بما صلح به حالهم بالأمس قبل أن ينفرط عقدهم وتزول دولتهم وتتخطاهم الأمم فى سباق التقدم والتطور الحضارى.

«لقد قامت الحضارة الإسلامية على أساس التفاعل الحضارى فهى بهذه الخاصية ثقافة حوار فى المقام الأول، أخذت عن الحضارات السابقة واقتبست من ثقافات الأمم والشعوب التى احتكت بها، وصهرت حصيلة هذا كله فى بوتقة التفاعل الحضارى فكانت حضارة الإسلام ولا تزال مثالاً نادرًا للتفاعل بين الحضارات» [٤].

فيجب اليوم على المسلمين جميعًا أن يصلحوا ذات بينهم وينحوا جانبًا خلافاتهم الصغيرة وأن يقوموا على قلب رجل واحد لمواجهة التحدى الأكبر الذى يهدد كيانهم الحضارى وهويتهم الثقافية ولكن «قبل محاورة الغرب أو الشرق علينا أن نؤسس لحوار جديد ومختلف مع أنفسنا على الأسس التالية»:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تربية المسلم العربى على تقبل المسلم العربى الآخر، وكذلك مواطنة غير العربى أو غير المسلم، وأن نتقبل الغير من المواطنين فى الوطن. تعايشًا وتحاورًا وتسامحًا فمن يلغى أن يضطهد مواطنه (الآخر) فكيف يمكنه أن يحاور ويعايش الآخر المنتمى إلى قوميات وديانات وحضارات أخرى، إن العصبيات والمذهبيات والطوائف والإثنيات لا يمكن أن تكون القاعدة المرجعية فى التعامل الوطنى» (٤١).

كما أنه يجب على الغرب فى توجهه ورسم سياساته قبالة المجتمعات الإسلامية أن يدرك ويتفهم المقاصد والمنطلقات التى تحرك هذه المجتمعات فقد حفلت العلاقات مع الغرب بكثير من الهواجس وفقدان الثقة والريبة والشك، فعلى مدى تاريخ طويل من التعامل بين الغرب والعالم الإسلامى كان هناك من التجارب الأليمة والذكريات المفزعة الشىء الكثير والذى مازال يلقى بظلاله على مجمل هذه العلاقات حتى وقتنا هذا.

كما أن تجاهل الغرب العمدى للعديد من المشاكل والقضايا المعلقة والملحة على الجانب الإسلامى وعدم تقييمها وأخذها مأخذ الاعتبار من جانب الغرب لهو أيضًا من العوائق التى حالت دون انسياب العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى فى طريقها الصحيح والصحى، وتأتى على رأس هذه المشاكل القضية الفلسطينية والتى يتعامل مع الغرب طورًا بمنطق التجاهل وطورًا آخر بمنطق الخفة وطورًا ثالث بمنطق الانحياز والتعامى (ازدواجية المعايير) كما أن مشاكل التنمية والتطوير والتحديث وخصوصية الثقافة الإسلامية وتميزها لا تؤخذ فى الحسبان من جانب الغرب فى توجه الغرب فى توجه البرجماتى نحو الحضارة والمجتمعات الإسلامية، بل يصل الأمر إلى محاولة الهيمنة والاحتواء وفرض الأنساق الغربية على هذه المجتمعات الإسلامية.

وعلى العرب والمسلمين تبعات جسام لابد لهم من تحملها إذا أرادوا اللحاق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بركب التطور والرقى بأن يتجاوزا خلافاتهم المذهبية والعصبية وأن يجنحوا نحو الوحدة والاتحاد بحيث يمثل جميع هذه المجتمعات إسلام واحد يحاور ويتفاعل مع الحضارات والثقافات الأخرى لا إسلامات متفرقة يعادى بعضها البعض بأكثر من عداوتها للآخر.

«لن يتجاوز العرب والمسلمون مذهبياتهم وعصبياتهم ويعودوا إلى أصالة الذات وجوهرها إلا إذا رأوا تلك المذهبيات والعصبيات علميًا فى ضوء الحقيقة التاريخية كما نشأت وتطورت بلا تضخيم وأوهام وخرافات، كما يجب عليهم الاهتمام بالتنوير الثقافى العام بشأن المعطيات الحضارية الإنسانية المختلفة التى صبت فى كيان الحضارة العربية الإسلامية سواء فى حضارات الشرق الأدنى القديم أو من الحضارات الفارسية واليونانية والهندية التى اقتبس منها العرب والمسلمون باختيارهم من موقع القوة والثقة بالنفس، ثم يأتى بعد ذلك الاختبار الأكبر فكريًا للعرب والمسلمين المعاصرين بتجاوز مرأى الغرب الاستعمارى الطامع وغير المنصف، لاستيعاب ما لديه من عناصر القوة الحضارية اللازمة للبقاء فى هذا العصر» (٤٢).

تلك هى التحديات التى يجب أن يتخطاها المسلمون إذا أرادوا تصحيح هذه العلاقة (المشوهة) مع الغرب أو الآخر عمومًا لإقامة تفاعل حضارى بناء قوامه الحوار والتفاهم بعيدًا عن الصدام والصراع.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

• مصادر الباب الرابع

١- السيد ياسين. العولمة والطريق الثالث. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ ص ٤٠ - ٤١.

٢- عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله والذين معه. جـ ١٨ (عام الوفود) مكتبة مصر ١٩٩٧ ص٨.

٣- د. عبدالعزيز بن عثمان التويجرى. الحوار من أجل التعايش. دار الشروق. مصر. الطبعة الأولى ١٩٩٨ ص ١٣.

٤- عبد الستار عز الدين الراوى. ثورة العقل، دراسة فلسفية فى فكر معتزلة بغداد. دار الشئون الثقافية العامة. وزارة الإعلام العراقية. الطبعة الثانية ١٩٨٦ ص٨.

٥- د. السيد أمين شلبى. حوارات المستقبل. الهيئة العامة لقصور الثقافة. مصر ١٩٩٨ ص ٢٥٠.

٦- المصدر السابق ص٦١.

٧- د. كمال أبو المجد. حوار لا مواجهة. دار الشروق. طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ٢٠٠٢ ص١٨٥.

٨- الحوار من أجل التعايش. مصدر سابق ص١٤.

٩- الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد. مصدر سابق ص٢٢٦-٢٤٠.

١٠- د. محمد حسين هيكل. الحكومة الإسلامية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ١٩٩٦ ص ١٣١.

١١- د. محمد فرحات نور. البحث عن العقل، حوار مع فكر الحاكمية والنقل، كتاب الهلال. دار الهلال. مصر ١٩٩٧ ص ٩٤.

١٢- فهمى هويدى. للإسلام والديمقراطية. مركز الأهرام للترجمة والنشر. مصر. الطبعة الأولى ١٩٩٣ ص ٤٠.

١٣- المصدر السابق ص٤١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

١٤- حوار الحضارات، الغرب الكونى والشرق المتفرد. مصدر سابق ص ٥٨-٥٩.

١٥- التقاء المسيحية والإسلام. مصدر سابق ص ١٥.

١٦- البحث عن العقل. مصدر سابق ص٧.

١٧- رضا هلال. تفكيك أمريكا. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١ ص ٦٠.

١٨- المصدر السابق ص ٢٥.

١٩- د. ميلاد حنا. قبول الآخر، من أجل تواصل الحضارات، سبتمبر الدامى وتعليق على ما حدث. الإعلامية للنشر. مصر . الطبعة الرابعة ٢٠٠٢ ص ٨٤.

٢٠- الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد. مصدر سابق ص ٢١٥-٢١٦.

٢١- يوسف الحمادى . الإسلام وروح التسامح والرفق. مكتبة مصر ١٩٩٥ ص ١٥٣ - ١٥٤.

٢٢- حوار الحضارات الغرب الكونى والشرق المتفرد. مصدر سابق ص٥٢-٥٣.

٢٣- قبول الآخر. مصدر سابق ص١١٣.

٢٤- المصدر السابق ص ٨٧.

٢٥- د. أحمد محمد صالح. الإسلام عبر الإنترنت. مجلة الهلال. نوفمبر ٢٠٠٣ ص٩.

٢٦- حوار الحضارات. مصدر سابق ص ٣٦.

٢٧- د. حسين مؤنس. الحضارة. سلسلة عالم المعرفة العدد ٢٣٧ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب. الكويت. الطبعة الثانية. سبتمبر ١٩٩٨ ص ٢٦.

٢٨- فى تراثنا العربى الإسلامى. مصدر ١٢٤-١٢٦.

٢٩- د. أحمد محمد الطيب. الإسلام والنهضة. مجلة الهلال سبتمبر ٢٠٠٣ ص ٣٠.

٣٠- الحضارة . مصدر سابق ص ٨٠.

٣١- حوار الحضارات. الغرب الكونى والشرق المتفرد. مصدر سابق ص ٢٥٠.

٣٢- فى تراثنا العربى الإسلامى. مصدر سابق ص٦٠-٦١.

٣٣- المصدر السابق ص ٦١.

٣٤- المصدر السابق ص٢١٢.

٣٥- المصدر السابق ص ٢١٧.

٣٦- المصدر السابق ص ٥٩.

٣٧- فريد عبد الخالق . الفقه السياسى الإسلامى. دار الشروق . مصر ١٩٩٧ ص ٢١٧-٢١٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

٣٨- المصدر السابق ص ٢٢٦.

٣٩-الإسلام والنهضة. مصدر سابق ص ٣٢.

٤٠- الحوار من أجل التعايش. مصدر سابق ص ٢٢.

٤١- د. محمد جابر الأنصارى. هل نحن فى علاقة مشوهة مع النفس. كتاب العربى عدد ٤٩. مصدر سابق ص٢٢٤-٢٢٥.

٤٢- المصدر السابق ص٢٢٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الفهـــــرس

مقدمة : الإسلام والمسلمون الحجة والقدرة ٥
الباب الأول : ثوابت فى عالم متغير ١٥
تمهيد : خصوصية النظرة الإسلامية للآخر ١٧
الفصل الأول : حقوق الآخر فى الإسلام ٢٣
الفصل الثانى : منزلة خاصة لأهل الكتاب ٤٣
الفصل الثالث : الحرب فى الإسلام ٦٧
الفصل الرابع : الجهاد تفسيرات خاطئة وحقائق مغيبة ٧٣
مصادر الباب الأول ٨٥
الباب الثانى : بين النظرية والتطبيق ٨٩
تمهيد : المفترى والمفترى عليه ٩١
الفصل الأول : الفتوحات الإسلامية بين الجهاد والحرب المقدسة والضرورات السياسية ٩٥
الفصل الثانى : دار السلام ودار الحرب ١١٥
الفصل الثالث : صور مضيئة من التاريخ ١٢٥
مصادر الباب الثانى ١٣٧
الباب الثالث : المسلمون والآخر صراع الدين أم الدنيا؟ ١٤١
تمهيد : أسباب الخلاف والاختلاف ١٤٣
الفصل الأول : الآخر فى نظر المسلمين ١٥٣
الفصل الثانى : المسلمون والإسلام فى نظر الآخر ١٧٣

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الفصل الثالث : هل الصدام أمر حتمى؟ ١٩٣
مصادر الباث الثالث ٢٠٧
الباب الرابع : آفاق المستقبل، عن الحوار والتفاهم والتبادل الحضارى ٢١١
تمهيد : على ماذا نتحاور ونتفاهم؟ ٢١٣
الفصل الأول : ضرورة الحوار وشروطه ٢٢١
الفصل الثانى : عقبات عن طريق الحوار والتفاهم ٢٣١
الفصل الثالث : فى معانى الحضارة والثقافة ٢٤٧
الفصل الرابع : تفرد الحضارة الإسلامية ٢٥١
الفصل الخامس : هل الحضارة الغربية حضارة نقية؟ ٢٥٩
الفصل السادس : حتمية التبادل الحضارى ٢٦٥
مصادر الباب الرابع ٢٧١
الفهرس ٢٧٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب: ٢٣٥ الرقم البريد: ١١٧٩٤ رمسيس
www.egyptianbook.org
E-mail:info@egyptianbook.org

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٥/١٧٧٥٠
I.S.B.N.977 - 01 - 9842 - 0

This file was downloaded from QuranicThought.com